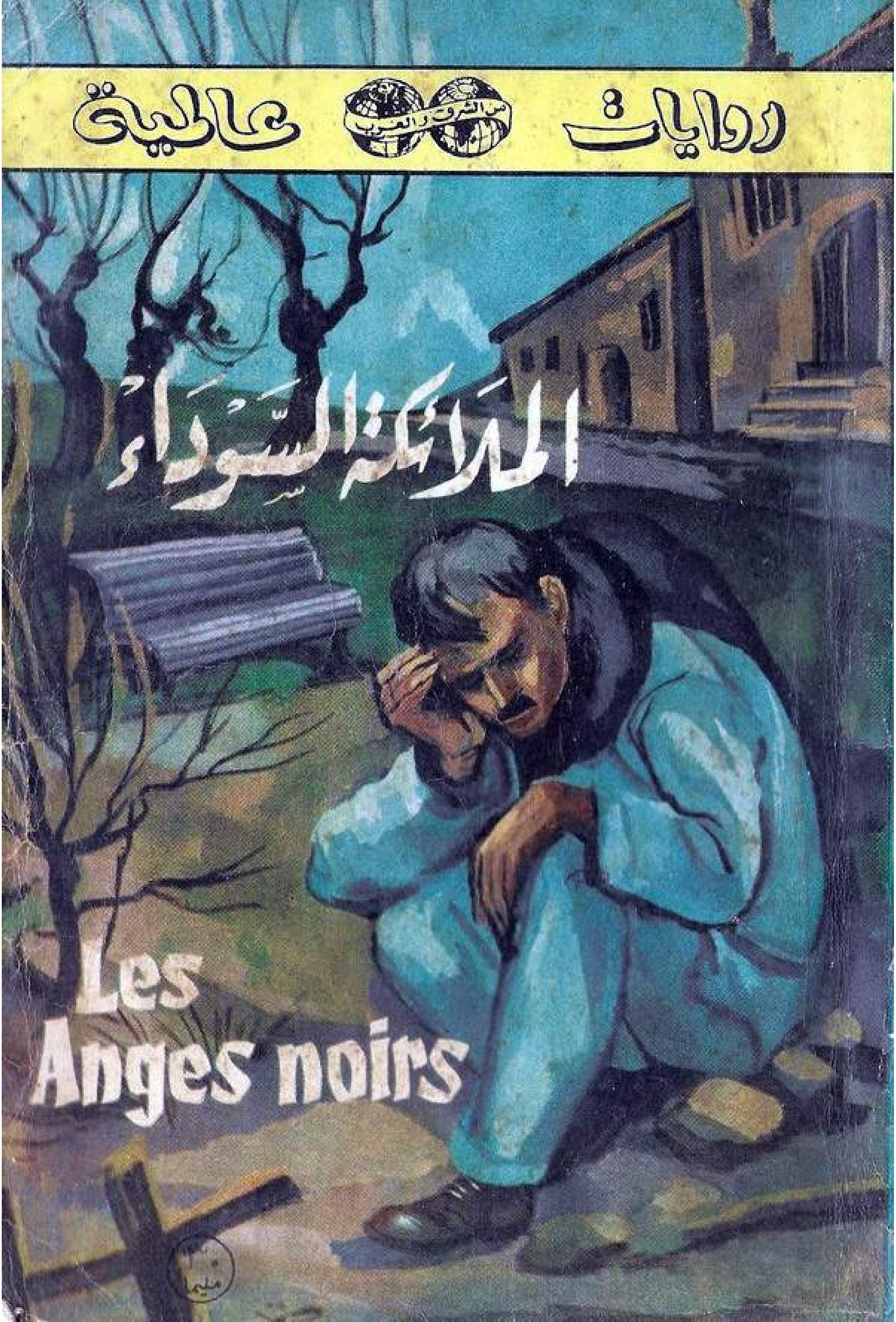
روايات عالمية
الملائكة السوداء
Les Anges noirs

روايات

عالمية

العدد رقم ٢٦٨

الملائكة السوداء

للكاتب الفرنسى الكبير

فرانسوا موررياك

ترجمة

محمود عبد المنعم

مقدمة

لست أشك يا سيدى الراعى ، انى أثير فى نفسك كثيرا من السخط والاشمئزاز ، وعلى الرغم من اننا لم نتبادل فيما بيننا كلمة واحدة فأنت تعرفنى ـ أو لعلك تعتقد انك تعرفنى ـ لانك أشرفت على هداية ما تلد ديبا ابنة خالة زوجتى .. ورجائى اليك الا يشتط بك الخيال فتظن انى أتألم لذلك ، فاذا كان فى هذا العالم رجل وددت أن أفتح بين يديه قلبى ، فأنت هذا الرجل . مازلت أذكر نظرتك عندما اعترضت سبيلك فى بهو قصر «ليوجا» أثناء اقامتى الأخيرة هناك . ان عينيك عينا صبى .. كم عمرك ؟ ست وعشرين سنة ؟ .. صبى طاهر ولكنه قادر بما أودعه الله فيه من دراية ، على معرفة مدى ما قدر على الانسان أن يهوى اليه من خسة ودناءة ، افهمنى يا سيدى ، ليس رداؤك ، لا ولا المعنى المرتبط بهذا الرداء ، هو الذى يدفعنى الى محاولة تبرير موقفى فى نظرك ، فأنت كقسيس لا تهمنى ، وانما هو مجرد يقين يساورنى فى انك وحدك الذى تستطيع أن تفهمنى ؟ قلت انك مازلت صبيا ، صبيا صغيرا ، ولكنك صبى واع ، وبى احساس انمكنون نفسك قد تعرض هو الآخر للتهديد والاختبار .

أرأيت كيف أنى ، قبل أن ابوح لك بشىء مما يعنينى . قد كشفت لك عن رأيى فيك ؟ هذا الرأى الذى كونته خلال الفترة القصيرة التى قضيتها ارقبك فى«ليوجا» ، وأنت فى مقرك الحقير مقيد بمهام وظيفتك الدينية ، محاط بأولئك القرويين الأجلاف القساة .. لا تخف ، فانى لم أصدق شيئا من أكاذيبهم عنك وأقاويلهم فيك .. انى متيقظ واع ، ياسيدى الراعى ، واستطيع من غير معرفة بك أن أتبين ما يدور فى أغوار فؤادك ، أيها البرىء المسكين ، لقد تبينت مقدار ما سوف يحل بك من ايذاء من جراء اسكان أختك معك فى ليوجا ، توتا ريفو هذه ، لقد عرفتها للوهلة الأولى ، ولطالما شاهدتها من قبل وهى بصحبة زوجها فى ملاهى مونبرناس ومونمارتر ، بل لقد أتيحت لى فرصة مراقصتها مرة من غير أن أعرف اسمها .

لقد أخذني العجب في أول الأمر من ايوائك لهذه المرأة ذات الشعر المصبوغ والحواجب المنتوفة ، بعد انفصالها عن زوجها . ولكني سرعان ما أيقنت أنك مازلت تنظر اليها بعين الطفل الغرير الذي أعماه الاشفاق والعطف . غير أن رعاياك الأغبياء ظنوا بك السوء واعتقدوا أنك انما تريد تقليدهم فيما يفعلون ، هم يزعمون أنها ليست أختك ، حتى بين أفراد أسرتنا رأت ابنة خالة زوجتي ما تلد وابنتها كاترين – وقد اعتادتا من قبل الاعتراف لديك – أن تسيئا بك الظن وان تقطعا المسافة حتى لوجدونوس لتؤديا فريضة الاعتراف هناك : ان هاتين المرأتين الطيبتين لاتصدقان ما سمعتاه ولكنهما مع ذلك ترددان المقذعات التي يتناقلها الناس عنك ، ولك أن تتصور الحنق في ملامحهما وهما تقولان متنهدتين : « انهما طبعا لا يرتكبان شيئا قبيحا » .

لعلهم قد أدركتا أنك قادر على فهم تأثير تلك القوة الخبيثة التي لا تفتأ تعمل في بعض النفوس ، لا تحنق ، فعلى الرغم من انغماسي في الوحل ومن تحولي الى جثة بلا روح ، وعلى الرغم من أنك مازلت طافيا على صفحة اليم محلقا تدوس بقدميك قمم الموج ، أراني قادرا على التأكيد انك لن تدهش للتطورات التي اكتنفت مجرى حياتي .

النجي المخلص الأمين ..! لقد فتشت عنه طويلا ، لا يوجد شيء يفصل ما بيني وبينك ، لا فضائلك ولا جرائمي ، بل ولا مسوحك الذي أوشكت أن أرتديه في يوم من الأيام ، ولا ايمانك ولا تقواك .

سأحاول بلوغ نهاية الصدق القصوى معك من غير أن أترك للقديس المتمثل فيك سببا يدعوه الى تمزيق هذه الكراسة ..

سأبتعد عن المجاملة وأتحاشى القول الفاضح وأترك التلميح يعبر عما لا يجوز التعبير عنه .

واذا كانت قد أتيحت لك يوما فرصة تلقيت فيها اعترافات انسان كشف لك مكنون حياته ، فانك لم تكتف بالاستماع الى ذكر الجرائم والخطايا تتلى عليك الواحدة تلو الأخرى ، وانما

حرصت على تركيز النظرة الشاملة على وجود هـذا الانسان ، وتتبعت الخطوط الموجهة لهذا المصير ، والقيت بالضوء الساطع على الأركان المظلمة منه ، أما أنا فلست طامعا فى الغفران منك ، لانى لا أؤمن بقدرتك على محو الخطايا ، وانما جئت اليك بلا أمل أكشف أمامك أسرارى الدفينة ، ورجائى منك ألا تترك للاشمئزاز طريقا الى قلبك ، ففى قصتى ما يقوى ايمانك بهذا العالم المحجب الذى تقوم على خدمته ، وكثـيرا ما يصل المرء الى كنه الأسرار العلوية عن الطريق الأسفل .

لا تعتقد أنى أنتمى بأصلى الى طبقة الأثرياء ، فالزواج وحده هو الذى فتح أمامى أبواب قصر ليوجيا ، فأنا ابن رجل كان فى خدمة أسرة بيلوير ، رجـل مزارع ذكى وان كان قـد حرم من التعليم تماما ، أما أمى فماتت ولمـا أبلغ ثمانية عشر شـهرا من عمرى ، وأنا أشبهها كثيرا ، لقد كانت بيضاء البشرة دقيقة الملامح ومن طبيعة تختلف تماما عن طبيعـة زوجها .. وظنى انى أعرف عنها أشياء أخفيت عنى زمنا طويلا ، اذ من شـيمة الرجل الذى انحدر الى أبعد دركات الحضيض أن يبحث بين أسـلافه عمن يلقى عليه مسئولية هذا الانحدار ، ونحن نشعر أن هذا السلطان الموروث الذى يعمل على الهبوط بنا يفوق فى جبروته كل ما أوتى الانسان البائس من قوة ومناعة ، ولـكى يصبح هـذا السلطان دافعا لنـا لا يقاوم نحو السقوط يجب أن تتجمع فيـه القوى المتراكمة جيلا بعد جيل .. كم من الموتى تروى غليلها فينا وبنا ! كم من شهوات للأسلاف تجد منفذا لها من خـلالنا ..! ما أكثر الأجداد الذين يحركون أذرعنا نحو الاثم حـين نتردد فى ارتكابه ! ولعلك تقول معترضا ان أجدادا عديدين لنا يعملون على وقف هذه الأذرع ، وعلى مساعدتنا فى قهر الظلمات ، وردى عليـك أن ما خبرناه من هذا الأمر لا يتفق مع قولك هذا ، وكفى .

أما الأمر الذى اثر فى حياتى فقد بدأ فعله منذ طفولتى الأولى نعم ، ان ما تعود به الذاكرة الى لا يشير الا الى انى كنت دائمـا محل اعجاب الناس ، ولعل الأصح أن أقول : ان الاعجاب كله كان

بشرة وجهي ، ولطالما استخدمت وجهي هذا في خدمة أغراضي ؟ لا تتهمني بالغرور الكاذب ، فالواجب يدعوني لأن أبرز كل ما كان سبب نجاحي الظاهر ، أو بالأحرى سبب فشلي المحقق ، على انك انت نفسك شاهد على صدق ما أقول ، الم تر اني ، وقد نيفت على الخمسين ، مازلت احتفظ تقريبا بذلك الوجه الذي كان لي عندما كانت النساء توقفني على الطريق ، وانا عائد من المدرسة – لتقبل وجنتي ؟ اما اليوم ، فقد ابيض شعري وان كان لونه الفضي يضاعف من حلاوة السمرة التي تكسو جلدي ، وعن قوامي ، فان وزني لم يزد كيلو جراما واحدا خلال السنوات العشرين الماضية وما زلت الى اليوم أرتدي الثياب والمعاطف التي اشتريتها من لندن أيام شبابي .

لقد تولد لدي منذ الطفولة ميل الى التطلع لسحري هذا ، والعناية به ومراقبته أثناء تأثيره ، ثم نشأت في رغبة – بدأت غريزية ثم ازدادت مع الزمن وعيا – الى استخدام هذا الحسن والاستفادة به ، وما زلت اذكر من طفولتي الأولى يوما من أيام الصيف حيث كنت في حجرة الملجأ التي تفوح منها رائحة الكلور ، وقد وقفت الراهبة المشرفة تصرخ وتدق على المنضدة بعصاتها ، واذا بالباب يفتح وبالراهبة تصيح : « قفوا يا اطفال احتراما للسيدة التي تغمركم باحسانها » . لقد ارتفع على الفور صوت المقاعد وهي تتزحزح من أماكنها ودخلت علينا سيدة عجوز غليظة الجسم وعلى رأسها غلالة من الدانتل تشبه تلك التي تظهر فيها الملكة فكتوريا في صورها ، حول هذه السيدة كانت مديرة الملجأ ومعها راهبة أخرى لا تكفان عن الحركة وازجاء عبارات التقدير والمديح لكل ما تقوله من كلمات لم نفهم منها شيئا .

التفتت الينا الراهبة المشرفة وخاطبتنا آمرة :

– مدوا أكفكم .. !

مد كل منا كفا قذرة ملوثة وذهبت السيدة المحسنة تسقط في كل منها ثلاث ملبسات صغيرة ، احداها بيضاء والثانية حمراء والثالثة زرقاء .

وعندما جاء دورى مسحت مدام بيلوير بيدها على شعرى وصاحت :

ـ آه ! هذا هو صفيرنا جرادير ..!

ومدام بيلوير هذه هى التى أشرفت أنت على دفن ابنها جيروم بيلوير منذ عام مضى .

عندئذ قالت الراهبة :

ـ انه ذكى بقدر ما هو لطيف ، هيا ، أسمع السيدة المحسنة كلمات صلاتك التى تقول فيها : « أؤمن بالله » .

اندفعت القى بعبارات الصلاة وأنا أسدد نظرى الى عينى السيدة العجوز ، ومنذ ذلك اليوم عرفت ما فى نظرى من سلطان فقد اعطتنى المحسنة ملبسة رابعة وهى تقول :

ـ لقد تجمعت السماء فى حدقتى هذا الصفير .

ثم تبادلت مع الراهبات بضع كلمات بصوت خافت وسمعت مديرة الملجأ تقول :

ـ طبعا .. مدرسة اللاهوت الصغيرة .. ان السيد الراعى يفكر فعلا فى ذلك ، انه هادىء الطبع جدا ، حلو الأخلاق ، ولكنه مازال صفير السن .. ثم ان الأمر يتكلف نفقة كبيرة .

ـ انى أقبل تحمل هذه النفقات .. ولكن يجدر أن ننتظر الى أن يتلقى سر المناولة الأولى .. بعد ذلك نرى هل لديه الاستعداد اللازم .. فلا أريد أن أجعل منه فاشلا ..

منذ ذلك اليوم لبست ثياب التقوى والورع ورحت اخدم القداس كل صباح ، وكانت تضرب بى الأمثال فى دروس الدين ، ولم يكن ذلك منى تمثيلا وتظاهرا ، لقد كنت سريع التأثر بالطقوس الدينية ، فكل ما فيها من أضواء ومن أناشيد ومن عطور كان يمثل السمو فى نظرى ويثير فى نفسى أحاسيس مجهولة كنت بلا وعى منى أشعر أنى جائع اليها ، آه يا سيدى الراعى ، كلما قارنت بين الرجل الذى أصبحته اليوم وبين الصبى الورع الذى كنته بالأمس ظهر لى مقدار التسامح الذى ما زال القوم عندكم يمارسونه فى مواجهة التقوى المؤثرة ، ولا يكفى أن أقول

لك أن هذا التسامح لا يدل على شيء ، فهو ، فى بعض الحالات وبالنسبة لبعض الأشخاص ، علامة السوء والشر .

وعلى الرغم من توتر العلاقات بين كنيسة فرنسا فى ذلك الوقت وبين الدولة ، فقد انتهى بأبى الأمر الى الموافقة على الحاقى بمدرسة اللاهوت الصغيرة ، ولكن تلك الموافقة لم تصدر عنه بسهولة ، ان الآباء يتمنون دائما لأبنائهم مراكز اعلى من مراكزهم ولذا عجزت عن فهم ما كان يساور أبى من شعور غريب نحوى هو شعور الغيرة المعطلة ، لقد كان يكره لى ما ينتظرنى من نجاح فى المستقبل ، ولذا أدخلنى - وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى - فى خدمة أحد الحدادين حيث كنت ، لضعفى ، أعجز عن رفع المطرقة الثقيلة فأستعين عليها ببطنى وتنهال على ظهرى الضربات.

قبل ذلك بسنوات ماتت أختى الكبرى ، ماتت بالسل والاجهاد وسوء المعاملة ، فقد ادخلها أبى - وهى بعد غضة صغيرة - فى خدمة بعض المزارعين ، فكانت خادمة الجميع : الناس والدواب معا .

استجاب أبى اذن لالحاح الراعى ولعروض السيدتين دوبوش .

قال لى فى لحظة أدار فيها الراعى ظهره الينا :

- خذ التعليم وسيبقى لدينا الوقت بعد ذلك لترك كل ما عداه .

أصبحت فى أول الأمر واحدا من أنبغ التلاميذ ومن أحبهم أيضا بلا شك ، ما الذى جعلنى ، أنا الولد الريفى الصغير ، صبى الحداد الذى طالما ناء تحت الضربات ، اشمئز من رائحة الوسخ التى كانت تعبق ذلك المكان ؟ .

أنت تعرف ياسيدى البيت الذى يسكنه اليوم العامل الخاص لأسرة بيلوير . هذا البيت لم يتغير منذ خمسين عاما ، لقد عشت بين جدرانه سنواتى الأولى قبل التحاقى بخدمة الحداد ، عشتها سنوات البؤس الشديد بلا أم ولا حنان ، ألم يكن فى ذلك ما يحملنى على استمراء الطعام الذى يقدمه الدير ؟ فمن أين

انتابتني أزمات القرف تلك التي لا يعرفها الا أبناء الأثرياء ؟ »

كثيرا ما تسللت كالقط الأليف الى داخل بيت آل بيلوير ، ولكني لم أتعد قط حدود المطبخ ، أما في بيت دوبوش فكنت أصل الى داخل الصالون حيث اعتادت الآنستان دوبوش أن تجلساني على ركبتيهما . إن بيت دوبوش - الذي يطلق عليه سكان ليوجا اسم القصر - كان في السنوات الأخيرة من القرن الماضي يقع ، كما تراه اليوم ، في مدخل القرية على بعد مائة متر من الطريق تحيط به أشجار الصنوبر وتمتد أمام درجاته مسارح الحقول المخضلة بالمياه يحدها على البعد ستار الأشجار في فرونتناك . في ذلك الوقت ، لم يكن يقطن هذا البيت غير سيدتين مسنتين هما الأختان دوبوش ، وقد سبقت لك معرفة بهما . وكانت احداهما ارمل بينما كانت الأخرى في حالة انفصال عن زوجها ، كانت لكبراهن ابنة ، هي اديلا ، في الثامنة عشرة من عمرها بينما لم أكن أنا قد جاوزت الثانية عشرة . أما الصغرى فكانت لها هي الأخرى ابنة ، تصغرني ببضع سنوات ، هي ماتلد التي أصبحت فيما بعد زوجة لسيمفوريون ديبا ، في فترات الاجازات كانت الفتاتان تتنازعانني ، فالكبرى تصر على تعليمي القراءة وعلى تصحيح واجباتي الدراسية ، بينما الصغرى تريدني ان أكون زميلا لها في اللعب واللهو . ما كان اعجبني من غلام في ذلك الوقت يا سيدي . . ! لقد اتجه ميلي في أول الأمر الى التي اختصتني بالدروس تبرعا والتي لم تكن تترك لي فرصة للراحة والاستجمام ، لقد كنت بلا شك حاد الذهن ، راغبا في الاطلاع ، سريع التحصيل ، مقبلا في نهم على العمل الفكري ، ولكن ما أن بلغت الخامسة عشرة حتى بدأت أرى في أديلا أسبابا أخرى تجذبني اليها ، لم يكن في وجهها ما ينفر لولا عيناها المنتفختان كعيني الضفدع ولولا فمها الغليظ المنفرج دائما عن أسنان لا تستقيم في نظام ولولا شعرها الكث الذي كانت تكدسه أكواما من الضفائر : لقد كان رأسها يرتكز على جذعها من غير أن تبدو فيما بينهما آثار الرقبة وكانت صدارتها تكاد تفشل في احتواء

نهديها ، أما ذراعاها وساقاها وقوامها فكل ذلك كان يبدو عظيم الحجم غير متناسق الأجزاء ، ومع ذلك لم ار فيها ما ينفرني منها في أول الأمر . لعلك لاحظت يا سيدى أن كثيرا من الشبان القرويين ذوى التكوين البديع يتزوجون فتيات لا أثر للجمـال فيهن ، انهم بذلك انما يستجيبون فقط للدوافع الحيـوانية ، تلك الدوافع التى كانت تسيطر على أنا أيضا أيام مراهقتى .. وحينما أصبحت أديلا دوبوش زوجتى فيما بعد لم يكن أحد ليصدق انى أحببتها فى فترة ما من فترات حياتى ، ومع ذلك فلست انكر انى وجدت لها يوما سحرا فى قلبى .. ولكنه لم يكن بالسحر الكافى لدوام ارتباطى بها .

ارجو منك أن تغفر لى ياسيدى اذا كنت استدرجتك بهذا الأسلوب الملتوى الى ما كان مصدر مصيرى كله ، أو بالأحرى الى اللحظة الأولى من حياتى التى بدأت فيها أرتكب الشرور والآثام وأنا مفتوح العينين متنبه الضمير واع لما أفعل . كانت اديلا دوبوش فتاة ورعة تقية ميالة للخير ، كان دأبها كسوة الفقير وتطبيب المريض ودفن الموتى ، وكان جل عنايتها منصرفا الى العجزة الذين كان نصيبهم من مجتمع ذلك الوقت الاهمال دائما والاهانة أحيانا . كانت تقضى أيامها تجوس خلال الريف بعربتها التى تقودها بنفسها متدثرة فى تلفيعتها الصوفية الحمراء التى تغطى جزء منها راسها .

لقد احبتنى الى حد العبادة وكنت دائما موضع عنايتها . ولطالما قامت نحوى بدور الأم الحنون . ففى خلال السنة الدراسية كانت تسافر قصدا الى بوردو لرؤيتى . وكانت طرود المأكولات والحلوى ترد الى تباعا من ليوجا . انى أعفيك ، يا سيدى الراعى ، من الاطلاع على الحيل الماكرة ، التى كانت تزداد خبثا عاما بعد عام ، والتى كنت اتبعها مع اديلا . هذه الانحرافات الفاسدة ، وأن كانت من الامور التى تثير التعجب فى مثل هذه السن المبكرة ، الا أنها ليست بلا شك من الظواهر النادرة ، ذلك أن لكثير من المراهقين مزاجا خاصا فى الاثارة والاقلاق . ولكن الغريب فى أمرى هو انى توصلت

بدون كثير جهد الى اقناعها ببراءتى الكاملة والى تبديد كل ما يمكن أن يساورها من شك وريبة نحوى .

لك ان تتصور ياسيدى مقدار ما يحدث من اضطراب وتمزق فى ضمير فتاة شديدة التقوى حينما تعتقد أنها مسئولة وحدها ليس فقط عما حدث لها ، وانما ايضا عما أثارته فى نفس الصبى الذى فى كفالتها ، صبى لا كسائر الصبيان ، ولكنه تلميذ فى مدرسة اللاهوت الصغيرة ، ومقدر له أن يصبح قسيسا فى يوم من الأيام .. ! آه ياسيدى الراعى ، كيف قدرت على تركيز كل تطلعى النهم فى تتبع آثار ذلك الحريق المروع الذى أوقدته أنا نفسى؟ لم اكن غافلا عن الجهود اليائسة التى كانت تبذلها اديلا ولا عن الاسباب الواهية التى كانت تتذرع بها لتغيب عن ليوجا حينما تعيدنى اليها اجازة رأس السنة أو عيد الفصح ، كانت تتعمد فى تلك الفترات الانزواء داخل أحد الأديرة للتعبد ، ولم تكن توسلاتى لتفشل أبدا فى ارجاعها قبل رحيلى . لم أكن أخدع بالآراء المتشككة التى كانت تدعيها لتبرر بها اقلاعها عن تناول الأسرار الدينية . ان أقبح ما فى جريمتى هو علمى بالمأساة التى كانت تعتمل فى ضميرها . لم يكن لى فى فترة من فترات حياتى وجه انقى واطهر من وجهى فى تلك السنوات . فقد كنت أرتفع كالزنبقة اليانعة وسط طلبة مدرسة اللاهوت ذوى الوجوه المصفرة الشاحبة وكان الجميع يشيرون الى ويقولون « ياله من ملاك قديس جرادين الصغير ... » ولو كنت املك ذرة من الأيمان لقلت لك أن جميع العبادات التى كنت أمارسها فى ذلك الوقت ، من اعتراف ومناولة لم تكن غير كبائر وكفر . ولكن الايمان كان قد فارقنى ، وبغير الايمان لا يستطيع المرء أن يرتكب الكبائر والكفر .. أليس كذلك يا سيدى الراعى ؟ .

كنت قد فقدت الاعذار جميعا ، فلم يبق لى عذر الحب ، بطبيعة الحال ، بل ولا عذر ذلك الشغف الأول الذى لم يلبث أن برد فى قلبى سريعا . ليس معنى هذا انى عاجز عن التعلق والحب ولكن الصغيرة ماتلد كانت تزيد اعجابى بها يوما بعد يوم كلما تقدمت بها

السنون فكنت أسر لاديلا بأقوال ظاهرها البراءة وباطنها المكر والخبث . الم يكف الفتاة البائسة ما أورثتها من هم وقلق فجئت اليها بالغيرة تشيع فى قلبها النار ؟ . كانت خجلى من غيرتها ضجرة بها . اظن أنها أرادت لنفسها الموت فى تلك الفترة . ومن يدرى ، لعل تلك كانت ارادتى أيضا والغرض الذى أسعى اليه كأنسب حل للموقف . ما كان يجدر بى أن أقول لك ذلك . ألم اكن أنا الأداة المتسببة فى ذلك الموت الذى أرادته وفتشت عنه ؟ . لقد أقنعت نفسى بضرورة حمل اديلا على الانتحار على الرغم من ايمانها وعلى الرغم من خوفها من الجحيم .. ولكنها كانت تصلى وتتعبد . تصلى دائما .. حتى وهى فى حالة الخطيئة كانت تصلى .. كم فى مسبحة النساء العجائز من أسرار .. ان من حسن حظ العالم انه يجهل هذه الأسرار ويستهين بما فيها من قوة وسلطان .

لما بلغت السابعة عشرة من عمرى حصلت على شهادة البكالوريا . كانت وزارة كومب توجه فى تلك الفترة ضرباتها القاتلة الى الكنيسة الفرنسية . وفجأة ساورتنى الشكوك الشديدة حول استعدادى للوظيفة الدينية التى كنت أعد لها . ولم يوجه لى راعى ليوجا ولا السيدتان دوبوش أدنى لوم على ذلك التحول ، بل انهم قرروا فيما بينهم التكلف بنفقات الدراسة التى كنت أتوق الى متابعتها فى الجامعة . فى خلال هذه الأجازة الأخيرة لم أغادر القصر أبدا وكنت أتناول فيه وجبات طعامى . كانت اديلا قد فقدت مظهر الشباب فتضخم جسمها وأصيبت بمرض الربو ولكنها لم تكن تغفل لحظة عن مراقبتنا ، ماتلد وأنا . وكنا نستطيع دائما الافلات من تلك المراقبة لأن المسكينة كانت دائمة التجول بين منازل القرية توزع هنا وهناك خدماتها . لقد بدأت تكشف الاعيبى ولكنى ، فى اعتقادها ، صنيعة يدها ونتاج توجيهها فلم تطرأ لها أبدا فكرة وجود حق لها فى لومى أو تأنيبى .

ذهبت الى بوردو حيث قيدت اسمى فى كلية الآداب . كنت أتلقى من جود من يحسنون على ما يكاد يكفى لسكنى وطعامى ، وهكذا ، رأيتنى — أنا الذى طالما حلمت بالحياة الحرة السعيدة — أعيش

عاطلا عن كل شيء في حجرة حقيرة بشارع لامبير بحي ميراديك .
لقد كان من الأمور الطبيعية في نظري أن أتلقى بعض العون المادي من اديلا ، ولكنها لم تكن لتحصل على مصروف خاص لها ، والقليل الذي كانت ترسله لي من وقت لآخر كان مسروقا من المساكين الذين في رعايتها .

يجب علينا ، ياسيدي الراعي ، أن نعدل فلا نهمل في سياق الحديث ذكر الظروف المخففة . قد لا يدرك الناس مدى آلام البرد والجوع التي يمكن أن يعانيها طالب في الثامنة عشرة من عمره لا تقف من خلفه أسرة ترعاه ، صادفت من بين سكان البيت الذي أقطنه امرأة عاهرة أشفقت علي . كان اسمها آلين . كنا نتبادل الحديث على درجات السلم ، ثم أصبت بالحمى فعنيت بي . هكذا بدأت علاقتنا . كانت ترصد كل ماتنفقه من أجلي ولكني لم احصل قط على مايكفي من النقود لسداد ديونها . كانت آلين صغيرة السن جدا محتفظة بنضرتها . لقد تعلق بها أحد أصحاب البارات فأسكنها في بيت من تلك البيوت الصغيرة التي لا تعلوها طبقات والتي يسمونها في بوردو « الدكاكين » . لم يكن لهذا البيب بواب يحرسه وبذلك انتفى كل خوف من الفضوليين . كان هذا البيت واقعا في حي الميناء في مواجهة مستودعات أحد تجار الأخشاب .

هناك كنت أقضي جزءا من اليوم والباقي أقضيه في مكتبة المدينة حيث كل شيء يحلو لي . ما أكثر ما قرأت في تلك الفترة ! . وفي المساء كنت أذهب الى أحد المقاهي أمام المسرح الكبير . كان هذا المكان في نظري أفخر مكان في العالم ، ففيه فرقة موسيقية تعزف ألحانا من مختارات فرتر ومن برسوز جوسلان . كنت أحس ، بعد الأسابيع الأولى التي قضيتها في الألم والحرمان ، بحاجة الى الدفء والطعام والخمر . لقد تعلمت فيما بعد ، لا أقول الشعور بالخجل حينما تتولى امرأة تدبير جميع نفقاتي ، وانما فهم امكان الاحساس بهذا الشعور . استمر الحال على هذا المنوال حتى الربيع . وفي أحد الأيام تنبه العاشق صاحب البار ، على أثر خطاب غفل من الامضاء وصل اليه ، ففاجأنا . غفر لآلين وألقى بي الى

الخارج بعد أن أنزل بى عقابا ظللت أحمل آثاره زمنا طويلا .

أريد أن أمر سريعا ، يا سيدى الراعى ، فلا أطيل ولكن الواجب يقضي على بأن أروى كل شيء من غير افاضة وباسلوب مختصر خوفا من أن يحملك الملل على القاء هذه الأوراق بعيدا عنك . أعادتني اجازة الفصح الى ليوجا . كانت ماتلد ، وقد أصبحت يتيمة ، قد ذهبت الى برايتون تتم دراستها فى أحدى مدارسها الثانوية . فقضيت أيامي منفردا مع اديلا . يكفيك أن تفهم يا سيدى ماذا كانت جريمتى أن السطو على عفاف فتاة شيء ومحاولة افسادها شيء آخر . بعد سفرى أخذت اديلا ، التى كانت من قبل عنوان الصراحة والصدق ، تختلق الأكاذيب وتدعى المعاذير لتحضر الى بوردو وتجيء الى بالنقود وكنت أسوق دلالى عليها وأطالبها بالمزيد . رفضت ، على الرغم من الحاحى عليها ، ان تطالب بنصيبها فى تركة أبيها ؛ فقد أصبحت فى ذلك الوقت تعرف من أنا ، وما كان لغيرها أن يعرفنى على حقيقتى ، فأخذت تتهرب فى مكر وحيلة ، ماكان أبأسها !. تلك الفتاة الفليظة . لقد كانت تهرب من مقابلة كل انسان فى ليوجا ، الأمر الذى أهم مدام دوبوش كثيرا ودفعها الى تلاوة الأورادو الصلوات « لتستعيد اديلا ايمانها بالله » . ولكن اديلا عاندتنى فى هذا الأمر بالذات فلم أستطع حملها على المطالبة بمالها الذى كان فى حوزة أمها . لقد اضطررت فى بعض الأحيان الى أن أخفف من ضغطى عليها فى هذا الشأن لما بدا من امكان افلاتها من قبضة يدى لهذا السبب . .

لم يكن كل ما أنزلته بها من رذائل كافيا فى الحقيقة لطرد الأمل من قلبها . أليس صحيحا ، يا سيدى الراعى ، أن العبد يظل قريبا من الله طالما اليأس لا يتسرب الى فؤاده وأن ما يبعده عن الله من جرائم وخطايا لايبقى الى أبعد من كلمة تقال أو آهة ترسل ؟. هذه حقيقة كنت أعرفها وكنت اعرف أيضا انها تنتظر دعوتى الى اداء الخدمة العسكرية وتعلل النفس بهذا الفراق الواجب الذى لا حيلة لها فيه . كانت تقول لى :

— يجب على عندئذ أن أتركك وأن أبتعد عنك . وسأذهب

لأختفى ، لا أقول داخل أحد الأديرة ، ولكن داخل احدى حظائر الخنازير فى أحد الأديرة ، أو فى ملجأ النادمات من النساء .

فأجيبها :

ـ لا .. مهما بعدت المسافة بينك وبين المعسكر الذى اقضى فيه مدة خدمتى ، ستأتين للحاق بى و ....

لن أنقل اليك هنا ، يا سيدى ، الكلمات التى كانت تخرج من فمى وكأنها ليست منى .

كنت أعرف سلفا انى لن أؤدى الخدمة العسكرية . فقد كانت نفسى تحدثنى بذلك وحدسى لا يخيب . ذلك انى ، وأنا فى العشرين ، اصبت بالتهاب رئوى غير خطير ظلت آثاره تلازمنى زمنا طويلا . وقد أعفيت فعلا من الخدمة لهذا السبب . فى هذه الفترة فقدت أبى . لقد كنت ، فى كل سنة ، عند اقتراب فترة الأجازات الجامعية ، أعلن لذوى الفضل على ، فى زهو وخيلاء ، نتائج باهرة لامتحانات وهمية لم أدخلها فى الواقع . ولما لم يكن من بين شبان ليوجا واحد يدرس فى الكلية فقد تمكنت من تمثيل هذه المهزلة حتى النهاية من غير أن يفتضح الأمر .

فى هذه الفترة أيضا اعتقدت أن سلطانى على أديلا بلغ حدا يسمح لى بأن اتظاهر بهجرانها طالما هى ترفض المطالبة بميراثها ، لقد دبت القطيعة نهائيا بينها وبين أقاربها وذهبت لتعيش بمفردها فى بلباو ، ولم أكن أدرى أنا نفسى انها حامل . لقد دبرت المسكينة هذه القطيعة من ذويها لتضع مولودها فى الخارج . وكان من اليسير على أن أستغنى عن مساعداتها المالية لى منذ أن وصلنى خطاب من آلين تخبرنى فيه أن عشيقها صاحب البار قد مات وانها أصبحت حرة طليقة . هل حصلت منه مناولة ، قبل موته ، على جزء من ثروته ؟ أم هل ساعدت هى على التعجيل بوفاته ؟ . لقد أخطأت اذا تحرجت عن الخوض فى هذه المسائل واستجلاء سرها فى وقت لم تكن فيه قد ساورتها الريبة فى أمرى بل كانت فيه طوع بنانى لا تخفى عنى شيئا . وحينما أيقنت فيما بعد ما يمكن أن أصيب من فائدة من

علمى بخفايا أمرها امتنعت على ولم أستطع أن أستخلص منها خبراً .
عدت الى آلين فوجدتها فى عيش رغد ، تقيم فى مسكن نظيف وتقوم على خدمتها خادم خاصة وقد اخذت تمثل دور السيدة الفاضلة .

اكرتنى فى الطابق الثالث من مسكنها . غرفة لم أكن أقيم فيها الا نادرا . ولم أكن أدفع لها عن هذه الغرفة أجرا . لقد أصبحت آلين امرأة ثرية ذات مصالح . فقد كانت تملك حصصا فى «بيوت» عديدة . اطمئن يا سيدى ، فهنا أيضا سأمر مسرعا وأعفيك من التفصيل . يكفيك أن تعلم أنها أشركتنى فى نشاطها وفى أرباحها . ما من فترة فى حياتى تستحق منك أن تمر عليها مر الكرام مثل هذه الفترة . فلا تلتفت برأسك اليها ، يا سيدى الراعى ، اذا كنت لا تريد أن تتحول الى تمثال من الملح . كانت لآلين مهارة وبراعة فى استغلال فضائح الناس والاستفادة من التشهير بهم . انها بلا شك لعبة خطيرة ولكننا كنا نعتمد على أعوان لنا وشركاء بين رجال الشرطة . بل ان هؤلاء الأعوان والشركاء هم الذين ألجأونا فى سنة ١٩١٤ الى الاقلاع عن هذا العمل لأنهم جشعوا وتمادوا فى طلباتهم فبارت التجارة علينا وعليهم .

فى خلال هذه الفترة ، وعلى وجه التحديد فى يناير سنة ١٩١٣ ، أخبرتنى اديلا بمولد ابننا اندريس وفاتحتنى فى موضوع الزواج . لقد كانت المخلوق الوحيد الذى عرفنى على حقيقتى ، وربما كانت هذه المعرفة هى التى أوحت اليها بالعطف على ، ذلك العطف الذى كنت منه أرتعد . قالت لى انها تتكفل بالحصول على موافقة أمها على زواجنا . كانت الأم فى ذلك الوقت قد نال منها الضعف كثيراً ، ولقد ماتت بعد ذلك بزمن قليل .

ما كنت أقبل الارتباط بهذا الزواج ، على ما فيه من منفعة ، ما دامت العيشة الراضية ميسرة لى الى جانب آلين . ذلك أن الحياة مع اديلا كانت تبدو لى كارثة رهيبة . لم يكن سبب هذا الشعور انى لا أحس نحوها بانعطاف شديد .. كلا .. وانما كان سببه أنى كنت أشعر وأنا الى جوارها بخزى شديد ، أنا الذى لم

أعرف الخزى أبداً . لقد كنت أرى فيها ما رأيته فيها من قبل ، الفتاة السمينة الطافحة بالصحة والهناء التى عرفتها فى ليوجا تكرس وقتها لخدمة الله ومصاحبة الفقراء ، وقد أوردتها أنا موارد الخسة والنذالة . نعم أوردتها تلك الموارد من غير أن أقتل فيها الأمل . فلم يتطرق اليأس الى قلبها أبدا .

تم الزواج فيما بعد أثناء مدة الحرب . وقد ألجأتنى اليه ضرورة السعى الى الخروج من مأزق ما كان ليخرجنى منه غيره . ذلك أن مجلس اعادة فحص المطلوبين للتجنيد قرر استمرار اعفائى من الخدمة فذهبت الى باريس بصحبة آلين فى أوائل سنة ١٩١٥ . وهناك كسبنا نحن الاثنين فى أول الأمر مبالغ طائلة عن طريق عمليات لست أجرؤ أن أحدثك عنها . لم تكن تجارة المخدرات ، فى وقت من الأوقات ، أربح منها فى تلك السنوات ، وكانت الكميات الهائلة من الكوكايين ترد الينا من ألمانيا عن طريق هولندا . أما الأمر الذى يهمك أن تعرفه لتفهم ماسوف يلى ذلك من تطورات فهو وقوع بعض الحوادث الخطيرة التى ربما كان من شأنها أن تهوى بى الى حضيض بعيد والتى أسلمتنى قسرا وبلا مقاومة الى آلين . نعم ، منذ سنة ١٩١٥ تسلطت هذه المرأة على ارادتى . لم تعد تلك الفتاة الوالهة التى عنيت بى يوما ابان مرضى فى احدى غرف شارع لامبير بحى ميرياديك ، بل ولم تعد تلك القوادة الواعية التى اشركتنى من قبل فى نشاطها . لقد كانت الخمور دائما من كبرى رذائلها ، وبمرور الأيام زاد استسلامها لسلطانها . وقد انتهى بها الأمر الى اهمال العناية بما يقيم حياتها تماما وأصبح اعتمادها فى ذلك كله على أنا . واذا أقسمت لك ، يا سيدى ، انها كانت تملك من الوسائل ما يخضعنى صاغرا لمشيئتها ويجعلنى طوع بنانها ، اذن لصدقتنى ولسلمت بصحة قولى ، أليس كذلك ؟. فلن تطلب منى اذن تفصيلا ..

وجدت فى حياتى — وما زالت توجد — امرأة كانت تحيا مستلقية فى فراشها ، والى جوارها زجاجة وكأس ، تقطع الوقت فى قراءة القصص البوليسية . كانت قد أقلعت عن الاغتسال

تماما وأهملت العناية بمسكنها . لن أصف لك منظر فراشها القذر ولا منظر ملابسها الممزقة وقد كستها البقع . الكئوس الملوثة فى كل مكان ، والزجاجات الفارغة تزحم الأركان ، ثم .. هى .. كان فرضا على أن أحضر اليها فى يوم معلوم . وما أكثر ما امتهنت فى ذلك وخدعت يا سيدى الراعى ! . ولكن هاتفا داخليا كان يهتف فى قرارة نفسى يبشرنى بأن النجاح حليفى دائما فى هذا العالم . لا تظن بى الجنون ، أفليس صحيحا أن النجاح حالفنى دائما ؟ . ألم أحى دائما حياة كلها ميزات لم يفز بها غيرى ؟. ففى الوقت الذى كان فيه آلاف الشبان أمثالى يعيشون فى العذاب ويموتون وسط الوحل فى ميادين القتال ؛ كنت أنا فى مأمن بعيدا عن الخطر .. كنت أنا أكسب المال الوفير . ولقد سمعت هاتفى يقول لى : « ليس الخطأ خطأك أنت اذا كنت قد تورطت بين هاتين المرأتين ، تزوج من أكثرهما غنى وبمالها تستطيع أن تشترى سكوت أكثرهما فقرا وأقدرهما على التحكم فيك وايذائك .. » . هذا ما قاله لى هاتفى وأنا أعلم أننا نحن الذين نخاطب أنفسنا بمثل هذا الكلام دائما ..

* * *

برسالة قصيرة أخطرت أديلا أننى صممت على الزواج منها . تركت باريس قرب حلول عيد الفصح . ما زلت أذكر وصولى الى ليوجا فى احدى الأمسيات . لم تكن فى انتظارى . قالت لى الطاهية ان أديلا ذهبت تقضى ليلتها الى جانب عجوز يصارع الموت فى المستشفى الصغير الذى أقامته عائلتها فى مبنى المدرسة القديمة .

فى صبيحة اليوم التالى دخلت الى غرفتى بعد أن دقت الباب . لقد زال قدر كبير من سمنتها السابقة وبدت لى فى لباس الممرضات أقل دمامة مما كانت . ولكن هذه المرأة التى أشرفت على الأربعين كان لها من مظهر الكهولة ما أدخل الاضطراب الى قلبى . لقد أخذت لأول وهلة باحساس بغيض لفكرة حدوث زواج بيننا ، فعلى الرغم من بلوغى الثانية والثلاثين لم أكن أبدو فى أكثر من العشرين . ظلت أديلا تنظر الى لا تلفظ كلمة . كنت مستلقيا فى الفراش أنظر الى

صورتى فى المرآة فأرى نفسى على ماتراني عليه تلك المرأة العجوز التى فرض على أن أتزوجها . كانت تقف أبعد ما تكون منى ولم تحاول حتى معانقتى .. قالت : انها تركت اندريس الصغير لدى احدى الحاضنات فى بلباو ، وانه طفل رائع الجمال .. ما الذى يعنينى من أمر هذا الطفل ؟ . أذكر أن النافذة كانت مفتوحة على مصراعيها وأن شمس فترة عيد الفصح كانت تغمر سريرى ، وفى أشجار البلوط المتجردة من أوراقها طيور تتناجى . هذا الشباب الذى يملأ الكون خارج غرفتى ، وهذا الهناء الشامل على الرغم من المجازر المنظمة التى تسود العالم !. دنيا من الحب حولى وأنا أتفحص تلك المرأة .. نصيبى فى الحياة .. نظرت الى خصلة الشعر الرمادية البارزة من تحت قلنسوتها والى عينيها الخفيضتين فرأيت فيهما تعبير الانكسار الواضح مع اصرار على عدم النظر الى . لم أستطع صبرا .. فقلت متلعثما :

ـ لقد وصلت الى غايتك .. تظنين انك اشتريتنى .. واننى أصبحت ملكا لك .. سترين ! . سترين ! .

رفعت الى عينيها . لقد كانت لى دائما القدرة على معرفة مايدور فى قرارات النفوس . لم يكن فى نظراتها شىء يدل على الاشتهاء أو على ثورة الغضب المكبوت . قمت من فراشى فلم تحرك ناظريها .. تقدمت نحوها وهى مستندة الى الباب وشفتاها ترتعشان . اكتسى وجهها شحوبا فرايتنى اسألها هل انا أخيفها .

أحنت رأسها وقالت :

ـ اذن .. لماذا تتزوجنى ؟ .

ـ يجب أن أتزوجك ، من أجل أندريس ..

ـ ولكنك لم تعد تحبنى ؟ .

قالت ذلك ويداها ترسمان حركة مبهمة .. فسألتها :

ـ هل تكرهيننى ؟ .

فردت فى نبرة احتجاج :

ـ كلا .. ولكنى أكره ما فى نفسك .

ـ ما فى نفسى من شر ؟ . ان ما فى نفسى من شر هو من عملك أنت وأنت تعلمين ذلك جيداً .

لقد أصبت الهدف أخيراً بهذه الكلمات . فتنهدت وعدت أنا أقول :

ـ لقد كنت صبياً صغيراً .. تذكرى .. صبياً ناصع الطهر يا اديلا .. تلميذاً فى مدرسة اللاهوت أعد للمهام الدينية .

امتلأت عيناها بالدموع .. وارتسمت على وجهها البائس علامات الرعب .. ثم فجأة وجدتها تسقط على الارض وأنا واقف أمامها فى ثياب النوم .. انظر اليها . اخفت رأسها بذراعيها وأخذ جسمها الضخم ينتفض تحت تأثير الشهقات . ان أبعد الاحساسات عنى هو الاحساس بالشفقة حتى نحو تلك المخلوقة التى يربط مابينى وبينها أكثر من رباط . ولكنى شعرت فى تلك اللحظة بالشفقة عليها ، شفقة لست أدرى ، يا سيدى الراعى ، كيف أصفها لك .. انها شفقة علوية لا تمت الى طبيعتى بسبب . ولست أطلق هذا الوصف عبثاً فقد وجدتنى بغير ارادتى أقول محتجاً :

ـ لا .. أيتها البائسة ، لا .. لا تصدقى ما قلت .. ماذا ؟ .. بماذا تتمتمين ؟ .

انحنيت عليها وبيدى أزحت الخصلة الرمادية الملتصقة بجبينها وحاولت أن أفهم الكلمات التى كانت ترددها مختلطة بشهقاتها . فى النهاية استطعت أن أميز هذه الكلمات : « حجر طاحون فى رقبتى »

انها تردد كلمات المسيح التى يهدد بها الذين يفسدون صغار المؤمنين به حين قال : « خير لهم أن تعلق أحجار الطواحين فى رقابهم .. » . شعرت بدافع لم استطع مقاومته يلقى بى راكعاً بالقرب منها واذا بى أحيطها بذراعى وأقول لها :

ـ لا يا فتاتى المسكينة ، هذا التهديد ليس لك . لم أكن واحداً من هؤلاء الصغار الذين تنظر الملائكة من خلالهم الى الله وجهاً لوجه . لا لم أكن أبداً واحداً من هؤلاء الصغار . كلما نظرت فى ماضى البعيد وجدت الشر يملؤنى وكنت أتلذذ باثارة الفوضى والاضطراب فى

نفسك .. ان سن المرء لا تعنى شيئا . ان الشيء الذى منحته ، منذ قدومى الى هذا العالم ، لم يكن البراءة والطهر كما هو الحال بالنسبة للناس جميعا ، ولكنه قناع البراءة والطهر . ومن خلال نظرة الطفولة كنت أتتبع فى وعى تأثير الوسوسة التى أحدثها فى جسدك وفى فؤادك . كنت أضطرب لشعورى بالخطر الذى أهدد به روحك البريئة وأحس بأنى طعم يغريك . كان فمى ممتلئا بطعم السم المنفوث من ذاتى بينما أنت تقتربين من هذا الجسد الرائع تدورين وتلفين حول هذه البراءة الكاذبة . لم أكن غافلا عن شيء من محاولاتك المتعثرة وتقهقراتك الخائفة وعوداتك الى لاهثة ، ما كان أقسانى من صبى جامد القلب حينما كنت أعبث بك ، أنت الفتاة المسكينة !. لاتقلقى اذن . لقد كنت أنا الشيطان المفترى الخبيث ، أنا الأقوى ، أنا الأقدر ! . لقد كنت عجوزا وأنا بعد فى السادسة عشرة . وعلى الرغم من السنوات السبع التى تكبريننى بها كان لك قلب طفل غرير الى جوارى .

انتصبت قليلا وظلت مستندة الى الحائط . ما زلت أذكر وجهها المنتفخ وخصلات شعرها البارزة من قلنسوتها . وما زلت أسمع غناء ذلك الطائر المتسلق يعوى فى الخارج وزقزقة القنابر تتجاوب وأصوات الحبارى العابرة وهى تتساقط وسط اللبلاب . انه صباح أحد أيام الأسبوع المقدس . لحظة فى حياتى لم أرتكب فيها اثما ولكن ملأتها بعمل صالح ، يا سيدى الراعى ، اذ مددت يدى الى هذه النفس البائسة أسندها وهى على حافة اليأس ... لا شك أن ذلك حدث منى بغير ارادتى ، رغما عنى ، نعم رغما عنى ، ورغما عن شخص آخر ايضا . لم أفتأ أردد قولى لها :

ـ يجب أن تفرى ، يجب أن تهربى . انتهزى هذه اللحظة .. انطلقى بعيدا عنى ...

ظلت تهز رأسها وهى تنظر الى فى حنان عميق وجسمها يرتعد من وقت لآخر . لم تعد تبكى وهى تردد كلمة : « مستحيل ... » وهنا استعاد صوتى نبرته المعتادة وقلت لها :

ـ الم تشفى منى بعد ؟.

انتفضت لهذا السؤال عن خية لدغتها ... اقول :

ـ لو كنت قد شعيت لتسارعت بالفرار ولابتعدت عنى .. هل تعرفين ما أخبئه لك ؟ .

قالت انها تعرف . فاندفعت أقول :

ـ أنت تظنين ان لك بى علما ومعرفة . ولكنك تجهلين ما أنا قادر على فعله بك ..

وكنت بذلك كأنى اريد الا تقبل اديلا على الزواج بى الا وهى على علم تام بما ينتظرها منى . وكان جوابها :

ـ وكيف اجهل ذلك.

القت هذه الكلمات بصوت مخنوق أحسست أن ملئه الاشمئزاز فثرت غاضبا وصرخت فيها :

ـ لن تشعرى بكثير من الفخر عندما يتم ذلك .

قالت بصوت خافت وهى مستندة برأسها الى الحائط تحدقنى بنظـــرها :

ـ أود لو تم كل شىء على عجــل . أن اقسى ما فى الامــر هو الاخبار ..

واذ قاطعتها فى قحة عادت تقول :

ـ انى لا أعنى اخبار امى . لا . فقد أعددتها للأمر من زمن بعيد فالخبر لن يدهشها . وانما كنت أفكر فى ماتلد .

ماالذى حدا بها الى ذكر ماتلد الآن ؟ لقد تحاشينا دائما كلانا ذكر هذا الأسم . قلت لها أن ماتلد تقيم فى ذلك الوقت فى انجلترا وأن ليس فى أمر ماتلد مايعنينا ، واننا انما سنضعها أمام الأمر الواقع . ولكن اديلا قالت بصوت خافت :

ـ انها عائدة غدا .

كانت نظراتها مسددة فى الفضاء ودمعتان تسيلان على خديها قالت :

ـ سوف يجب علينا أن نقول لها ...

ـ وهل فى ذلك شىء يعنيها ؟ . انها ليست سوى ابنة خالتك

لقد عشتما معا فى بيت واحد .. هذا مفهوم .. ولكنك تعلمين انى سوف أرحل بك الى باريس .

عضضت على شفتى ندما وأسفت لتسرعى ولأنى لم أنتظر الى ما بعد اتمام زواجنا حتى أعلن لاديلا رغبتى فى مغادرة ليوجا ، ولكنى تحققت سريعا ان هذا النبأ غير ذى بال بالنسبة لها وانها انماتقدم على الزواج كما لو كانت تلقى بنفسها فى لجة البحر .. فقد سمعتها تتمتم :

ـ باريس او غيرها ..

ـ نعم .. أنت على حق .. فى باريس أو فى غيرها ستكونين معى ، زوجتى ، زوجة الرجل الذى أنا هو .. الجسد الملتصق الى جسدى .

واذ سمعتها تقول فى صوت خافت : « أنا زوجتك بالفعل من قبل » .. عدت أؤكد

ـ زوجتى المستسلمة تمام الاستسلام الى ، يا أديلا ، ملكى أنا ، بمفردك ولا أحد بينك وبينى

شعرت فى هذه اللحظة انى لم اقنعها ولم أملك زمامها تماما ، فقد قاومت نظرتى وردت محتجة فى حزم :

ـ لا .. لن أكون بمفردى .. فأنا لست بمفردى معك الآن ، ولو كنت بمفردى لكنت فررت منك منذ زمن بعيد ، لكنت ذهبت الى الجانب الآخر من العالم او بالأحرى الى العالم الآخر .

لم أجد شيئا أرد به عليها .. وبعد فترة من الصمت عادت تقول :

ـ سأحدث أمى فى ذلك .. اما عن ماتلد ، فالامر يجاوز قدرتى وعليك أن تخبرها أنت بالنبأ .. وليكن ذلك فى أقرب وقت ممكن .. باكر فورا . يجب أن يتم كل شىء على عجل .. لماذا لا نعقد ذلك فى باريس ما دام فى باريس موطنك القانونى ؟ .

قلت محتجا :

ـ كلا .. انى أريده زواجا رسميا هنا . أريد أن تخترقى ليوجا فى ثوبك الأبيض .. أريد أن يشهد الجميع هنا انتصارى .. يا له من انتصار مشهود ! .. أليس كذلك ؟ . هنا بعض الناس يخمنون أشياء مما حدث . يجب أن تتوقعى منهم الاهانات يا عزيزتى .. مهما يكن من الأمر فانى مصمم على جعلها حفلة زفاف رائعة فى كنيسة ليوجا .

ـ سيكون لك ، بل لنا ، ما نريد .

لم تخفض نظرها عنى طوال هذا الوقت وهى تتنفس بسرعة .

امتنعت عن رؤية أحد طوال هذا اليوم . لم أجرؤ على التجول فى أنحاء القرية المليئة بالأرامل والأيامى اللواتى فقدن رجالهن . ما من بيت الا وفيه مأتم وحداد . وما من أسرة الا والخوف مخيم عليها . لم يكن الناس فى تلك الفترة يطيقون رؤية أحد المدنيين الشبان الأقوياء . لم يكن فى الواقع اعفائى من الخدمة شيئا غير قانونى . فحالة احدى رئتيى ، كما أظهرها الفحص وكشف الأشعة ، تثير القلق والشك ، وان كان الغريب فى الأمر انى لم أكن أشعر بأى ضيق من ذلك ولم أكن أشكو منه تعبا ، بل كنت اتمتع بصحة من حديد . لك أن تفسر ذلك كما تهوى يا سيدى الراعى . لقد عشت دائما فى حماية عجيبة ، مرعيا ، هذا ما يجب الاعتراف به .. هذا المصير ، كم أرهبنى وأخافنى كلما ازداد وضوحا وظهورا .

قضيت ذلك اليوم أجول فى أرجاء الحديقة ، بينما عادت اديلا الى مستشفاها . أما أمها فلم تكن تنزل لتناول الطعام منذ سنوات . كانت نوافذ غرفة المريضة ، فى الواجهة الرئيسية للقصر ، هى وحدها المفتوحة . أما النوافذ الأخرى جميعها فمغلقة . فى الناحية الغربية رأيت احدى الخادمات تنظف نوافذ غرفة ماتلد التى تتصل بغرفة اديلا ..

فى منتصف النهار وصلنى خطاب من آلين كله الحاح وتهديد ولكنى كنت مطمئنا فلم يكن من مصلحتها احباط زواجى ولم أكن أخشى منها شيئا ما دامت الثروة لم تسقط فى يدى بعد . فهى

الن تبدأ هجومها القاتل الا بعد حصولي على أموال أديلا . وكان ذلك يرهبني ويخيفني سلفا . ان القوم الذين على شاكلتك ، يا سيدى الراعى ، يتساءلون كيف يصل الأمر بالناس الذين على شاكلتي الى فكرة القضاء على الأشخاص الذين يضايقونهم . على أنى أصبحت منذ تلك اللحظة أجعل همي الأول البحث عن الوسيلة التي أتخلص بها من آلين . ان لى مخيلة خصبة يا سيدى ، ولقد أمضيت حياتي كلها أقضى عليها في خيالى . كم من قصة بوليسية في امكاني اليوم أن أكتبها من كل ما اخترعه ذهنى لذلك !. ان الجريمة السهلة لم توجد بعد ، ثم ان آلين وقد تمرست منذ زمن بعيد على الاعيب التشهير الخطيرة كانت حريصة الحرص كله متيقظة للخطر . وكثيرا ما حدثتني عما يساورنى من ناحيتها كما لو كانت تتحدث عن شيء مفروغ منه ، فكانت تشرح لى الأسباب التي ستحول بيني وبين قتلها ، التي ستغل ذراعى عن الامتداد اليها قبل انقضاء ثمان واربعين ساعة على فعلتي سوف تحوم حولى الشبهات ، ويلقى القبض على ، ان كل شيء سيشير الى بأصبع الاتهام . وكثيرا ما قالت لى انها أودعت بين أيد أمينة أوراقا من شأنها أن توجه أنظار العدالة الى فورا . ولقد توصلت هذه اللئيمة ، في نهاية الأمر ، الى اقناعى بأن لى مصلحة في بقائها على قيد الحياة وانى حتى اذا كانت البراءة من نصيبى ، سأبقى طوال حياتي مهددا اذا ما أصابها مكروه .

انقضى على اليوم وأنا أجول وسط تلك الأحراش المتوحشة الجرداء التي تجهل من أنا وان كانت تعرفنى منذ طفولتي . ان رجلا مثلى هو وحده الذى يستطيع أن يتعمق في حب هذا الكون العجيب الذى لا عين له ترانا ولا ضمير له يحكم علينا . هذا العالم الملىء بالأحياء والكواكب والذى لايميز بين القديسين والشياطين ولا بين من نجا ومن قضى عليه بالضياع . أذكر أنى ، في ذلك اليوم ، حوالى الساعة الثالثة ، جلست في الشمس على احدى الصنبورات التي قطعت واحدث جسمها الضخم في سقوطه تلفا كبيرا في أشجار البلوط . جلست وسط رائحة اللحاء الممزق

استدفىء فى براءة الثعلب الماكر او الضبع المفترس . ان الطبيعة لاتحاسبنى على شىء ارتكبته . ان كل مايعيش ملتصقا بهـا وكل ما يختلط بحياتها وكيانها يتناحر ويفترس بعضه بعضا . لست الا واحدا من آلاف المفترسين الذين يدفئون فى تلك اللحظة ، فى حرارة الشمس .. هذا ريشه وذاك وبره والآخر ورقه .

لم يكن بى ألم فى تلك اللحظة . فقد توقفت آلامى بمعجزة . يجب أن تعلم ، يا سدى الراعى ، انه عذاب أليم لا ينقطع ذلك العذاب الناشىء عن الشعور الدائم المتجدد فى كل ثانية بأنك مقيد الى الأبد . على أنى لم أكن بعد قد سمعت فى ذلك الوقت تلك الكلمة التى قالها لى فى يوم من الأيام واحد من رجالكم ، قسيس عجوز له وجه قديس كنت التقى به أحيانا فى حوارى سوبربانيير فى السنة التى قضيتها فى العلاج فى لوشون . نعم .. كنا نتحدث عن « مالك هذا الكون » كما يسميه .. فقال لى بتأكيد أذهلنى : « توجد نفوس موهوبة له » . كان كمن يعلم ذلك من مصدر أكيد فلم اجرؤ على مناقشته فيما يقول ، وأسرعت احدثه من شىء آخر . منذ ذلك اليوم فتشت طويلا عن هذا الشيخ لأحمله على شرح ما قال . وقد عثرت على اثر له أخيرا .. لقد مات فى حالة تقديس ، كما تقولون ، فى بلدة فانف حاملا معه سره المخيف : « توجد نفوس موهوبة له » .

***

حضرت ماتلد فى اليـوم التالى بعد الفداء ، فى وقت لم أكن فيه فى البيت لأستقبلها . لقد سمعتها اليوم بطوله وهى تنادى اديلا ثم تضحك وتغنى فى حجرتها حيث راحت تفرغ حقائبها . كانت الأبواب تطرقع حينما تمر من خلالها . لقد كان كل شىء ينتعش بالحياة هكذا تحت تأثيرها وهى بعد طفلة صغيرة ، ولـم تغير من طبيعتها هذه شيئا .. جلست أقرأ الصحف فى ضـوء الشمس واذا بيد سريعة ترفع قبعتى ، وضـحكة عالية ترتفع خلفى عرفتها على الفور . ولكنى لم أعرف غير الضحكة فقط .. تلك الفتاة الرفيعـة الطويلة ذات القـوام السمهرى ليس فيهـا

ما يذكرني بالطفلة النحيفة الهزيلة التى طالما شاركتنى العابى ولهوى ، كذلك لم تكن تشبه ماتلد ديبا التى تحولت اليها فيما بعد ، مدام سيمفوريون ديبا التى لم يبق لك اليوم شرف توجيهها فى شئونها الدينية . ليس من سحر يضاهى سحر ماتلد فى تلك الفترة ، يا سيدى الراعى ، فلم يكن لها ذلك الجلال الذى تراه لها اليوم . لقد كانت لا تهدأ عن الحركة كأنها عصفور دخل فجأة احدى الحجرات وراح يرتطم بكل شىء . لقد كانت هيفاء نحيفة القوام وكأنها ما وقفت فى وسط الطريق الا لتنطلق طائرة بعد لحظة . كانت تهز قبعتها وهى تنظر الى فى حركات متقطعة من رأسها الصغير ذى الشعر المضموم . فى استطاعتى اليوم أن أصف لك يا سيدى كيف كان ثوبها ، وذراعاها العاريتان على الرغم من برودة الجو وحبات الكهرمان الغليظة حول عنقها الأسمر الدقيق . لقد تغير شخصى فى لحظة ولم أعد أدرى من أنا . فقد ارتفع من قرارة نفسى شعور غريب بالشفقة انتشر حولى وغطى حياتى الاجرامية كلها .

أنت قد عدت شابا يقف امام شابة . لا ، ان حياتى السابقة كلها التى عشتها فى الوهم ليست سوى حلم لا حقيقة له . ها هو قد عاد ذلك الوقت الذى كنا نختفى فيه داخل الأحراش واديلا تفتش عنا فى كل مكان وتنادى اسمينا بينما أنا أضمها بين ذراعى من غير أن أضغط عليها وهى تعقد ذراعيها حول عنقى . لقد تلاشت قاذورات حياتى كلها كما يتلاشى الكابوس البغيض أفيق بعده منزعجا لأقول فى نفسى : « أنت ما زلت هنا . انت تحبينني » بقينا لحظة فى صمت يحاول كل منا الا يندفع .. وفجأة قالت :

ـ كم انت باق كما كنت ، يا صغيرى جبرييل ! . انك تحمر خجلا كما كنت تفعل فى الماضى .

يا لها من كلمات مشئومة . لقد بددت فى لحظة تلك الغمامة المحيطة بى ، وعدت أرى حياتى فى بشاعتها .

ألم يترك شىء أثره فى شكلى ؟ . انها الحقيقة ولم تخطىء ماتلد فيما قالت . ففى الزمن الذى كنا نلعب فيه ونلهو معا لم

أكن بأقل ضياعا مما أنا عليه الآن ، غير أن رواء الطفولة كان يحجب ما بى .. لا .. لم أتحول عما كنت عليه أنملة . ان كل ما ارتكبته من آثام فيما بعد لم يضف شيئا جديدا الى حقيقة وجهى .. الى وجهى الأزلى .

بادرتنى قائلة

ـ ليس فيك ما يدل على المرض .. ولـكن لا بد انك مريض فعلا .. نعم ، أعرف ذلك لأنى اطلعت على صور الأشعة الخاصة بك أثناء رحلتى الأخيرة .. أنا ماهرة جدا فى الطب الآن .. عجيب حقا رونق العافية البادى عليك ' .

ثم راحت بعد ذلك تسأل عن درجـــة حرارتى واســتاءت حينما علمت منى أنى لا أعنى بالكشف عن هذه الحرارة كل مساء . ثم عدنا ســويا . لاحظت أن كثيرا من اشــجار الصنوبر قد قطعت وزالت بزوالها تلك المخابىء التى عرفناها فيما مضى وكنــا نلجأ اليها . قناة الباليون التى كنا نجتاز الأحراش الكثيفة للوصول اليها ، والتى كانت تجرى مياهها تحت الأغصان المتشابكة لأشجار الحور والبلوط ، أصبحت اليوم مكشوفة تسيل مرتعدة وسط أرض جرداء ممتلئة بأعقاب الجذوع وفتات اللحاء .. قالت ماتلد :

ـ هذا هو الباليون ، على الأقل ، لم يتغير . هل تعتقد أن القنابل والغازات السامة تستطيع شيئا ضد جداول الماء ؟.

لايستطيع أحد شيئا ضد الماء الجارى .

نظرت الى تلك الشابة التى كنت أناديها فيما مضى بعبــارة « يا صغيرتى » .. وقلت لها :

ـ بلى يا صغيرتى . يستطاع تسميمه ..

ثم أضفت :

ـ انظرى ! . هذا هو مخبؤنا .. ما زال فى مكانه .

انت تعلم يا سيدى أن ما نسميه « مخبأ » فى ليوجا هو الدروة التى يقبع فيها الراعى لاصطياد الحمام البرى .. دخلنا الى هذا المخبأ كما كنا نفعل فى الماضى . لم تدر بخلدى فكرة استغلال هذا الانفراد بينى وبين ماتلد ، ولم تفكر ماتلد فى أى سوء . عدنا كما

اكنا ، طفلين اعتادا على قضاء اجازتهما فى ريف واحد . كل ما فى الأمر اننا وقفنا وكتفانا متلاصقان فى وسط هذا الصمت التام وعبق السرخس الجاف .

عدت الى حالة فقدان الشعور بشخصيتى . لا .. ان جرائمى التى لم تترك اثرا على وجهى مرت على روحى ايضا ولم تترك به اثرا . هذا ما شعرت به فى تلك اللحظة وربما كان ذلك الشعور فيضا من البراءة المرتسمة على وجه ماتلد والكامنة فى نفسها .. غمرتنى السعادة للحظات . نعم ، فعلى الرغم من كل شىء ما زلت أعرف ما هى السعادة .. وبقيت هكذا الى أن قالت ماتلد :

ـ عجبا .. لقد وجدت أديلا وقد تغيرت كثيرا .. لم أعرفها . امرأة عجوز ..

لم ارد بشىء . قطرات المطر تنقر فوق المخبأ المصنوع من الأعشاب وأوراق الشجر . وعلى القرب منا عصفور « يصوصو » مذعورا . يجب الا أفكر فى أديلا . يجب الا أفكر فى اديلا .. ولكنه جهد فاشل . انها تقف ، وستقف دائما ، بيننا .. أخذت ماتلد تحدثنى عن عملى وتحاول معرفة المصدر الذى استمد منه مواردى . فأجبتها فى حرص وبى رعدة مكتومة . انها فتاة عملية متمرسة على الاشغال كما هو شأن الكثيرات غيرها فى هذا الاقليم وقد اجهدت نفسى لمحاولة التهرب من اسئلتها . لحسن الحظ كانت بعض التلفيقات التى ذكرتها لها لا تدعو الى الخجل فقد كان من الممكن فى ذلك الوقت شراء أى شىء وتخزينه لمدة شهر واحد ثم اعادة بيعه وتحقيق الربح الوافر . ولكن ماتلد زمت شفتيها اشمئزازا وقالت انها تسمى ذلك « تحايلا على العيش » ثم عادت تسألنى :

ـ ألم تفكر أبدا فى مغادرة باريس والاقامة فى ليوجا ؟.

ـ وماذا أفعل فى ليوجا ؟.

ـ لست أدرى ، انا أبحث ..

تلاقت نظراتنا فى عتمة المخبأ . انقطع المطر وأحاطت بنا الارض المبتلة بعبقها وبرودتها ، ولكننا كنا نمتلىء دفئا .. كنت

أعرف ما الذى تعرضه على .. وأفهم ماذا تعنى . ولكن العرض جاء متأخرا . ما لم أضح بأديلا .. هل فى ذلك تضحية حقيقية بها ؟ . أنها لم تعد تحبنى .. وما زواجنا فى نظرها الا نوع من الاصلاح لضرر وقع وليس لها من سلطان على .

ـ فى استطاعتك ، مثلا ، أن تتولى الاشراف على ممتلكاتى ؟ .
ـ بأية صفة ؟ .

لم ترد على هذا السؤال وانما اخذت تتكلم فى عبارات متقطعة عن برايتون وعن صديقتيها الاستراليتين اللتين فقدتا أهلهما فى احدى السفن التى ضربت بالطوربيد . ثم فجأة سألتنى هل أعلم السبب الذى من أجله عادت الى فرنسا . انه مشروع زواج بينها وبين أحد أبناء عمومتها ، سيمفوريون ديبا ، الذى يكبرها بعشرين عاما ، وكان من قبل يشرف على ممتلكات ماتلد فى حياة أبويها . أظهرت شيئا من الانزعاج لهذا النبأ فقالت :

ـ لم أبت فى الأمر برأى بعد . فاذا كان رأيى هو الرفض ، وهو المحتمل ، لم اكن لأستطيع ابلاغ ذلك اليه بخطاب وهو الرجل الذى أنا مدينة له بالشىء الكثير .

عاد المطر يتساقط فأخذنا نعدو نحو البيت وقد امسكت بيدها كما كنا نفعل ونحن أطفال ، ولكنها اليوم أسرع منى عدوا . دخلنا على هذه الحال الى ردهة الدار المعتمة كان صوت الرعد ضعيفا ورأيت على أحد المقاعد رداء من أردية الممرضات .. قالت ماتلد :

ـ لقد عادت أديلا الى المنزل . لست أجد الشجاعة لأناديها ، أنها تبدو وكأنها تتحاشانى .. هل لك علم بشىء أثارها ضدى ؟ . لعلها ترى انى لم أكتب لها كثيرا .. على كل حال لم يكن بيننا صداقة خاصة . بعد زواجى سيكون فى استطاعتى أن أحيا مستقلة فى بيتى .

ـ ان القصر مملوك لكما مشاعا .

ـ انى أنوى الخروج من حالة الشيوع هذه .. على انى لست متمسكة بالقصر .. فاذا شاءت أديلا أن تحتفظ به .

ـ ان بيت مسيو ديبا المطل على الميدان بيت كئيب .

عندئذ أجابتني بصوت فيه رعشة . انها لا تنوى الاقامة لدى مسيو ديبا . ولما كان النور الكهربي ينطفىء دائما كلما هبت العاصفة فقد وقفنا متجاورين ومن حولنا أصوات مياه المطر المنهمر وسط العتمة . كانت تصل الينا اصوات أقدام تسير فى الطابق الأعلى . انتابتنى رغبة جامحة مجنونة ، رغبة التحدث فورا الى ديلا وقطع كل سبب بينى وبينها .. لا .. مستحيل أن أظل لحظة واحدة فريسة التردد بعد الآن . يجب أن يكون طريقى واضحا ، يجب أن تتاح لى فرصة السعادة بعد هذا اللأى ، يجب أن أزيح العقبات جميعا من أمامى . هأنذا انهال فى الخيال على هذه العقبات أحطمها كالمجنون .. آه ! . ولكن ما العمل فى آلين ؟. ولكن لابأس ، ان ماتلد لاتقل ثراء عن أديلا . وسوف يكون فى استطاعتى استخلاص المبلغ اللازم لحمل آلين على اغلاق فمها الى الأبد .. لا .. انى أعرف جيدا ان شيئا ما لن يمنع تلك البائسة من مداومة التشهير بى وملاحقتى حتى النهاية . سيتوفر لى الوقت اللازم للتفكير فى ذلك كله بعد اتمام الزواج . ان السعادة وحدها ، تلك السعادة المرتجاة ، هى التى سوف تمنحنى الشجاعة الكافية لارغام آلين على الصمت ، الصمت الدائم الأبدى ، نعم .. فجأة ، وفى تلك اللحظة بالذات ، دخل تلك الردهة الريفية ، بالقرب من تلك الشابة التى تتلاحق أنفاسها ، صممت على ارتكاب تلك الجريمة الأخيرة : جريمة أخيرة أسترد بعدها حقى فى عدم ارتكاب غيرها . جريمة واحدة ثم لا جرائم الى الأبد .

المطر يتساقط محدثا جلبة وضوضاء ، والعاصفة تثور فى كل مكان ومع ذلك لم أكن أسمع شيئا فى الوجود غير هذا التنفس الخفيف المنبعث من ماتلد ، تقدمت يداى المترددتان وسط الظلام . جاء الى صوتها الخافت يقول :

ـ كما كنت دائما .. وانت ؟ .

ضممتها بين ذراعى ، وأنا متجه بذهنى الى تلك الخطوات

الثقيلة المتتابعة فوق رأسينا ، خطوات اديلا .. يجب أن أتخلص في الحال من اديلا ..

لن أستطيع البقاء لحظة واحدة في الشك والتردد بعد الآن ، أبعدت ماتلد برفق عني وطلبت منها أن تذهب لتنتظرني في غرفتها .

دخلت على اديلا من غير أن أطرق الباب ، كاللص المتسلل كانت تسير جيئة وذهابا وهي تتمتم على حبات مسبحتها هذا هو صوت الخطوات الثقيلة التي سمعناها في الردهة بعض الشموع مضاءة على المدفأة . بدأ عليها الضيق من رؤيتي وتوقفت عن السير وقد لفت المسبحة حول معصمها .

قلت لها بصوت هادىء عذب دهشت أنا نفسي لهدوئه وعذوبته:

ـ أردت أن أحدثك قبل العشاء . لقد فكرت كثيرا بعد حديثنا أمس . لشد ما أحدثت اليك من ضرر ، يا عزيزتي اديلا : ان هذا الزواج لو تم لكان جنونا ..

قالت وهي تحرك ذراعيها في أعياء :

ـ ما فائدة العودة الى الكلام في هذا الأمر ؟ . ان كل ما يجب أن يقال بشأنه قد قيل .

قلت متلعثما من الغيظ الذي أخذ يتملكني :

ـ وأنا ؟ .. مافائدتي في ذلك ؟ . ما الذي أصير اليه ؟ . أين سعادتي أنا في هذا الزواج ؟ .

التفتت الى أديلا ونظرت الى في اهتمام ظاهر وقالت :

ـ سعادتي ؟ . ثروتي . أملاكي .

ألقت هذه الكلمات في صوت هادىء مثير . فأخذت احتج بأن ثروتها لا تهمني . وازداد حنقي فاندفعت أقول :

ـ في استطاعتي أن أحصل على أملاك مثل أملاكك ، بل اجمل من أملاكك .. وفي نفس الوقت أتزوج من امرأة ليست ...

وهنا انفلتت مني كلمة من تلك الكلمات التي ألفظها أحيانا .. كلمة سوقية لاتشبهني لأن من طبعي أن أنفر من سماعها . ولكن

لست تستطيع ، يا سيدى ، أن تتصور ما الذى تتفوه به شفتاى فى بعض الأحيان .

فى صوت مرتجف سألتنى اديلا :

ـ أية امرأة هذه ؟ . ماتلد ؟ . لقد كنت أتوقع ذلك .

ثم أضافت فى ألم ظاهر وفى هدوء تام :

ـ لقد كنت أحس به يقترب .. ولكن لا ، يا صغيرى يجب أن تخرج هذا من رأسك .

واذ تمتمت قائلا : « من الذى يحملنى على ذلك ؟ . » أجابت أن لديها الوسائل الكافية .. وقالت :

ـ كف عن أوهامك . انك ضائع ان فعلت :

بلغ بى الفيظ حدا سبق لها ان عرفته من قبل ولكنها صمدت لاتلين وقاومت الشرر المنبعث من عينى .. وقالت :

ـ لم يعد فيك شىء يخيفنى . أنا مستعدة لكل شىء . اسمعنى جيدا اذا لزم الأمر سأتولى بنفسى ، وبلذة ، مهمـة انقاذ ماتلد . ألم تفهم بعد انى لم يعد لدى شىء اكسبه أو شىء أخسره وانى قد خسرت كل شىء أو كسبت كل شىء ؟ . وانك لم تعد تستطع لى نفعا ولا ضررا ؟ .

رفعت يدى الى قرب رقبتها الفليظة البيضاء وصرخت فيها :

ـ وهذا ؟ . ألا تخافينه أيضا ؟ .

هزت رأسها وقالت :

ـ كلا .. لأنك أنت ترتعد خوفا يا جبرييل .

ترددت فلم أنقض عليها وهى تغادر الفرفة ، ذهبت الى رأس السلم ولم يكن ذلك لتفر منى ، كما خيل الى فى أول الأمر ، لأنى سمعتها تنادى ماتلد فى صوت مرتفع .

سمعت صوت خطو الفتاة الخفيف على السلم ، وقفت أبعد ما أكون من النافذة فلم تلحظ ماتلد وجودى أول الأمر عنـدما دخلت الى الحجرة ، بعد ذلك سمعتها تقول :

ـ أنت هنا يا جبرييل ؟ .
أسرعت اديلا فأغلقت الباب وقالت :

ـ لم نعد نستطع جبرييل وانا أن نؤجل اعلان النبأ العظيم .. لقد وعدتنى يا جبرييل بأن تخطر به ماتلد بنفسك .

ظنت الفتاة للوهلة الأولى انى رويت لابنة خالتها ما حدث بيننا وان أديلا أرادت أن ترد على ذلك باعلان نبأ خطبتها هى ، فقالت ضاحكة :

ـ هكذا نلتقى نحن الاثنتين بالسعادة .. ولكن بالله يا اديلا اخبرينى بسرعة عن اسمه .. هل أعرفه ؟ ..

ـ ياعزيزتى ، لاتخمنى كثيرا ، انه هنا ، فى هذه الغرفة الآن ..

كانت تتحدث بتؤدة ، وكأننى فى حلم سمعت ماتلد تقول مرارا :

ـ كيف هذا ؟ هل هى مهزلة ؟ .
ظللت صامتا وفجأة التفتت الى الفتاة تسألنى :
ـ ليس هذا صحيحا يا جبرييل ؟ .
قلت ملعثما :
ـ أرجو الا يكون صحيحا ..

عندئذ راحت أديلا تؤكد بصوت رتيب ، كما لو كانت تلقى درسا محفوظا ، ان ليس فى استطاعتى انكار ذلك واننا مرتبطان كل منا قبل الآخر ، هذا بينما ماتلد تقول لى بصوت خافت :
ـ انها تهزأ منك !.. أجب !.. أجب !..

اشرت بيدى اشارة مبهمة تدل على الرفض ، وكنت أستمع الى كلمات ماتلد المتقطعة من غير أن أعى لها معنى .

بعد فترة من اللاشعور بدأت افهم كلماتها وهى تقول فى حنق

ـ لقد وضح كل شىء ، كنت تظن اننى سأقع بغباء فى فخك بينما أنت واثق من موافقتها هى .. ان المهم فى نظرك لم يكن غير

الدخول فى الأسرة .. كيف جاز لك أن تدبر هـذا التدبير ؟ أنت يا جبرييل ؟ من الذى كان يظن انك قادر على هذا اللؤم ؟ ...

ولن أنس قط نظرة أديلا لى بينما ابنة خالتها تردد :

ـ من كان يظن انك قادر على هذا اللؤم ؟ .

ان من يعرف أسرار حياتى يجد بلا شـك أن كلمات الحنق التى كانت تلقيها ماتلد انما تدعو الى الضحك والسخرية ، فقد كانت تصرخ :

ـ لاتخش شـيئا فلن أنازعك فيـه ، أنت تعلمين أن ليس أسهل على من ذلك ! ولـكن احتفظى به يا عجوزتى .

بل انها قالت لها فى لهجة عامية :

ـ كليـه ..

فى هذه اللحظة ، انفصلت أديلا عن الحائط وأغلقت عينيها قليلا ثم قالت فى سرعة كبيرة :

ـ ان الأمر لا يتعلق بى انا .. ولـكن .. لنـا ولد .. طفل صغـير اسمه اندريس .. له من العمر خمس سنوات .

تمتمت ماتلد قائلة فى دهشة :

ـ أنت ؟ ! طفل ؟ !

ثم ضحكت وغادرت الحجرة مترنحة فلم تلبث أن سمعناها تسقط امام الباب ، اندفعت نحوها ولـكن اديلا دفعتنى بقسوة ، من الخطر مقاومتها فى تلك اللحظة ، تركتها جاثيـة الى جانب ابنة خالتها ترفع رأسها من الأرض وتسللت أهبط السلم من غير أن ألتفت .

شعرت بصقيع مياه المطر تحت قدمى وأنا أسير على هـدى بياض الطريق الذى كنت أضل عنـه أحيـانا وأرتطم بأشجار الصنوبر ، هذه بلا شك احدى اللحظات فى حياتى كنت فيهـا أقرب ما أكون من فكرة الانتحار ، ولـكن صوتا عجولا لايفتا يردد فى داخلى :

ـ لا ! أنت جبان ، ولن تقدم على ذلك .

وكأن هذا الصوت انسان لا أمل له فى التأثير على من هذه الناحية . ذلك انى حقيقة جبان ، يا سيدى الراعى ، وكثيرا ما يحدث أن يكون الجبن ، من بين جميع ما فينا من رذائل ، هو الذى ينقذنا ، عدت الى البيت بعد انقضاء شطر من الليل ، مبتل الثياب ، جائعا ، دامى اليدين ، ولكن حيا ـ ويالأسف ـ حيا تماما .

يجب على أن اعجل ، يا سيدى ، والا فلن تجد فى نفسك الجلد لمتابعتى حتى النهاية ، فى اليوم التالى رحلت ماتلد وعادت اديلا ، كما كانت . الفتاة المنصرفة عن كل شىء ، الذلول المستسلمة التى لقيتها عند حضورى الى ليوجا ، ولكن ، لم يمكن اتمام زواجنا فى القرية ، فقد تلقيت خطابات فظيعة قاسية عليها أسماء كثير من الأرامل ومن الجرحى ، فاضطررت أمام التجمعات الصاخبة التى جاءت تحت نوافذ القصر تعلن سخطها . الى الفرار ليلا بالسيارة الى احدى القرى البعيدة حيث ركبت القطار الى باريس ، بعد ذلك لحقت بى أديلا هناك وعقدنا زواجا بسيطا لم يحضره غير الشاهدين فقط ، وما أن انقضت بضعة أسابيع على ذلك الا وكانت ماتلد زوجة لسيمفوريون ديبا .

تمسكت بان يبرم زواجنا على أساس المشاركة فى الاموال ، وكانت اديلا تستجيب بلا تفكير لكل طلباتي ، لم تلبث أن وافقت على ما عرضته عليها من ازالة الأشجار فى بعض ممتلكاتها وبيع أرضها وايداع الثمن باسمى ، ولم تراع فى ذلك مصلحة أندريس بل انها حررت وصيتها وفقا للصيغة التى أمليتها عليها ، لم يكن هناك ما ينبىء بأنها على بعد خطوات من الموت ، أرجو يا سيدى الا يذهب بك الظن كل مذهب .. وخصوصا الا توجه نحوى ريبتك .. لقد قضت عليها الحمى بعد انتهاء الحرب بأكثر من عام وفى الوقت الذى ظن فيه الجميع أن الوباء قد زال ، لقد ماتت كما تقولون أنتم يا رجال الدين « ميتة راضية » ولكن بغير جلبة على انى تسمعت من خلال الباب الى بعض كلماتها الأخيرة . لقد كنت أنا ملء تفكيرها كله .. انها لم تلفظ اسم ابنها ، يالها من

عقيدة شاذة ، تلك العقيدة التى تدعو الى تلمس النجاة عن طريق الألم ، والى التضحية بتلك الحياة التى لا حيلة لنا فيها ولكن ربما كانت الحقيقة هى الأخرى امرا شاذا .. هل تصدقنى يا سيدى اذا ما اقسمت لك انى بكيتها كثيرا وانى مازلت افكر فيها وأراها كائنا حيا لم يخرج بعد من حياتى ؟ .

ما أن أصبحت حرا طليقا حتى عادت آلين ، بطبيعة الحال ، تلح فى طلب الزواج منى ، ولكنى فضلت أن تحل بى المصائب على أن أرتبط بهذا الرباط معها ، ولم تلبث هى أن فهمت ذلك جيدا ، وعندئذ صارت حملاتها على وملاحقاتها لى أمرا لايطاق فاضطررت الى الاستعانة بسيمفوريون ديبا .

أنت تعرفه ، يا سيدى ، لقد كان فى تلك الفترة معتلا مريضا لم يكن الافراط ـ كما يقولون ـ هو سبب ضعفه ، فلو ان ماتلد تزوجت منى ، اذن لعرفت ما هو الحب .. ليس من شك فى أن رد الفعل كان يصبح قاسيا ولكنها كانت قد عرفت الحب على حقيقته لعدة أسابيع ، ربما لعدة شهور .. لك أن تتصور ماكانت عليه حياة ماتلد الزوجية ، ومع ذلك أنجبت فتاة ، هى كاترين ، التى وجدت عند مولدها مكانها مشغولا ، ذلك ان ماتلد كتبت لى على أثر وفاة اديلا ، لتقول انها تتكفل راضية بتنشئة اندريس الصغير . منذ ذلك الحين عاش اندرس فى كنفها .

حكم على سيمفوريون ديبا من النظرة الأولى ، ليس معنى هذا انه كان يستطيع أن يفهم الاعيبى وأحابيلى ، كلا ، فصنف الرجال الذى أنا منهم شيء لا يتسع خياله الى حد تصور وجوده لقد حكم على بأنى صعلوك افاق وكفى . ولقد كنت حقيقة كذلك من وجهة النظر التى تعنيه ، ورثت عن اديلا كل ما يسمح القانون بتجريد الابن منه لصالح الزوج ، الم ألبث أمام طلبات آلين الملحة وأيضا بسبب الحياة التى كنت أحياها ، يا لها من حياة ، لقد اضطررت الى تقطيع مابقى لى من أشجار الصنوبر ، فبدات بأكبرها سنا وانتهى بى الأمر الى اكثرها شبابا وانتاجا ، زارنى سيمفوريون ديبا يوما فى باريس وقال لى انى أسيء استغلال املاكى وانى

يجدر بي أن أعهد أليه بادارتها وتعهد بأن يضمن لي دخلا كافيا ، بدأ باقراضي كل ما طلبته منه من نقود ، ثم أعفيك يا سيدي ، من سماع الحيل والوسائل الملتوية التي استخدمها للوصول الى شراء غاباتي التي كانت بطبيعة الحال مجاورة لغاباته ، دأب كذلك ، في أثناء فترة نمو ابني اندريس ، على استخدام اساليبه الماكرة التي كان من شأنها أن تبرر انحرافاتي وعيوبي كلها في نظري أنا نفسي .. وهل يحتاج من كان على شاكلتي الى ما يبرر أعماله ؟ ولكني أحتاج الى هذا المبرر ، يا سيدي ، حينما يتصل الأمر بابني . غير أن المهم في هذه الأساليب انها كانت تقضي على كل مقاومة تأتي من جانب ماتلد زوجته . لقد حرصت ماتلد على الدفاع عن مصالح اندريس ضدي كما لو كان ابنها هي . وانت تعرفها اليوم ، يا سيدي ، وتعرف أنها تفضل اندريس على ابنتها كاترين نفسها . ومازلت أذكر ثورتها العارمة على زوجها حينما تبين لها انه انما يستغل حاجتي الدائمة الى المال ويسعى الى سلب أملاكي مني .

لقد تغلب ديبا على غضبتها هذه بعد أن خاطبها على هذا النحو :

ـ لن يحول شيء بيني وبين بيع املاكي لأول شار يتقدم لي ، فمن الخير اذن أن تبقى تلك الأملاك في الأسرة ، ولكي لا نضار اندريس فما علينا الا أن نعقد خطبته من كاترين ، وبذلك سوف يستعيد عن طريق الزواج كل ما باعه أبوه نقدا وعدا .

لم يكن هذا التدبير الا شيئا معقولا ، ذلك أن اندريس وكاترين عاشا منذ طفولتهما معا لايفترقان . فليس اذن مايثير الشك في حسن نوايا سيمفوريون ديبا ، لقد بلغ به حبه للملكية حدا جعله لا يطيق فكرة التقسيم ، وهذا الشعور الشائع بين مواطنينا هو السبب الأول في هذا العدد الكبير من زيجات الأقارب الذي يشاهد عندنا ، انه اذن يدفع لي المال لكي لا تخرج أملاكي عن نطاق العائلة على أن يصبح اندريس فيما بعد مالكا لها بلا منازع .

بهذا المنطق ضمن ديبا حياد زوجته في عمليات استيلائه

تدريجيا على كلّ ما هو مملوك لى بالذات ؛ اما اندريس فكان مالكا لمزرعتى سرنيس وباليزاو اللتين ورثهما عن أمه ولم تكن لى فيهما حقوق ، هذا فضلا عن الف هكتار من الأرض الزراعية المستغلة استغلالا كاملا ، اذا كان ديبا ينوى حقيقة اتمام زواج ابنى من ابنته ، فلماذا هذا السعى الدائب منة الى وضع يده على مابقى لى من ملك سأورثه لاندريس ؟ لماذا حرصه على دفع رسوم التسجيل عن تلك الأراضي التى هى هديتى لابنى يوم زواجه ؟ أعترف لك يا سيدى ان هذا هو الذى يحيرنى من أمر ديبا . انى احاول أن أقنع نفسى بأن شغفه بالملكية قد تحول لديه، منذ أن أصيب بالشلل النصفى ، الى ما يشبه الهوس والجنون فأصبح لا يعى اعتبارات المنطق والعدل . ألم يقلها صريحة فى احدى المرات حينما أقسم أن زواج ولدينا لن يتم الا بعد أن تبرم الصفقة وتتم ؟ انه يلاحقنى بضغطه لكى أحمل اندريس على التسليم بهذا البيع .. ولست تجهل ، يا سيدى الراعى ، انى ، على ما فى من عيوب ، أتمتع بسلطان واسع على ارادة هذا الابن الذى نفضت منه يدى منذ ولادته والذى لم يرنى الا لماما عندما كنت أذهب الى ليوجا لتحصيل المبالغ التى كنت فى الواقع أسرقها منه ، لقد استطعت أن أستولى على اعجاب ابنى أيضا كما اجتذبت اعجاب الآخرين ، انه آخر انتصار لى فى هذا المضمار ، وكما هو شأنى مع انتصاراتى السابقة لم أستطع أن أمنع نفسى من استغلاله وابتزاز أمواله ، ولكن الفرق بينه وبين ضحاياى الآخرين هو انى أحبه وبه شغوف .

ان ابنى يفعل كل ما أطلب منه فعله ، وهو ، على الرغم من أن حب الأرض متأصل فيه هو الآخر ، الا انه لا يستسلم له الى حد الانحدار ، ان غريزة الملك لا سلطان لها عليه وقد ورث عن أمه فضيلة الاهتمام بشئون المزارعين ، فهو يعنى بشئونهم كل العناية « انه من حقهم .. » كما يقول سيمفوريون ديبا ، مخدومه ، فى حنق ظاهر . نعم مخدومه ، فقد أصبح ابنى على مر الزمن كاتبا زراعيا بلا أجر لسيمفوريون ديبا ، أو لم يكف هذا الثعلب الماكر

امتلاكه للجانب الأكبر من أراضى أسرة دوبوش حتى يجعل من ذكر فى هذه الأسرة خادما له ؟ .. واذا كان أندريس مستسلما له على هذا الوجه فما ذلك الا لأنه انما يعتبر نفسه الزوج المحتوم لكاترين ، فسوف يوافق بلا شك وبدون كبير معارضة على ما يعتقد انه نزوة من نزوات الرجل المريض ويرضى ان يبيع له مزرعتى باليزاو وسرنيس بالثمن البخس لكى لاترتفع رسوم التسجيل ، وقد أقسم له ديبا أن يوم الفرس سيجدد فور توقيع العقد مباشرة ، أما أنا فأريد ، يا سيدى الراعى ، أن يحتفظ ابنى بأملاكه ، لا أجهل أمر العمولة التى تنتظرنى اذا ماتم ابرام الصفقة فقد حدد ديبا مقدارها معى .. هذا بينما وعدنى الصغير ، الذى يعلم ما أتخبط فيه من ضائقة وحاجة ، بأن يقرضنى ما سوف يحصل عليه من ثمن مقابل فائدة أدفعها له قدرها خمسة فى المائة ، ولكن ما يدرينى ؟ لعل فى الأمر خدعة يرمى العجوز من ورائها الى سلب اندريس ملكه ثم يرفض بعد ذلك تزويج ابنته له .. ما قيمة الوعود التى تصدر عن هذا الرجل اذا لم يتم التوقيع عليها فى مجلس الموثق ؟ ولكن هناك آلين تحاصرنى وتلاحقنى كما لم تفعل من قبل ، لقد عشت السنوات الطويلة أخترع الحيل وأتفنن فى ابتكار الأساليب التى ترفع قبضتها عنى ولكن السن تتقدم بى والهرم يحل بى من شهر لشهر .. بل من أسبوع لأسبوع ..

أيا كان الأمر ، فلن أجرد الصبى من أملاكه ، يجب أن تبقى له مزرعتا سرنيس وباليزاو .. ليحتفظ بهما على الأقل حتى اليوم التالى لزفافه .. انه ارجاء من شأنه أن يساعدنى على القفز بسهولة أكثر ، بعد أن أتلقى عمولتى وأحصل على القرض من أندريس لن يكون هناك شىء أنتظره .. بقى أن أبوح بسرى الى ديبا ، وقد يكون أقسى على من آلين ، أو لعله يستغل ما أسر به اليه ليقضى على ان لم يكن لإنتحال الحجج لعدم ابرام الزواج ..

سيدى الراعى ، أنت وحدك ، أنت وحدك ... ...

***

ألقى الرجل القلم وراح يعيـــد قراءة ما كتبه ثم قام ، انه يرتدى رداء من الحرير الأزرق الممزق كسته الأوســاخ ، وما زال وجهه يبدو شابا وقد لفحته الشمس تحت شعره الفضى . عينـاه الصافيتان لم يتغير بريقهما منذ طفولته ، الضوء الحزين يدخل من خلال زجاج النافذة الملوث ، ضوء باريس الذى ينتظر الناس موته على مضض ليغلقوا نوافذهم الرقيقة التى تدمى الأصابع ، أثاث الغرفة يرجع الى سنة ١٩٢٥ ، لم تستطع الأيام أن تضيف شيئا الى تلك الحوائط المطلية ولا الى ذلك الأثاث المصنوع من المعـدن والزجاج ، والذى سيظل على حالته من الجدة حتى الانهيار الأخير ومع ذلك ترى الفوضى ضاربة أطنابها ، فوضى الخراب ، لا فوضى الحياة ، فعلى السجادة التى تكسو الأرض صحفة بها آثار الطعام وفى كل مكان تناثرت أعقاب الســجائر ، يبدو أن أحدا لم يعن بتنظيف المـكان منذ أيام عديدة .

ذهب جبريل جرادير ليستلقى على الأريـكة التى كانت له سريرا ينام عليه ، قال لنفســـه : « لمـاذا تكتب ذلك ؟ ما الذى يستطيعه لك هذا القسيس الصغير ؟ على أن أحظر عليك رؤيته ! أحظر عليك معرفته ! أحظر عليك اطلاعه على أسرارنا ! .

شعر جرادير بالارتياح اذ سمع فى الطابق الأعلى صبيا يغنى أصــواتا ، فقد كان يكره الصمت ، انه يحس الصمت من حوله يتنفس وبالجو المحيط به ثقيلا كثيفا مليئا بالأرواح . لا . انه لن يستطيع البقاء أكثر من ذلك . أسرع يخلع ملابس البيت ويرتدى ملابس الخروج . يا لها من راحة تلك التى غمرته عندما جـذب الباب من خلفه ولوى المفتاح فى القفل وكأنه يحبس داخل جدران هذا المسكن فى شارع اميل زولا عدو حياته ، حياته كلها !

هذه اللحظة التى تضىء فيها مصابيح الشارع كلها دفعـة واحدة ، سار بخطى سريعة ، قوية كأنه يطير ، خطى لا يعرفها الا هو ، اشترى جريدة ، هل من أحـد يعرفه أو يعرف اسمه ؟ ثم

اجتاز نهر السين ومشى بمحاذاة قضبان الترام حتى وصل الى ميدان باب أوتى . كان يحس باحساس الرجل الذى تخلص من مطارديه ، ما من انسان يجلس فى شرفة ذلك المقهى الذى يزدحم عادة بالرواد فى الصيف ، ولكنه لا يشعر هو بالبرد ، انه لايشعر بالبرد أبدا . كأس من الخمر .. هل ستمنحه الراحة المنشودة ؟ لا أحد يدرى ، ان الخمر تنقذ شاربها أحيانا من الملل ، ولكنها أحيانا أخرى تزيد الهموم هموما وتضاعف اليأس والضياع ، هذه الكأس من البرنو سوف تضفى رحمتها على جرادير ، سيستطيع بعدها أن يعود الى بيته بلا خوف ويستلقى فى فراشه ويغلق عينيه ، سيقتصد ثمن العشاء ثم يخرج متأخرا ويجلس الى منضدة تلك السيدة التى تذهب كل مساء الى محل فلوروس ويطلب لنفسه شطيرة من الخبز واللحم تدفع له هذه السيدة ثمنها مع الشمبانيا ، انه على الرغم من ذلك يرتعد قليلا فى تلك الليلة الرطبة ، لقد اجتاحت الحى كله رائحة تشبه رائحة الغابات بما فيها من أرض مبتلة وأوراق ميتة ، أسرع الخطى نحو مسكنه قال يخاطب نفسه :

ـ ما هذا ؟ لقد نسيت أن أطفىء الكهربا .

ثم صرخ :

ـ آلين ! ماذا تفعلين هنا .. لقد نبهت عليك بعدم الحضور الى هنا ..

لم تتحرك المرأة المنهارة فوق الأريكة بل راحت تدخن والى جوارها زجاجة بورتو فارغة ، لقد كست بقبعتها راس البوذا الموضوع فوق المدفأة ، ان وجهها العريض الملطخ بالدقيق قد طلى من غير أن تمر عليه يد تغسله ومن وسط المساحيق الصارخة لمعت عيناها الزائغتان الممتلئتان ماء بينما انتشر خط من الأحمر الرخيص يدل على فتحة الفم ، لقد انحسر رداؤها الى ما فوق ركبتيها فبدت ساقاها من بين طيات الحرير الصناعى وفيهما أثر من رقة غابرة ، قالت بعد صمت :

ـ ليس لك أن تحظر على شيئا . ان المفتاح معى أليس كذلك ؟ لقد قضيت شهرين أنتظر ..

كانت لهجة أهل بوردو مازالت ظاهرة فى كلماتها اقترب جبريل منها وجلس الى جوارها وأشعل سيجارة وبصوت فيه تواضع خبيث قال :

ـ وأنا أيضا ، يا آلين ، لم اعد املك شيئا ، انى لا أتناول الا وجبة واحدة فى اليوم ..

ـ عندك الصفير .. تستطيع أن تأخذ منه .

قاطعها بعنف وقال :

ـ لا ، لا تحدثينى عن الصفير ، لن أجرد أندريس من ماله . لا ، هذه الجريمة على الأقل لن ارتكبها . لا .. لا ..

ـ ولكن ، ما دام هو نفسه لا يرفض ..

ـ وهذا سبب أقوى لكيلا أتمادى فى ابتزازه .

ـ ولكن ما دام زواجه يتوقف على عقد هذه الصفقة ! لقد وعدك ديبا بذلك ولم يخلف وعده معك من قبل أبدا .

راح جبريل يهز رأسه ولا يتكلم ، فقالت آلين :

ـ اذن ، فتش عن شىء آخر .. انا لا اصر على ابتزاز الصفير ستلجأ أنت نفسك الى ذلك فى يوم من الأيام ، أيها اللئيم !. أنت تعرف أن هذا أمر محتوم لا مفر منه ، ولكن الى ان يحل الوقت ..

كانت تشد على نهايات كلماتها فى صوت متقطع ، وكان هو واقفا مستندا الى المدفئة ينظر اليها فى غيظ مكتوم ، كم يود لو تمكن من التخلص الى الأبد من هذه المرأة والقائها فى عرض الشارع .. ما الذى يمنعه من تنفيذ ذلك فورا ، هذا المساء ؟ ان الفرصة سانحة الآن فلن تستطيع تنفيذ تهديداتها اذ لا مصلحة لها فى لفت أنظار الشرطة اليها ، وفجأة قالت له :

ـ انى أعرف فيما تفكر ..

ارتعد لسماعه هذه الكلمات ، طلبت منه سيجارة ومدت اليه يدا قصيرة بدت أكثر قذارة بأظافرها المطلية بالصبغة الحمراء ، ثم قالت :

ـ أنت تظن اننى لن اذهب فى تهديدى الى النهاية ؟ انت مخطىء يا صفيرى ... أنت لا تعرف كل شيء ...

جذبته آلين وأجلسته قسرا الى جوارها وراحت تحدثه عن كثب ، وقالت :

ـ تصور أن انسانا ... انسانا أصابه منك كثير من الأذى ، فقد حطمت حياته ـ كما يقولون ـ ومرغت شرفه فى الوحل ... انسانا من علية القوم الذين لا يهمهم المال ، مصمم على بذل كل شيء للانتقام منك ...

رد عليها متلعثما :

ـ لا أدرى عمن تتكلمين ...

وفجأة برزت الى ذاكرته عدة أسماء هى أسماء ضحاياه . ولكنه تمالك نفسه وقال لها فى حزم :

ـ مهما كان الأمر ... اذا أراد هذا الشخص الايقاع بى ... فلن أقع وحدى ... اقسم لك بذلك ... كابرى ما شاءت لك المكابرة ...

ـ يالك من غر ..! من تظننى .. ؟

وانطلقت تضحك من حنجرتها وهى تغلق فمها لكيلا تظهر أسنانها . ثم قالت له متحدية :

ـ عندما يكشف هذا الشخص عن أوراقه سأكون بعيدة عن قبضة يدك منذ زمن بعيد . انه يقبل سلفا شروطى كلها . وقد تعهد بالانفاق على فى الخارج فى مكان هادىء لا يصل الى فيه اذ ذاك هلا تصدق قولى ؟

ـ كلا ، لأنه اذا كان قولك هذا حقا لما انتظرت الى الآن لانتهاز الفرصة ... فليس سواد عيونى هو الذى منعك ...

ـ لا . لا . يا صفيرى . ليس سواد عيونك بالطبع ..! ولكنها عاداتى الرتيبة هنا . الانتقال والأسفار ... هذه أمور لا طاقة لى عليها ... ليس كالحياة فى باريس شيء ... ترى انى لا أكابر ولا أعاند ... ان مصلحتى ان نتفاهم نحن الاثنين ... ولكن يجب أن تبذل من جانبك ... يجب أن تكون لطيفا معى ...

كانت تلقى كلماتها هذه فى هدوء وبلا غضب . فقد تعودت منذ زمن بعيد على هذا النوع من الممارسة والصفقات . سألها فى تردد ظاهر :

ـ الشخص الذى تتكلمين عنه ... هل هو المركيز ؟

ـ لا يخفى عنك شىء . تذكر قليلا ... تلك الرسائل بخط زوجته ... ما أكثر الأموال التى ابتززتها منه بسببها !.. ثم ان الأمر لم يقتصر على المال وحده ... أنت تعلم كم كان تعلقه بهذه المرأة ... المرأة التى اخذتها منه ثم أذللتها ولوثتها كل اذلال وتلويث .. ؟ ثم زواج ابنته الذى فشل بسببها .. لقد اختل عقل تلك الصغيرة ... جنت ... وهى اليوم سجينة مستشفى المجاذيب ...

ـ أنت دفعتنى الى ذلك ...

ثم أضاف مسرعا :

ـ لو ان رجلا غيرى لعب هذه اللعبة لما أتقنها كما أتقنتها ... لنكف عن الكلام فى هذا الموضوع ...

ـ أنت الذى تكلمت عنه ... اذن ؟

أجابها فى صوت متهدج :

ـ سأذهب غدا الى ليوجا ... انصرفى انت الآن . ولكن اعلمى انى لا أصدقك ... ان مركيز دورت يخشى الفضائح ... ويكفيه ما ناله منها ... انه يفضل دفع المال على الاتصال بامرأة مثلك ...

لم تغضب لهذه الكلمات وانما قالت :

ـ اذا كنت تعتقد أن لى شرف الاتصال المباشر به ، فأنت خاطىء . لا . ان كل شىء يتم فى الخفاء عن طريق وسيط بيننا . انه يريد الايقاع بك ... ولكن بطريقة نظيفة ... وبدون ضجة ...

اخذ يدفعها فى اتجاه الباب وهى تقاومه وتقول :

ـ ما الذى يمنعك من ارسال برقية ؟ انى فى حاجة الى النقود حالا ...

ـ لا . أريد أن أحدد سعر العمولة ... وخصوصا ... أريد أن أطمئن الى أن زواج أندريس ما زال أمرا مؤكدا ...

التفت فى معطف من الفرو البـــــالى وقالت وهى تدلف الى الخارج :

ـ أترك لك أسبوعا . اذا جاء يوم الاثنين فى مثل هذه الساعة هلا اعترفت بأنى فتاة طيبة ؟ . .

لما أصبح جبريل بمفرده ذهب الى النـافذة ففتحها وراح يستنشق الهواء المبتـل . التفت فى عنف كما لو أن انســانا فى ركن الغرفة قد ناداه . الغرفة خالية الا من الحرارة التى تركتهـا آلين ومن رائحتها ومن العطر الرخيص الذى فاح من هذا الجسـم الغليظ . أغلق النافذة وقال بصوت عال :

ـ لا يوجد أحد . . .

دار بعينيه الزائغتين يذرع الجدران والسقف والبساط الى أن تنبه فجأة فأخذ متعجلا قبعته ومعطفه . ثم عاد مرة أخرى يسير على غير هدى مخترقا الطرقات الخـاوية . وعلى الرغم من التعب والارهاق سار بخطواته السريعة الشابة ، يكاد يطير .

ـ ٢ ـ

بعد سفر طويل ، عاد القطار الصغير يسير ثم توقف أمام محطة ليوجا . نزل منه خمســة أو ستة من الركاب . الساعة العـاشرة مساء . أرخى جبريل حافة قبعته على عينيه وأعطى تذكرته الى العامل وبدلا من أن يخترق بهو الانتظـــــار المملىء بأناس جاءوا ليشـــتروا الصحف ، دار حول مبنى المحطـة . ومن خلال أكداس الألواح المتراصة أمام مصنع الأخشــاب وصل الى الطريق المغمور بضوء القمر .

لم يكن يشعر بوزن الحقيبة المتدلية من يده اليمنى وهو يسير فى الطريق الذى يطلق عليه القوم هناك اسم « الشارع العظيم » لأنه يدور حول القرية كلها النائمة فى ذلك الوقت . بدأت صـفوف أشجار الصنوبر على يساره فورا ومن خلال قممها انساب الليل بلون اللبن وسال على الجذوع التى كساها اللحـــاء وانتشر تحت أقدامها حيث تكاثفت الأعشاب الملتوية . وعلى اليمين قبعت البلدة وسط الضباب المتصاعد من الجدول ومن الحقول وقد بدت أكثر

صمتا من الغـابة التى كانت تنبعث منها من وقت لآخـر ، ولولة البوم أو صـوت كيزان الصنوبر التى تنفصل عن أغصانها وتسقط على الأرض . لقد همد الناس من التعب فناموا فى جحورهم قطعانا هاجعة اختلطت أنفاسها وتلاشت .

مر الطريق فوق جدول الماء المسمى قناة الباليون. أخذ جبريل يستمع الى الماء يجرى فوق الحصى ... هذا الخرير الدائم الذى لم ينقطع منذ ان سمعه فى طفولته . هذا العالم ... تلك المـادة.. التى لا تحكم علينا وانما تؤثر فينا فتثير فى نفوسنا مشاعر النـدم وعوامل الشفقة ... مهما ارتكبنـا من آثام ... ما أعجب هـذه الحالة اللاشعورية العميقة الحلوة التى غمرته فى تلك الليلة .

أبطأ جبريـل الخطى . ما دام يسير على هـذا الطريق الذى كساه القمر بياضا فلن يكون ظله المتكسر على أكوام الحصباء ، بأثقل على تلك الأرض من ظل ذلك القسيس الشاب الذى دفعه الجنـون الى محاولة الكتابة له بكل ما بجيش فى فؤاده ، والذى يرى بيته الأجرب هناك قابعا عند منعطف الطريق .

لم يكن يدرى ، طريق ليوجا هذا ، الذى طالما جرى عليه وهو طفل صغير ، ما الذى جاء به الى البلدة ... ولكن ، هل يدرى هو نفسه لماذا جاء اليها ؟ أليست لكل ما يسعى اليه أغراض غامضة ؟ لقـد جاء من أجل بيع مزرعتى سيرنيس وباليزاو . ولكن هذه الرحلة ، التى اضطر فى لحظات الى القيام بها ، لها أغراض أخرى . أى أمر خفى خطير جاء ليدبره فى هذا الركن من العالم حيث ولد ، منذ خمسين سنة مضت ، فى ليلة مثل هذه الليلة ، داخـل قاعة من قيعان احدى هذه البيوت الفقيرة البائسة ؟

ان خبرته الماضية لا تخطئه أبدا . ان أمثـال هذه الرحـلات المفاجئة التى لم يقصد اليها من قبل كانت دائما فى حياته دلالة على اعتزامه القيام بعمل أعده أو اتمـام غرض دبر له . شعر بنفسـه يتأرجح فاقد الوعى كالحجر أمسكت به يد قابضة . نعم ... انه الآن جامد كالحجر الذى تستعد يد الطفل لترجم به حيوانا بريئا. لم يحدث له من قبل أن شعر بمثل ما يشعر به فى تلك الليلة من استسلام مخيف .

على الرغم من الضباب المتصاعد من جدول الباليـون ، وقف مستندا الى السياج يرنو بنظره الى الغشـاوة الرقراقة وينصت للخرير . رائحة الماء تصل اليه . انها ليست رائحة الطين ولا رائحة الأعشاب المغمورة فى قاع المجرى . انها ذلك العبير الذى طالما عرفه فى طفولته ، طفولته الدنسة ، طفولته القذرة . ولكن الليل فى تلك اللحظة حرك فى أعماقه قوى كاملة من الطيبة والحب ... ها هو يحس فجأة الرغبة فى اتيان عمل لا يمت بصلة الى ما فرضه عليه مصيره ولكن ... ما من خير يستطيع أن يعمله فى هذا الطريق المقفر وفى هذا العالم الراقد . لا . لا يوجد سار واحد ملقى على حافة الطريق لكى يحمله بين ذراعيه ويضمد له جرحه ، لا يوجـد حتى عصفور واحد قرصه البرد لكى يدفئه فى صدره .

ولكن الرغبة كانت فى قلبه والنية فى ضميره ، رغبة لا فائدة منها ، ونية من تلك النوايا التى يقـال ان الجحيم ملىء بها . ان العالم المحيط به ينعكس فى نفسه : تلك الظلال البيضاء الرطبـة وتلك المياه الجـارية بلا وعى بين الشاطئين اللذين داستهما قدماه العاريتان كثيرا من قبل حينما كان يذهب مع الصغيرتين دوبوش لاصطياد أسماك الجدول ، وتلك المساحات الواسعة من البرارى الغارقة فى السحب ... هذه الطبيعة بما فيها قد تجردت لحسن الحظ من الذاكرة ، فهى عاجزة عن أن تعى شيئا ...

عاود السير عندما شعر بقرصة البرد . واذ وصل الى منحنى فى الطريق حيث يلتقى الشارع العظيم بالمنعطف المؤدى الى القصر، رأى جبريل البيت الأجرب الذى يقيم فيه القسيس . هنا يرقـد الآن ذلك الشاب الذى أراد من قبل أن يكشف له خبىء حياته . أى جنون أصابه ..؟ هذا الشاب أيضا يرقد الآن متجردا من مسوحه الأسود ، منهوكا من النصب والحزن ، مثل رعاياه الذين يرعبونه ويميتونه هما وكمدا وهو مرتبط بهم يجمعه واياهم التعب نفسـه والظلام نفسه ... ان مقبرة الأحياء هذه تنبىء عن المقبرة الأخرى التى سوف يلتقون جميعا فى ثراها ، الجلاد منهم والفريسة ، عند مدخل القرية .

وأخت القسيس ..؟ هل هى هنا ايضا ؟ على الرغم مما يدور

حولها من نميمة وما تتعرض له من اضطهاد . وقع جبرييل نظره ؟ ان ضوء القمر يضرب بشدة على النوافذ المغلقة ويرسم بقعا مخضرة واسعة على الجدران المتداعية . ولكن ، ما هذا المنتشر أمام الباب وحتى فوق درجات السلم ؟ ما هذا الشيء المنثور ؟ لاحظ فى تعجب هذا البساط الممتد من العشب المقطوع حديثا وقد خالطته وريقات لامعة من أوراق الغار . انها عادة القوم هنا أن ينثروا هذا البساط العجيب على عتبة الزوجين فى ليلة عرسهما ... لم يلبث جبرييل أن فهم ما يقصده القوم من هذه اللعبة الخسيسة . انها مداعبة سمجة أرادوا أن يغيظوا بها قسيسهم . فعندما يخرج غدا فى الصباح فى الساعة التى يذهب فيها الى أداء القداس ، سوف تذكره هذه الأعشاب المنثورة بما يعتقده أهالى ليوجا عنه وعن المرأة اللعوب التى يزعم انها أخته . ان القوم يستيقظون مبكرين فى ليوجا وعلى الرغم من أن القسيس يؤدى القداس فى الساعة السادسة ، هناك عيون عديدة سوف تتطلع اليه من خلف النوافذ المطلة على الميدان ومن وراء أشجار الحور المنتشرة على جانبى الطريق . هؤلاء الجلادون القساة ما زالوا نياما فى تلك اللحظة وليس هناك غير القمر فى كبد السماء ينظر فى حزن عميق الى أوراق الغار والحشائش المبعثرة على عتبة قسيس القرية المسكين .

مر خاطر فى رأس جبرييل : ترك حقيبته وسط الشوك الى جوار الحائط الصغير الذى يفصل من الخلف حديقة الراعى عن الطريق . ودار بنظره فيما حوله واسترق السمع . لقد كفت الكلاب عن النباح ولم تبق غير الديكة تتصايح من وقت لآخر وقد غرها ضوء القمر . راح جبرييل يجمع الحشائش ملء ذراعيه ويلقيها من فوق الحائط الصغير . وجد الدفء فى هذا العمل على الرغم من برودة الليل . ولما لم يبق الا القليل أخذ يجمع العيدان عودا عودا حتى آخر واحد منها . واذ انتهى من عمله وقف يلهث قليلا واستند لحظة الى شجرة الحور القائمة فى مواجهة بيت الراعى . بدت له درجات العتبة جرداء ناصعة فى ضوء القمر بعد أن زال عنها كل ما كان يكسوها من أعشاب وأوراق ظهرت فيها واضحة ، الأخاديد الصغيرة التى حفرتها أقدام الآلاف من الأحياء والموتى ممن جاءوا يدقون هذا

الباب . يالها من أحجار قديمة بالية وان كانت في ضوء تلك الليلة أكثر تعبيرا من وجوه البشر ، تضطرب فيها حياة غامضة ... ان هذا الرجل الذى كشف بيديه الملطختين صفحة هذه الأحجار الصامتة وقف الآن يتطلع اليها واذ به يتلقى فجأة منها نظرة لا يعرف كنهها. لم يدم ذلك أكثر من لحظة أخذ بعدها حقيبته ثم اتجه الى اليسار وانطلق فى الطريق المؤدى الى القصر .

- ٣ -

انتشر الضباب المنخفض فغطى الحقول ومن خلف هذه الغلالة الرقيقة انتصبت أشجار الصنوبر فى فرونتناك ، فوق التلال ،تردد ما سمعته وما رأته . الكلبة برجير تنبح فصرخ فيها جبرييل لتكف عن النباح . ها هو يشعر بقدمى الكلبة على صدره وبلسانها يلعق وجهه ورقبته . انفتحت النافذة وانطلق منها صوت :

ـ من القادم ؟

ـ أنا ، يا جيرسانت ، أنا جبرييل ...

قالت الخادمة العجوز انها هابطة اليـــه فورا ، فجلس على حقيبته ينتظر . وما لبث أن سمع مفتاحا يدور فى باب المطبـــخ والخادمة تقول :

ـ هذا أنت ؟.

ألقت الخادمة الصماء نحوه نظرة الشك والريبة . انها الوحيدة من بين الخدم التى تنام فى القصر ، أما الأخريان ـ وهما من بنات المزارعين ـ وأما الخادم ، فكلهم يقيمون فى القرية ويتناولون فيها عشاءهم .

انبهرت عينا جبرييل تحت تأثير الضوء الساطع وقال ان القطار تأخر ـ كما هى عادته ـ لمدة ساعة كاملة ، وانه لم يتناول عشاءه بعد وانه يشعر بجوع شديد . أسرعت الخادمة جير سانت تلقى شيئا من كيزان الصـنوبر ومن نشارة الخشب على النـار الهامدة فى المدفئة ، وهى تساءل نفسها : « ماذا سيأكل هذا الرجل ..؟ فلم يبق شىء كثير من الطعام ... » . انها تكره جراديز ولكن اطعـام مخدوميها كان دائما واجبها المقدس .

قال جبريل :

ـ أنا مطمئن تماما ... ستجدين شيئا آكله ...

جاءت العجوز بقليل من اللحم المحفوظ وبشيء من الدجاج البارد قدمته له وهى تقول :

ـ هذا كل ما بقى ... ولكن عظام الدجاج هى أحسن ما فيها.

أخذ جراديز يتناول الطعام فى بطء يغمره الشعور بالطمأنينة والراحة . ان باريس بعيدة عنه بكل ما فيها ... آلين ... والحياة القاسية ... والمطاردات المستمرة التى تلاحقه ... سأل الخادمة :

ـ لعل الجميع بخير هنا ؟

انطلقت جيرسانت تنوح : ان مسيو ديبا يشكو من الربو ... وقد ظن فى أول الأمر أن اصابته بسيطة لا خوف منها ... وما من أحد له القدرة على العناية به غير ابنته ... ان كاترين تتفانى فى تمريض أبيها ورعايته ... ما أشد هياجه وعصبيته فى هذه الفترة الأخيرة ، ما أكثر ثوراته ! انه الربو ... المرض ... سيسترد هدوءه حينما يراك ... لا ننتظر أحدا غيرك لاقامة العرس .

قالت جيرسانت ذلك وهى تدور حول المنضدة ثم أضافت فى صوت خافت كأنها تحادث نفسها :

ـ آه .. يا له من ماكر ..

توقف جراديز عن الأكل وسدد عينيه اليها وقال :

ـ ماذا تعنين بقولك هذا ؟ . الا يريد أن يزوج كاترين من الصغير ؟ .

ردت وهى تزوم :

ـ هل أنا قلت هذا ؟ . أبدا .. أنا لم أقل هذا ! .

عاد جبريل يسأل :

ـ وكيف حال أندريس ؟ .

ـ كما هو .. دائم الجرى وسط الغيطان .. لقد قام هذا الأسبوع بعد أشجار الصنوبر فى أرض جوانهو التى باعها مسيو ديبا الى موليير .. هاقد حضرت مدام ! .

هذه المرأة ذات القوام الممتلىء فى ثياب النوم البنية اللون ؟ انها ماتلد . شعرها الكثيف وقد رفعته على عجل الى اعلى راسها ؟ يضفى على وجهها طابعا قديما ويبرز جبهتها العريضة . خداها بهما اصفرار وعجف قليل ، ولكن رقبتها ونحرها وقد تكشف عنهما الرداء ، كانا فى بياض الزهر ، انتصب جبريل واقفا . انه وحده فى هذا العالم الذى يرى فى تلك المرأة الناضجة التى بدأ الثقل يزحف اليها ، الشابة النحيلة ذات القوام المشوق التى شغف بها من قبل .

انها ماتلد ، ولكنها فى نظره الآنسة دوبوش دائما . شعر وهو امامها بأنه عاد ذلك الصغير جرادير ، ابن القروى بيلوير ، ذلك الصبى الذى كانت اديلا وماتلد تناديانه باسمه مجردا من عبارات التقدير بينما هو لا يستطيع ذكر اسم احداهما الا مقرونا بكلمة « مادموازيل » احتراما وتأدبا .. قالت له :

ـ هل شبعت ؟ . اذا كنت لا تطمع فى النوم مبكرا فان من مصلحتنا أن نتحدث بجد منذ الليلة . فى استطاعتك أن تنسحبى يا جيرسانت ، ستنظفين الأوعية غدا صباحا ، لا تشغلى بالك بنار المدفأة ، سأغطيها بنفسى ، هيا ، عجلى بالانصراف .

كانت تلقى هذه الأوامر فى حزم وهدوء وقد تعودت على أن تطاع .

قالت لجبريل :

ـ اقترب من المدفأة ، لقد بدأت الليالى تبرد هنا .

لم تشعر بالاضطراب وهى الى جواره فى هذا المطبخ الواسع فى ليوجا حيث شاهدا كثيرا فى طفولتهما القدور النحاسية الكبيرة تغلى بما فيها من مربيات واطعمة على النار ، وحيثما كثيرا ماجرت معه يختبئان فى الأماكن الخفية بينما أديلا تفتش عنهما فى الحديقة وتصيح بهما : « ممنوع الاختفاء فى داخل البيت ! » فيضغط هو على يد ماتلد ويظلان هكذا فى صمت يخيم عليه الهناء .

لا . لم تعد تذكر شيئا من ذلك ، انها تسدد نحوه نظرة فيها الاهتمام بالموقف وعدم الاكتراث به هو ، لم يعد يوحى اليها بشيء حتى ولا بالاشمئزاز ، انه يود لو رآها ترتجف لذكرى ذلك اليوم الذي انبأتها فيه اديلا بخطبتهما ، ولكن ماتلد لم تكن من ذلك النوع من الناس الذى أوتى القدرة على اجترار الماضى واسترجاع الذكريات كما هو حاله ، ما هى الأسرار التى تلقتها من أديلا وهى على فراش الموت ؟ لاشك ان هذه الأمور كلها لم تمح تماما من فؤادها وانما دفنت فى أبعد أغوار نفسها ، فأصبحت شيئا ملغيا ومنقضيا ، شيئا ميتا ، أما ماله وزن فى نظر هذه المراة فهى الأشياء الحاضرة والأشخاص الحية .

ـ لقد أحسنت بمجيئك .. ولكن اياك والمناورات الكاذبة !. ما أكثر ما تكلم سيمفوريون فى الفترة الأخيرة عن رغبته فى عقد الخطبة ، ولكن ذلك يبدو لى مريبا ، انه بادى الانشراح ولكن سروره فيه شيء لست أدرى كنهه .. شيء يثير الشك والخوف.
ـ ان مرضه شديد ..

ـ نعم ، حقا . ولكنى أسأل نفسى أحيانا .. لقد قرأت أخيرا فى الصحف قصة غريبة عن رجل مخادع يتظاهر بما ليس فيه .. يبدو سيمفوريون ، فى بعض الأحيان ، أصم لا يسمع فنضطر الى الصراخ أمامه والزعيق لاسماعه واذ به فجأة يسمع ما نهمس به ، ان الشلل النصفى الذى أصيب به لا يسمح له بالسير ومع ذلك نراه فى بعض الأيام يجرى كالفأر فى غرف البيت ، ان مرضه فى الواقع هو الربو واجهاد القلب ، لا شيء غير ذلك . نعم ، ان الدكتور كليراك يعوده بطبيعة الحال . ولكن ، ماذا أقول ؟ لقد تسلط على الدكتور كليراك بعد أن أنقذه من ورطة فيها كثير من الريبة تدور حول حالة من حالات اصابات العمل . فى اعتقادى أنه يملى بنفسه على الدكتور كليراك الوصفات التى يصفها له ، لست أرى ، من جهة أخرى ، ما الذى يحمله على الممانعة فى عقد زواج أندريس مع ما وصلت اليه الأوضاع الآن . انه جد عنيد فيما يتعلق بغريزة التملك وهو لذلك يصر على

الحصول بأن ثمن ، وفي حياته ، على مؤرغتي سرنيس وباليزاو ؟ انه لا يكف عن القول انهما آخر ما يطمع فيه من أملاك . وانهما الوحيدتان اللتان تنقصانه ليكتمل سلطانه ، وانهما أجمل جوهرتين فى تاجه وهكذا .. لقد أصبح مصابا بجنون حقيقى من هذه الناحية .

كتم جبرييل تثاؤبه وقال :

ـ اذن ، يجب اتخاذ قرار نهائى ..

ـ نعم ولكن بشرط أن تطلب منه التوقيع على عقد الزواج فى اليوم نفسه ..

راحت ماتلد تنظر الى النار فى المدفأة وتدلك بيديها ركبتيها فى حركة آلية بينما أحس جبرييل بأنفاس برجير الدافئة على يده دقت الساعة دقات خفيفة ، ما أبعد باريس الآن ! وما أبعد آلين ! .. من خلال المدفأة يصل اليه صوت الأنين الطويل المنبعث من الرياح وهى تمر خلال أغصان الصنوبر .. أنين رتيب ، لايعلو ولا ينخفض وإنما يندمج مع الصمت ويتلاشى فيه .

ـ اسمع يا جبرييل ...

انتفض جبرييل عند سماعه صوتها ، منذ لحظة لم تخفض ماتلد نظرها عنه ، عقدت فوق ركبتيها يديها الجميلتين الكبيرتين قليلا بينما انكشفت أكمام ردائها عن ذراعيها القويتين ، قالت :

ـ أقسم لى انه لم يعدك بعمولة ، وبما يكون ، بما جبل عليه من بخل ، قد وعدك بمبلغ كبير لاتمام عقد هذه الصفقة ، وفى هذه الحالة نكون مخدوعين .

أكد لها جبرييل فى صوت رخو ان ديبا لم يعده بشىء .

ـ هذا كلام صدق على الأقل ؟ أنت لا تكذب ؟ .

شعر جبرييل بالاهانة وأراد أن يثور لكرامته ، ولكن ماتلد هزت كتفيها وهى تقول :

ـ لا ، يا صديقى ، لا .. لا تحاول معى ذلك .. لا فائدة ..

واذ قال متمتما :

ـ هل تحتقريننى ؟ هل تكرهيننى ؟

قالت وفى صوتها نبرة الاستخفاف والهزؤ :

ـ يالها من كلمة كبيرة ! انها كلمة تصلح للباريسيين. أما هنا فلا يوجد حب أو كره أو احتقـار . هنا يوجد اهتمام بالأملاك ، وبالدواجن وبالخنازير .. أما كل ماعدا ذلك .. فلا يعنى شيئا.

لقد عاكسته من لحظة ، وهاهى الآن تثير حنقه ، وهو لايدرى لذلك سببا . قال لها :

ـ أهذا كل ما يملأ حياتك هنا ؟ أليس لك شىء آخر ؟ .

ـ اى شىء ؟ .

ـ اندريس ، مثلا ..

ارتسمت على وجهها ابتسامة مبهمة وقالت :

ـ طبعا ! هذا صحيح .. انه ابنى أكثر منه ابنك أو ابن اديلا ألم تعطه انت لى ؟ نعم ، عندى هذا الصبى .

عادت فجلست للتحدث عن اندريس وامتلأ وجهها سعادة ، السكوت شـامل لا تقطعـه الأصـوات الهائلة المنطلقـة من غابات الصنوبر ، ولكن غرفة المطبخ العظيمة هذه التى يفوح فيها العبيق لم تعد توحى الى جبرييل باحساس الطمأنينة ؛ هـل هو بمأمن فيها ؟ .. كأن شـخصا دخل اليها فجأة على الرغم من البـاب المغلق .. شخصا قطع المسـافات الطويلة بعـد أن افتقده فى باريس وجاء يلاحقه هنا .. ربما عاد هذا «الشخص» يقتفى أثره ثانية فى هذا المـكان السحيق . هـل هو هنا ؟ هذه هى برجير ممـددة على الأرض وأنفها بين ذراعيها ، وهـذه هى كتل لحم الخنزير المقدد تتدلى من أخشاب السـقف ، وهذه هى الأوانى النحاسية اللامعة تبرق على الأرفف المغطاة بالورق المخرم ، لا لم تعد هذه الحجرة ذلك المرفأ الأمين الذى وجد فيه المأوى والهدوء فى الزمن الغابر ، لقد تكدست فيها فى لحظة واحدة جميع أنواع الهموم اليومية وجميع ألوان القلق القاتل التى تتكون منها حياته لو أن صوت أقدام انبعثت من الطرقة الخارجية . لو أن يدا دفعت بهذا البـاب .. لمـا دهش لرؤية آلين تدخل عليه ملفوفة فى

ردائها الفرو البالي العتيق حول جسمها الممقوت ، لقد انقلب كل شيء في مخيلته وتغير كل شيء في تفكيره من غير أن تشعر ماتلد بذلك ، انها تتسلى لاهية بتقليب خاتمها في اصبعها وقد كشفت عن ذراعها حتى المرفق .

ـ هل أنت واثقة ، يا عزيزتي ، انك تعملين من أجل هناء اندريس ؟ .

نظرت اليه في دهشة وقالت :

ـ بلا شك ! ولكن لماذا تسألني هذا السؤال ؟ .

ـ لأنك لا تهتمين بالبحث عما اذا كان أندريس سيسعد بزواجه من كاترين ، لم أرد أن أمس شعورك .. ولكن ابنتك ..

انطلقت تقول وهي تضحك :

ـ أوه .. انك لا تمس شعوري في شيء ، ان كاترين دميمة فلنقلها صراحة .. ولكنها ليست غبية ، وربما كانت منطوية ، مكتئبة لا أثر فيها للمرح والانطلاق .. ولكن هذا لا يمنع بأية حال أن تكون هي الزوجة التي تلزمه .. هذا أمر اتفق عليه منذ زمن بعيد ـ ان أندريس يحب الأرض أكثر من أي شيء آخر . وليس في حياته ـ بعد فريق كرة القدم الذي يرأسه ـ غير الأملاك . في بلادنا هذه لم يطلب الرجال أبدا من النساء ان يكن خارقات الظرف والجمال مادمن يربين الأطفال ويتحلين بالنظام والنظافة . لست أنكر أن من هذه الناحية ما زالت كاترين في حاجة الى تعلم الكثير .. وهي لا تحب الحيوانات ولا تهتم بحظيرة الطيور .. ولكنها كلها أمور ستأتي فيما بعد .. وعلى كل حال سأكون أنا الى جانبها .

ـ نعم ستكونين الى جانبها .

ـ طبعا سأكون الى جانبها .

ثم قالت في لهجة جافة :

ـ ماذا تعني ؟ وضح لي فكرتك . هل تخشى أن اقلق بوجودي هناء الزوجين الشابين ؟ هل تظن أنهما يميلان الى الخلوة ؟ اطمئن ..! انهما يعرفان بعضهما منذ الطفولة ولم تتعرض

حياتهما لقصص الغرام . ما من احد هنـا يعرف هديل الحمـام ولا مناجاة المحبين ، فهى أشياء مجهولة ، لن يتبدل من ذلك شىء.
ــ سوى انهما سيرقدان فى غرفة واحدة .
ــ بطبيعة الحال .
ــ وفى فراش واحد .
كررت عبارته فى لهجة التأكيد فقالت :
ــ طبعا فى فراش واحد .. آه ، كم انت معقد بالنسبة لنا !

ألقت بهذه العبارة الأخيرة وفى صوتها ما يشبه المزاح ولـكن جبريل أحس بها تتألم كما لو كانت حمامة برية بين يديه وقـد ضغط عليها بشدة . قال لها :

ــ يا صغيرتى ماتلد ، هل تحاولين الظهور أمامى بمظهر المرأة البسيطة ؟ .
نهضت واقفة فجأة وقالت :

ــ هـــذه كلها قصص وحكايات .. الا تذكر أن أمى كانت تسميك وأنت بعد صبى صغير « قائل الكلام الفارغ » . هيا .. مر أمامى سأطفىء النور ..

فى لحظة غمرت الظلمة المكان ولم يبق به غير الضوء الخافت المنبعث من المدفأة ، وقد أخذ يلمع وينطفىء على الأوانى النحاسية ولم يكن يسمع غير صوت خبطات ذيل برجير على بلاط الأرض . وفى الدهليز الذى تملؤه رائحـة الطعـام والملح ، كان المشجب محملا بالمعاطف وقبعات الشمس ، وفجأة التفت جبريل وقال :
ــ وكاترين ؟ .
ــ ما لها ، كاترين ؟ .

ألقت ماتلد هذا السؤال فى ضيق ، كأنها شـــخص يتعجل الذهاب الى فراشه .
ــ هل هى سعيدة ؟ .
ــ كيف لا تكون سعيدة ؟ والا فعلى الدنيا العفاء !
ــ هل سألتها عن ذلك ؟ .

ـ لا حاجة بي أن أسألها .. انها تنتظر هذا الزواج منذ أن رأت النور .. كيف تشك في انها سعيدة بزواجها من اندريس ؟ هل جننت ؟ ..

ـ كيف حالها مع الصبي ؟ . اعني .. كيف موقفها منه ؟ .

ـ انهما معا كما كانوا دائما . لقد أصبحت في منتهى الغباء يا صديقي المسكين ! صعدا السلم على أطراف أصابعهما . قالت له :

ـ اياك أن تحدث جلبة ، ان سيمفوريون نومه خفيف . اما اندريس ... فان البيت ليتهدم على من فيه ، فلا يستيقظ لذلك

ـ أمازال كما كان . ينام في الحجرة الخضراء ؟ ما دمت لن أوقظه فسأذهب لاقبله .. هلا دخلت معي ؟ .

كان اندريس قد ترك باب غرفته مفتوحا .

قالت ماتلد هامسة :

ـ انتظر حتى أضيء المصباح المجاور لسريره .

الستائر ذات النقوش الحمراء والخضراء تحيط بالسرير الكبير الذي يرقد فيه اندريس . لم ير جرادير في أول الأمر غير الغطاء الضخم المنتفخ بينما جو الحجرة المختنق يزكم انفه . قال في ضميره : « ياله من فلاح ! .. انهم لا يفتحون النوافذ ابدا في الليل هؤلاء القرويون ... »

قالت ماتلد بصوت خافت وهي تزحزح الغطاء :

ـ انه يثقل الغطاء . عادة تعودها من صغره .. لابد انه عائم في عرقه ...

نظر جبريل الى ابنه النائم أمامه . رأى وجهه الأحمر وقد زادت من حمرته لحيته الكثة السوداء . كان رداؤه قميصا محلى بالرسوم المشغولة على الطريقة القديمة . وكانت جبهته المبتلة بالعرق تلمع لمعانا شديدا . قال جبريل في سره : « صورة حية لأمه .. ولكنه جميل .. » . تحرك اندريس وأرسل يده تتحسس الغطاء لتجذبه عليه .

قالت ماتلد فى تلك اللهجة المريحة التى تتكلم بها الأمهات وهن يضفين أهمية كبرى على كل ما يتعلق بأبنائهن :

ـــ انه على عكس ذلك تماما فى الصيف ، فلا يطيق الأغطية مهما خفت . وكثيرا ما أقوم من نومى لأضع الغطاء عليه لأن الطقس هنا حتى فى شهر أغسطس يبرد جدا قبل شروق الشمس بسبب جدول الماء .

ـ عما قريب ، لن تكون بك حاجة لأداء هذه المهمة .

خرج جرادير من غرفة ابنه وقد انتشر ضوء القمر على السلم فأضاءه وأضفى لمعانا على حافته من غير ان ينفذ الى داخل المشى الذى ظل معتما كفوهة النفق . قالت ماتلد

ـ ما أجمل هذا الليل .. ! لا حاجة بنا لأن نضىء النور .. ما الذى كنت تقوله ؟ .

ـ كنت أقول انك ، قريبا ، ستعفين من مهمة القيام فى الفجر لتغطية أندريس .. فهو لن يكون وحيدا .

راح يتطلع الى أثر كلامه هذا فيما تجيب به ماتلد ولكنه لم يلحظ أقل تغيير فى صوتها حين قالت :

ـ نعم ، فى الأيام الأولى لزواجه يجب على أن أحرص على عدم الدخول هكذا فى غرفته . انها عادة يجب أن أتعودها .

قال جرادير

ـ يجب عليك ان تضحى بشىء .

فردت عليه وهى تضحك :

ـ أوه ، لن يكون ذلك تضحية حقيقية ، انى مازلت أعامله كما يعامل الصبى الصغير ؛ لقد حان الوقت الذى ينتهى فيه ذلك .

ـ لابد انه على هذا الرأى أيضا . أخشى أن يكون فى معاملتك له على هذا النحو ما يضايقه بعض الشىء .

قالت محتجة بقوة :

ـ أما عن هذا ، فلا . انه ما زال صبيا على الرغم من سنيه الاثنتين والعشرين ، ولم تغير الخدمة العسكرية منه شيئا .

ثم أضافت فى كلمات سريعة :

ـ اظن انه مازال طاهرا حتى الآن .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟ .

ـ لم يبح لى بشىء حول هذا .. ولـكنى استنتجته من بعض مظاهر البراءة التى يبديها .. عجبا .. أليس هذا منه غريبا مع ما هو عليه أبوه ؟ .

كان جرادير يرقبها بعينيه الزرقاوين ثم قال :

ـ بل لعلك أنت البريئة .. شاب فى الثانية والعشرين من عمره !.. لن تكونى أنت الا آخر من يبوح له بأسراره .

قاطعته قائلة :

ـ انى لا أقول هذا عبثا . واذاكنت أؤكده فلأنى متأكدة مما أقول ، هل تزعم انك تعـــرفه أكثر مما أعرفه ؟ على أن شيئا ما لا يخفى هنا فى ليوجا . ولو كانت له اية علاقة لبلغنى ذلك فى اليوم نفسه .. ولـكنى أقسم لك انه لا يفكر فى هذا أبدا . ان الرجال الذين على شاكلتك لا يمكنهم أن يتصوروا وجود أشخاص ليست لهم عيوب الوحشية .. ليست فيهم صفة الـكلاب ..

ـ ما هذا الـكلام القاسى يا ماتلد ؟ لم يكن فى نيتى ابدا أن أغضبك ..

ردت عليه فى غيظ قائلة :

انت لا تغضبنى . وما الذى فيـــك يغضبنى ؟ هيا ! لنـــذهب الى النوم ، فهـــذا خير من البقـــاء هنا نتبادل الآراء السخيفـــة . أمازلت تريد الشاى فى الصباح كالعادة ؟

ـ لا . لا أشربه هنا حيث للماء طعم الطين والجرار ، وطعم القهوة الماسخة باللبن ، كما هو طعمكم جميعا .

من نهاية المشى المظلم ارتفع صوت رفيع بعث فيهما رعدة :

ـ انكما تتكلمان بصوت عال . لقد أيقظتما أبى ..

قالت ماتلد بلهجة فيها انزعاج :

ـ هذه انت ياكاترين ؟ هل لك زمن طويل هنا ؟

ردت الفتاة قائلة بعد أن اقتربت :

ـ ان ابى هو الذى سمعكما . اتريدان الضوء ؟

بهر النور اعينهما . واخذ جرادير يتفحص الفتاة بنظره وهى تضم من البرد رداءها حول جسمها . انه رداء مشابه لما ترتديه امها وقد حيك من نفس النسيج الصوفى البنى . لم تكن عيناها السوداوان السريعتا الحركة فى حيوانية ظاهرة لتضيئا العظام الناتئة فى وجهها بينماشعرها الكثيف الداكن المجموع خلف ظهرها فى ضفيرتين مشدودتين يكشف عن جبينها الضيق . أنها من بنات اللاند اللواتى يشبهن فصيلة الدجاج الأسود الصغير التى اختصت بها هذه المنطقة . نظرت اليها امها فى قلق وقالت لها :

ـ لقد كنت تتسلين بالتسمع علينا . اليس كذلك ؟ على أن الأمر ليس فيه ما يهم ...

رفعت كاترين كتفيها قليلا واخذت تسدد النظر الى طرف شبشبها المثقوب الذى برز منه أصبع قدمها وتعبث بالشريط الباهت المجدول فى أحدى ضفيرتيها . ثم فجأة قالت لجبرييل :

ـ ابى ينتظرك غدا صباحا .. بمجرد أن تصحو من النوم .. لقد سر كثيرا لقدومك .

ـ وأنت ياصغيرتى كاترين ؟ هل انت مسرورة أيضا ؟

أتت باشارة تدل على أن عواطفها هى لا تعنى أحدا وقالت :

ـ أوه ! .. أنا ..

ذاب ظلها الضئيل فى الممشى المعتم وانتظرت ماتلد كما انتظر جرادير الى أن أغلقت الفتاة باب حجرتها الموصلة الى حجرة أبيها ثم سأل جرادير :

ـ هل تعتقدين انها سمعت حديثنا ؟ .

ـ يحتمل . فهى دائما تتسمع ودائما تتلصص . لقد دربها أبوها كما درب برجير ..

ـ زوجة لطيفة لأندريس . اليس كذلك يا ماتلد ؟..

ـ الزوجة التى تصلح له بالضبط .

قال جرادير فى صوت عذب :

ـ هذا صحيح . انها ستعبده . ستجن به .

ألقت عليه ماتلد تحية جافة ودخلت الى حجرتها ؟ سمعها

جراديو بشد المزلاج لتحكم اغلاق بابها ، وكان ما زال يضحك وهو يدخل الى غرفته .. غرفة اديلا السابقة .

صورتها تزين المدفأة وقد استندت الى اناء صغير حرصت ماتلد على أن تجدد فيه الزهور اليانعة دائما ، كف جراديو عن الضحك وجلس على حافة السرير يجيل نظره فى الجدران .. صور بشعة بالطباشير من رسم الجد دوبوش ، ورسمان بالماء لأحد القديسين ولبحيرة واسعة ، ثم معبد كامل به صور القلب المقدس والعذراء وغيرهما وصليب كبير من النحاس تتدلى منه تلك المسبحة المصنوعة من نويات الزيتون التى باركها البابا بيوس التاسع والتى كانت تعتز بها اديلا كثيرا ، شعر جراديو بالهدوء يغمره مرة اخرى ، انه لم يشعر ابدا وهو فى غرفة اديلا بحمى ذلك الوجود الخفى الذى يرعبه فى باريس ولم يسمع أبدا فيها أنفاس العدو المتلصص الذى يتبع خطواته ، وقف فجأة وذهب الى الخزانة ففتحها فانطلق من بابها أزيز ، تناول من أعلى رف فيها تلفيعة قديمة من الصوف الاحمر واقترب بها ، لا من فمه ، ولكن من أنفه ، انه يتشمم كل شيء كما تفعل الكلاب ، عاد الى حافة السرير فجلس عليها واضعا تلفيعة اديلا الحمراء على ركبتيه وتعلق بكلتا يديه فى هذا الأثر الدارس . أخذ القمر يميل وانتشر الضباب على الحقول يغطيها ولم يبق فى ليوجا كائن حى لم يهجع الا جبرييل جراديو .

- ٤ -

هناك رجل آخر لاينام فى البيت الحقير الذى يسكنه القسيس انه لاينام على الرغم من أن عينيه مغلقتان ، حول السرير الحديدى الصغير ، انتشر نور القمر المتسرب من خلال زجاج النافذة وأظهر الفوضى السائدة فى الحجرة الواسعة العارية ، على المنضدة أكوام من الأوراق المبعثرة تلمع ، وعلى الأرض وحشان هاجعان لا حراك بهما ، انهما حذاءا القسيس وقد اثقلهما الطين العالق بهما ، على أحد المقاعد القى قميص من الصوف ومعه المسوح ، وعلى الجدران الجرداء رسمت الرطوبة فى ضوء القمر كثيرا من القارات

والجزر ، تنبه الأب فوركاس الى الضوضاء الهابطة اليه من الطابق العلوى ، انها أصوات الفئران تتسابق وتقرض كل ماتصل اليه أسنانها وتطلق أصواتها القبيحة ، لم يكن يفكر فى الفئران وانما فى الأعشاب وأوراق الغار التى تغطى مدخل داره ، لماذا لم يكنس ذلك كله ؟ ما زال فى الليل متسع ليزيل آثار هذا العبث السخيف .

فى مساء الليلة السابقة ، وهو ينهى صلواته المعتادة ، سمع تحت نافذته ضحكات مكتومة ، فاقترب فى حذر يتبين الخبر . رأى كل شىء وفهم كل شىء .. ركبه غيظ شديد ، غيظ ابن السادسة والعشرين الذى امتلأت عروقه دما حارا . لاشك انه موليير أو لعله بارديو ، ابن النجار ، هو الذى فعل هذه الفعلة الشنعاء . وربما دفعته الى ذلك بعض الفتيات ؟ فتاتان أو ثلاث فتيات هن اللواتى يكرهنه ، هو الشاب الذى لا رفيق له وقد حومن حوله مرارا بلا جدوى .

هبط السلم مسرعا ووضع يده على قفل الباب ، ولكنه تردد لحظة ثم سحب يده وعاد الى حجرته حيث خر ساجدا يتضرع الى الله كما لو كانت الرغبة فى ازالة آثار هذا العبث وسوسة من عمل الشيطان ، جال بخاطره سؤال : أليس من واجبه على العكس أن يحول دون الفضيحة التى سوف تحدث فى الصباح الباكر ؟.. ثم سمع هاتفا يقول له : « أنا لم أخش الفضيحة حينما جردت من ثيابى ، وعلقت عريانا على الصليب ، ورشقت المسامير فى جسدى العارى .. ليس عليك أن تفهم وانما عليك أن تشبهنى .. » .

قال الان فوركاس :

ـ هأنذا أحدث نفسى .

وفى الحال صمت صوت الهاتف .

خلع ملابسه فى انفعال شديد والقى بمسوحه بعيدا عنه ثم عاد فالتقطه بكلتا يديه وفى خشوع طبع شفتيه عليه ووضعه باحترام ، ها هو قد عاد شابا ، فجأة ، شابا ككل الشبان . كان

يبدو أقل جسما مما هو حقيقة بسبب جذعه الطويل وساقيه القصيرتين ووجهه العابس وقصبة أنفه التى انتشرت عليها الندب الحمراء وجبهته الضيقة التى تشبه جبهة الثور الصغير ، كل ذلك لاينم عن شيء من الملاحة وانما عن الكثير من القسوة والجبروت ..

استلقى فى فراشه مديرا وجهه ناحية الحائط وقد لف مسبحة على يديه ، اذ لم يستول عليه النوم فى الحال .. فليكن ما يكون .. انه سيقوم لفوره ويذهب لازالة ما تراكم أمام بابه .. ما الذى يدعوه الى الخضوع دائما والتسليم بلا معارضة ؟ لقد كان الواجب يفرض عليه أن يعصى أمر رئيسه وأن يرفض ترحيل أخته توتا .. بأى حق يجوز لانسان أيا كان أن يحرمه من الابقاء على أخته الى جواره ، وهى وحيدة بائسة ؟ لقد عادت المسكينة الى باريس خاوية الوفاض مقضيا عليها بأن تحيا حياة البؤس والفاقة . أخذ يتضرع الى الله بصوت خافت :

ـ انها ضائعة ، يا الهى ، هل تسمعنى ؟ . انها ضائعة ..
ثم اتجه بتفكيره نحو رئيسه الدينى وقال :
ـ رجل قديس . نعم ، انه قديس ولكن بلا قلب ، من النوع الذى لا قلب له ..

راحت شفتاه تضطربان فى صلاة صامتة واذا باسم امرأة يتردد على لسانه مرات متتاليه : .. مريم .. مريم .. السلام عليك يا مريم ..

عاد طفلا كما بدأ ، يدفن وجهه فى كتف امرأة ، ويغلق عينيه اذا هدهدته امه بين ذراعيها .. شيء واحد فقط استولى على انتباهه : ان يبقى حيث هو والا يضعف أمام الرغبة فى النزول وفتح باب داره وازالة الاعشاب المتراكمة أمام الباب . يالها من رغبة بسيطة يستطيع أى رجل أن يخضع لها فى يسر وبلا عناء !. نعم ، أى رجل غيره . اما هو فمهمته معروفة : ألا يلتفت برأسه أبدا .. والا يرفض شيئا أبدا ..

اما ماعدا ذلك من مهام فقد فشل فيها جميعا . فلا لدى الشبان صادف قبولا ولا لدى الكهول وجد أذنا صاغية . ولم

يكن ذلك من أولئك وهؤلاء انصرافا أو جهلا ، كلا .. بل كراهية مسمومة عند البعض ، مع احتقار راسخ يرجع الى عشر سنوات مضت منذ أن توالى على رعاية القرية قسيسان من الشبان ولطالما استغل الناس هنا صغر سنه وعدم خبرته وأبرزوا عيوبه التى لم تصقلها السنون بعد . ولطالما سخروا من ميوله وانعطافاته نحو هذا أو ذاك من رعاياه او نسبوها الى احط الدوافع وادنأ الأسباب . وقد ظل على تلك الحال الى أن اتت اخته لتقيم معه فانقلب استخفاف الناس الى كراهية وتحولت سخريتهم الى اضطهاد مكشوف . وكثيرا ما حدث نفسه قائلا : « انت فى كل شىء فاشل ولست تصلح لشىء الا للتحمل .. فتحمل .. »

لعل فى استطاعته أن يعنى باطفال القرية .. الاطفال القلائل فى ليوجا .. ولكن القوم انسحبوا باطفالهم فى اليوم نفسه الذى أدى فيه الصغار المناولة الأولى . لم يبق منهم واحد الى جواره وهل منهم من يستطيع التحدث اليه أمام الملأ ؟ .. ولكنه كان يقول لنفسه : « لاتشكو .. فكم من القساوسة لايجدون طفلا واحدا لمساعدتهم فى خدمة القداس .. اما أنت فلديك الصغير لاسوس » انه صبى مجهول الأب تعمل أمه خادمة فى أحد منازل بازاس ولم يجد من يأويه غير عمة له فقيرة .. لاسوس هذا هو الذى سيقوم ، بعد لحظات ، بدق الجرس مؤذنا بصلاة الصبح ، وحينما يدخل القسيس الى الكنيسة سيرى أول مايرى زوجا من الاحذية الخشبية الى جوار الباب وهناك ، على مقربة من المذبح ، الرأس الصغير المحلوق بين الاذنين الناتئتين .

يجب عليه قبل أن يصل الى باب الكنيسة ، ان يمر بقدميه على الأعشاب الدنيئة المنثورة امام بابه وان يخترق الميدان تحت نظرات الشماته والحقد . أنهم جميعا يعيشون عيشة التيوس الشابقة ، وهو وحده ، بسنواته الست والعشرين ، يعيش وحيدا فريدا ، وحيدا فى الصباح والمساء ، وحيدا فى الليل . اهل القرية لايتردد عليه منهم أحد الا القليل والقداسات التى يقيمها كل صباح لا يحضرها أحد . كلا بل يحضرها ذلك الطفل الصغير

الذى يردد صلواته كما تحضرها من وقت لآخر العمة لاسوس العجوز .

ماذا تفعل توتا فى تلك اللحظة ؟ هل هى ما زالت تجرجر أقدامها فى طرقات باريس ؟ تلك الأعشاب المنثورة أمام الباب .. سينهض من نومه مبكرا عن كل يوم ولن يوجد فى الميدان انسان يشهد آثار الفضيحة ويرى علامات الخجل على وجهه . بعد أداء القداس وفى الفترة التى يختتم فيها الصلوات سيتوجه لاسوس الصغير الى عتبة البيت يكنسها ويزيل ما يشينها . هبطت أنفاس الان قليلا وأخذ الكرى يزحف الى جفنيه فى بطء . لم ينظر اليه أحد من قبل وهو نائم . انه شاب مثل كل الشبان ، بوجهه الذى بدا عليه الانهاك قبل الأوان وبفمه الرقيق .. انه صبى مسكين ، ولكن يديه المحملتين بالأسرار الدينية تشابكتا متصالبة على صدره وقد تجمعت فيهما أضواء الليل جميعا .

***

صلاة الصباح ! . لقد أراد أن ينهض قبل بزوغ الفجر .. ها هو النهار قد بدأ .. سيراه القوم .. سينتظرون خروجه من البيت .. جرى الى النافذة وفتحها . الحمد لله .. ضباب كثيف ، يتخلله صياح الديكة ، انتشر على العالم وحجب كل شىء . عربة تسير متهالكة على مرمى حجر ومع ذلك لا يراها .. سيغطيه الضباب كأنه يد الله بسطت عليه . سيحلق ذقنه بعد انتهائه من القداس على الرغم من كونه من هؤلاء القساوسة الذين لا يقربون المذبح الا وهم متطهرون . انه على عجل قبل أن تبدد الشمس بأشعتها الضباب المتراكم وقبل أن يقبض الله يده عنه .

كان الضباب يتمزق عندما فتح باب بيته . فجأة رأى درجات السلم العتيق نظيفة وقد بللها الندى . راح يتأملها وهو يخشى أن يمد اليها قدما . المكان كله ليس فيه عود واحد من المشب أو ورقة واحدة من أوراق الغار . لا بل هناك ورقة واحدة ، بين الحجر والحائط ، ظلت أثرا يؤكد للقسيس أنه لا يحلم . التقطها وفركها بين أصابعه . انه لاسوس الصغير بلا شك الذى فعل

ذلك . وصل الان فوركاس الى الكنيسة من غير أن يصادف أحدا فى الطريق ، فأدى صلاة قصيرة عند درجات المذبح . وعند سماع خطواته قام الصبى فى الحال وتقدمه الى داخل الهيكل . لم يكن من عادة القس أن يوجه للغلام كلاما قبل أداء القداس . أما اليوم فقد مسح بيده على الرأس المحلوق وابتسم لهذا الوجه الضامر الذى ترتسم عليه أمارات الجوع .. قال له :

ـ لم تجد الوقت الكافى لتغتسل هذا الصباح ، يا جاكو ؟ .

احمر وجه الطفل خجلا وقال انه خشى ان يتأخر عن واجبه .

ـ أنا أعرف ما الذى أخرك .

قال انه مرض عمته وسهادها لأنها أصبحت لا تستطيع الحركة .

ـ وخصوصا انك أديت عملا شاقا أمام باب البيت ؟ . أليس كذلك ؟ .

أى عمل هذا الذى يتكلم عنه السيد الراعى ؟ . انه لا يعى منه شيئا . لا .. انه لم يمر هذا الصباح أمام بيت القسيس وانما اختصر الطريق ومر من خلال حديقة دوانس كما يفعل دائما كل مرة يتأخر فيها عن موعده المعتاد .

ليس هذا الصبى اذن هو الذى أتى هذا العمل . هل فى ليوجا انسان كريم آخر فى قلبه شفقة ورحمة ؟ هل هو احد رعاياه رق لحاله ورأف به ؟؟ « من يدرى لعله يكشف عن نفسه ؟» أيا كان الأمر فان صلاته اليوم ستكون من أجل هذه النفس الطيبة . كانت هذه الأفكار كلها تدور فى ذهنه وهو يقترب من المذبح المقدس الذى تجمعت فيه ، وسط كل ما يعانيه ، الأسباب التى تدخل السرور على شبابه .

عاد وهو يسير ببطء لأن لاسوس الصغير كان يمشى الى جانبه وئيدا وحذاؤه الخشبى يطرقع تحت قدميه . وكان عليه أن يضبط خطواته على خطو الصبى الذى كان لايكف عن الكلام . اخذ القس ينحنى على لاسوس ليسمع ما يقول وقد ملأ قلبه الهدوء والسلام . لقد بدأ يومه بما فيه من مهام وواجبات عليه أن يؤديها . سيحاول

المرور على المرضى لزيارتهم وهو يعلم سلفا نوع الاستقبال المزرى الذى سيستقبل به فى كل مكان . ولكنه يشعر نفسه بالشجاعة والقوة على تحمل الاهانات التى يتعرض لها . لا يخيفه شىء الا الضربات المجهولة . وقد عرف بالتجربة ان السرور الذى يغمره بعد خروجه من القداس انما هو نذير بان هناك فخا ينصب له فى مكان ما . اعترف فى قرارة نفسه بأنه انما قرر القيام بزيارة المرضى لاحبا فى التضحية ولكن اتقاء لاحدى هذه الضربات المجهولة .

هاهو الصمت الداخلى ينحسر من قلبه وينسحب لتعود الحياة فتغمره من كل جانب . انه متيقظ متنبه لما قد يأتى اليه من جهة لايعرفها .

ان القوم لم ينثروا الأعشاب والأوراق أمام بابه من أجل لاشىء .. هذه الاهانة لابد مرتبطة بعمل آخر لاعلم للقسيس به . أسرع السير وهو يخترق الميدان . هذا هو المدرس واقف على سلم دار الشرطة يتحدث مع نائب العمدة . القى القسيس بتحية الصباح، فلم يردها الا المدرس برفع يده الى قلنسوته وأخذ يسر شيئا فى أذن محدثه وهو يضحك . عندما وصل الراعى الى بيته شعر بما يشعر به الثعلب المطارد عندما يقترب من جحره . فى تلك اللحظة سمع لاسوس الصغير يتحدث عن مدام ريفو ـ وهو اسم اخته التى جلبت له ، بوجودها الى جواره ، كل هذه المصائب ، قال الصبى :

ـ أما عن وجودها فى الفندق فى بلدة لوجدونوس .. فهو أمل محتمل لقد رآها هناك ثلاثة أشخاص على الأقل يوم السوق ... وهناك من يزعم أنك تذهب الى هناك لرؤيتها .. وانهم رأوك فى الملابس المدنية .

تنهد القس وهو يخرج من جيبه مفتاح البيت وقال :

ـ ماهذه القصة الجديدة ....؟ اختى فى باريس .

ما أن لفظ هذه الكلمات القليلة حتى تذكر أن أخته لم تكتب له كلمة واحدة منذ أن فارقته وان لادليل لديه على أنها قد توجهت رأسا الى باريس . ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله وحدها فى لوجدونوس ؟.

صاح لاسوس الصغير يقول :

ــ هذا خطاب القى من تحت عقب الباب .

وامتدت يده البريئة الى الراعى بمظروف أصفر . الآن يعرف ما فى المظروف وكان فى استطاعته أن يمـزقه من غير أن يقراه . ولكنه أخفاه فى جيبه بينما انصرف الغلام الى اعداد القهوة . انتظر الى أن انفرد بنفسه وفتح الغـلاف : « لقد رآك اهــالى اوجدونوس كلهم ، أيها المخادع ، أيها القذر ، يوم الجمعة المـاضى فى الساعة السابعة ــ لقد كان موظف محل توال فى الحجـرة المجاورة لحجرتكما .. وربما لم ير شيئا .. ولكنه سـمع كل شيء » ... كان الألم يخنقه أمام هذه الاتهامات اللئيمة فيتوقف برهـة ثم يعود فيلتقط أنفاسه ويعاود القراءة .

ــ ٥ ــ

لم تستطع ماتلد النوم تلك الليلة . لقد نفى عن عينيها الرقـاد خليط من الهموم تجمعت فى صدرها : زواج أندريس وبيـع سرنيس وباليزاو وأسباب أخرى كثيرة للقلق . ان هواجس الليل لاتأتى فرادى أبدا وانما تتراكب وتمتزج كأنها الحان اختلطت فى سيمفونية معقدة . هل سمعت كاترين مادار من حديث بين أمهـا وجبرييل ؟ ماهى اللحظة التى بدأت فيها الفتاة تتسمع فى الدهليز ؟ راحت ماتلد تحاول تذكر ماقالته عن الصبية ، قالت لنفسها : «هل كانت هناك عندما صرخت ــ لقد صرخت فعلا ــ أقول أنى أراها دميمة ومنطوية وكئيبة .. هل ياترى سمعت ذلك ؟ انه لمن اكبر الضرر ان تسمعه .. »

على أن هذه الهواجس لم تكن أسوأ ما يؤرقها . لقد تمكنت ماتلد من اخفاء الاضطراب الذى أحدثته فى نفسها كلمات جبرييل وتلميحاته . لقد كذبت عليه . لا . لم يكن اندريس الشاب الـذى يقال عنه أنه ما زال بريئا بسيطا . لقد ظل بسيطا زمنا طويلا وهو بلا شك مازال يتظاهر بهذه البســاطة أمامها حتى الآن . هو دور يمثله معها كلما انفردت به لحظة .

ما زال يناديها بكلمة «تاماتى» كما كان يفعل وهو طفل لايقوى على لفظ كلمتى « تانت ماتلد » . وقد كانت نبرات صوته فى ذلك الوقت وسلوكه كصغير مدلل مما يتفق وهذه التسمية الصبيانية. انها مازالت بالنسبة له «تاماتى» ولكن كم من أشياء فى حياة الشاب لم تكن « تاماتى » تستطيع أن تفهمها ..

ليس من شك أن ما من شىء يحدث فى القرية وضواحيها الا ويعلم به أهل القرية جميعا . ولكن أندريس كان يستقل السيارة مرات عديدة فى بحر الاسبوع ويختفى بحجة مراقبة تقطيع الأشجار أو مقابلة التجار ، وكثيرا ما استطال غيابه لفترة ثمان واربعين ساعة وكان سيمفوريون ديبا ، على الرغم من بخله وحرصه ، يبدو سخيا فى اعطاء الوقود اللازم للسيارة ، كأنما يسره أن يظل أندريس دائما يذرع الطرقات . ولقد تساءلت ماتلد : « اية فائدة له فى ذلك ؟ .. »

ما من شىء يدل على أن أندريس فى شغل بغير الأراضى وزيارة المزارعين ، أصدقائه الوحيدين الذين يحبونه كثيرا ؛ ومن وقت لآخر شرب كأسا أو كأسين مع أخوة السلاح القدامى .. قالت ماتلد لنفسها (هذا صحيح .. ولكن ، ما سبب هذا التغيير المفاجىء الذى طرأ على حياته منذ ستة اشهر . انه بطبيعته مهمل لايعنى كثيرا بنظافته ويصل فى ذلك الى حد القذارة التى كنت حريصة دائما على محاربتها بشدة . فما الذى حدث ..؟» حجرة نومه التى استاء جبريل من رائحة العطن فيها .. اصبحت تفوح منها الآن عطور ذكية لاحظتها ماتلد أكثر من مرة . ان جل ما كان يثير اعجابه فى أبيه هو هندامه وقد غاب عنه مافى هذا الهندام من ذوق فاسد. خاطبت ماتلد نفسها قائلة :

« أنوريس ، هذا الشاب السمين القوى ، مأخوذ بمظهر الكهل الفاسق الفانى ... انه على كل حال ابنه وابن أديلا ، فكيف يكون بسيطا وهو ابنهما ؟.. » ماهى الأسباب التى تحملها على الاعتقاد بأن اندريس شاب عاقل رزين ؟ ان له آراء عن النساء ، أوحى اليه بها المثل الذى اخذه عن أبيه ، جعلته قاسيا لايرحم فتيات ليوجا جميعهن . فليس من بينهن واحدة لاقت قبولا لديه . ولطالما سرت ماتلد لهذا العزوف عن النساء ، وكانت تقول : « سيأتى وقت قريب

يجدن القبول فى نظره » ثم تعود لتؤكد انه لن يعجب بامرأة ابدا. وتتساءل : ألا يمكن مع ذلك أن تكون فى حياته .. أشياء .. ؟ ماهى بالضبط ..؟ انها لاتدرى ، على الرغم من أنها تحس دائما بكل ما يدور فى خلجات نفسه ، وهى الآن ترى فى قراره شيئا ينبىء عن شهوة غامضة منتصرة . قالت أخيرا لنفسها : « على أن ذلك لايحول بينه وبين الرغبة فى الزواج من كاترين . فهذا الزواج فى نظره يعتبر أمرا مقضيا .

***

عندما حدثها جبرييل منذ لحظات عن علاقة كاترين باندريس لم تستطع ماتلد أن تحر جوابا لأنها آلت على نفسها الا تفكر فى هذا الأمر أبدا . كيف يتعرف أندريس مع كاترين ؟. أنه يعاملها كأخت له لايشعر نحوها بشعور خاص .. بل انه يبدو غافلا عن وجودها، ويراها جزءا من البيت كالأثاث والرياش ـ فيأخذها ضمنا مع الأطيان والممتلكات ـ لقد شب أندريس وكبر على هذا الأمل ، فأصبحت ارادته فى ذلك ثابتة لاتتزعزع . مهما صادفه فى حياته من أمور فلن يثنيه شيء عن اتمام هذا الزواج .

سمعت ماتلد الساعة تدق الثانية . عليها أن تنام فما عادت بها من رغبة فى التفكير الى أكثر من ذلك . شعرت بأنها ما زالت حتى الآن محلقة بعيدا عما فى قرارة نفسها ولما كانت لاتريدالخوض فى هذه النفس واستطلاع خفاياها فقد امتنعت عن مداومة البحث فى تلك الشئون الخاصة بابنتها . ومع ذلك فما من سؤال من الأسئلة التلميحية التى وجهها اليها جبرييل الا وعاد اليها سرا يلح على ضميرها . انها تذهب الى سر الاعتراف مرة واحدة فى الشهر، بل أقل من ذلك أحيانا منذ أن لجأت فى ذلك الى عميد القساوسة على أثر الشائعات التى حامت حول القس فوركاس ، لا داعى الخوض فيما لايجب أن يشمله سر الاعتراف . فلماذا هذا التعقيد فى الأمور ؟ .

ستكون كاترين أسعد مع أندريس منها مع أى زوج آخر، فهى على أية حال لن تتزوج الا من أجل ثروتها .. ان زواج الاقارب فيه بطبيعة الحال ما فيه من عيوب .. ولكن ماتلد لاتتصور أن فى استطاعة أندريس أن ينجب الأطفال . لا ، لن يكون لهما ولد .

نهضت ماتلد حوالى الساعة الثامنة واغتسلت بسرعة . سمعت خطوات أندريس أمام باب المنزل ففتحت النافذة وصاحت تقول له :

ــ انتظرنى ، أنا لاحقة بك .

ليس فى الجو نسمة هواء ، وشمس نوفمبر ما زالت حارة . قطرات الندى وحفر الماء تلمع فى كل مكان . قال أندريس مؤكدا أن هذا الصحو لن يستمر طويلا . انه لايحيل نظره عن نوافذ غرفة سيمفوريون الذى كان مجتمعا منذ أكثر من ساعة مع جرادير . قالت ماتلد فى اضطراب :

ــ أعجبت لاستطالة الحديث بينهما . انهما يتناقشان منذ فترة طويلة ، ولا يمكن الا أن يكون ذلك حول ثمن الأرض مادمت أنت موافقا .. لابد أن أباك يساوم للحصول على عمولة له ..

ــ لا ياتاماتى . انت تظلمين أبى بقولك هذا . على أن هذا أمر لا أهمية له . لك أن تطمئنى فان زواجى أمر مبتوت فيه .

ــ أتظن ذلك ؟.

أخذته من ذراعه وجذبته فى الطريق الموازى للحقول وقالت له وهى مملوءة بالسعادة :

ــ أملاكنا كلها .. وأملاك ديبا مجتمعة بين يديك !. كلمافكرت فيما هو عليه أبوك قلت أن هذا نتاج لم يكن لأحد فى الحسبان ..

ــ لاأريد أن تذكرى أبى بالسوء .

ــ توقفا فى وسط الطريق . انها تتفحص اندريس باهتمام . هاهو أمامها فى ثوب الرياضة الذى استحضره من محل كبير فى المدينة وقد انتعل فوق حذائه غطاء قدم ثمين . انه شاب شديد السمرة فيه شيء من الفلظ والقصر وله وجه مشرق ضاحك وان كان سريع العبوس لأقل كلمة تسيئه ، فهو شديد الحساسية يظن دائما أن محدثه انما يسخر منه .

لاحظت ماتلد أن ذقنه قد حلقت للتو وأن شعره المتموج قد استوى بفعل الأدهنة فضحكت وقالت :

ــ هل هذا التجمل احتفالا بمقدم أبك ؟ اتريد منافسته فى الوجاهة ..

ــ لا . انى الى جانبه سأبدو دائما القروى الجلف .
قالت ماتلد محتجة :
ــ انما القروى الجلف هو أبوك .
ــ ومع ذلك فانى لست أشبهه فى شىء .
ــ ياصفيرى الغبى ، بالمقارنة بينكما أرى أنك أنت صاحب الهندام الصحيح .
ــ يالك من مسكينة ، ياتاماتى .. !

ــ ان لك مظهر أى شاب من بيئتك ولك هندامه . أما هو ؟ بثيابه الصارخة ، فوجاهته مصطنعة . انه فى مجمل مظهره لاذوق فيه .
ــ لا . كفى . لنتحدث عن شىء آخر .

تقدمها متجها الى المنزل وهو يقذف بقدمه كوز صنوبر ملقى على الأرض . لقد أغضبته بكلامها . قالت ماتلد لنفسها : « لقد أخطأت .. انه أبوه مهما كان الأمر .. ولكنه يجهل عنه كل شىء . أما أنا على أنه ماذا يهمنى أن يملأه الغرور الكاذب عن جبريل ؟» عادت تقول له :

ــ أنا لا أتمنى أى سوء لأبيك . وانما المهم الا تشبهه فى شىء ..
التفت اليها فى غضب ظاهر وقال :

ــ انى أشبهه أكثر مما تظنين ! ..
فضحكت وهى تقول :
ــ لا . أما من هذه الناحية ، فأنا مطمئنة .
صرخ فيها :
ــ ان غبائى وجهلى يخدعانك . انا لم أخرج أبدا من جحرى . لذلك تعتقدين أنى انما جعلت فقط لمراقبة تقليم الصنوبر ومحاسبة المزارعين .... وانى لا أصلح للزواج من كاترين ..

توقفت ماتلد عن السير مأخوذة وقالت :
ــ أتريد اثارة المشاكل ؟ فى الوقت الذى وصلنا فيه الى الهدف المنشود ؟..

نظر اليها وبدا [illegible] وبه وقد رفع كتفيه وقال في زمجرة :
ـ لا . اطمئنى . بعد هذا الانتظار الطويل يجب ان ننتهى .
سرها هذا القول ، فامسكت بذراعه وقالت :

ـ يا عزيزى ، أريد ان اقول لك ... أنا أعـرف أنك وكاترين زميلان قديمان ... ولكن يجدر بك على كل حال أن تظهر لها قدرا أوفى من الظرف والتلطف . انك لا تقدم لها الكثير من الهدايا . هى خطيبتك مهما كان الامر ...

ـ لا . لا . ماذا تقولين ؟ لماذا نتظاهر كاترين وانا بعواطف لا يحس بها أحدنا نحو الآخر ؟ لن يغير الزواج شيئا في حياتنا . كل ما هنالك أن المسائل المتعلقة بالمصالح ستسوى على الوجه المتفق عليه من زمن بعيد مع الخال سيمفوريون . انه اجراء شـكلى فقط ...

صدمت ماتلد بهذه القحة التى لم يظهرها اندريس امامها من قبل ابدا . ليست هذه كلماته . لا . انها كلمات ابيه الذى لاشك اوقعه تحت تأثيره . عادت تؤكد :

ـ ولكن يا حبيبى ، هذا لا يمنعك من وجوب التفكير قليـلا فى كاترين . هذه الصغيرة المسكينة ، ان لها قلبا هى الأخرى . لقد طالما ظننت واعتقدت أنك ستكون لها نعم الزوج المقدر المعطوف . أما الحب فلست أتكلم عنه ... هذا مفهوم ... ولكن على كل حال لا تنسى ما يجب عليك نحوها . ان الزواج التزام دينى ...

ـ آه ، لا . أرجوك . ان كاترين لا تنتظر منى الا أن اكون ناظرا نشيطا لأملاكها سأظل كما كنت أؤدى هذا العمل ... فقط ...
دهشت ماتلد لهذا الكلام ونظرت الى اندريس وهو يكمل حديثه قال :

ـ ... فقط لن أنسى أن العجوز يستغلنى منذ سنوات ، وانى الاقى الامرين فى خدمته بلا مقابل ... نعم ، سـيكون من حقى الحصول على شيء من المال ... اليس كذلك يا ماماتى ؟ .
ـ أجل ، طبعا .
انه يشبه أباه . لقد أصبح فى لحظة هذا الأب ... وجدت

فيه ماتلد هذا المظهر الصبياني الذى كان يخفى جرادين الصغير تحته ، فى الماضى ، رغباته العنيدة القاسية ... لم تكن هذه الظاهرة العجيبة جديدة عليها . لقد برز من خلال هذا الشاب السمين ذى الشعر الأسود وظهر امامها فجأة الطفل الأشقر النحيل . لا . ليس الذى امامها الآن هو اندريس الذى عرفته من قبل ...

تيقنت انه لا يعبر عما يعبر عنه الآن ، اعتباطا ، وان ما من كلمة قالها لها فى تلك اللحظة الا ونالت منه تفكيرا وتدبيرا ، وان جرادين قد لقنه الدرس اللازم . عاد يقول :

ـ هكذا ترين : سننظم الأمور . لن تكون بى حاجة دائمة للبقاء باستمرار هنا الاحظ المحاصيل واسهر على راحة الخال العجوز . وانما انوى الذهاب الى باريس من وقت لآخر لارى ابى هناك . انه وحيد وضحية الاستغلال هو الآخر ... سيكون من الزم واجباتى العمل على رعايته وحمايته ...

ـ ولكن يا اندريس ، ان الخال سيمفوريون لا يستغنى عن ابنته ... ان كاترين لازمة له ...

رد اندريس وهو يضحك :

ـ لن انازعه فيها .

ـ يا عزيزى ، انت لا تنوى القيام الا برحلات قصيرة الى باريس ؟... على كل حال ، انت تكره باريس . وفى غير ليوجا لا يحلو لك التنفس ...

ـ انت التى قضيت بذلك . لقد فرضت دائما ارادتك على اذواقى جميعا . على انى لن اترك ليوجا . سأذهب الى هناك وأعود حسب ما يقتضيه ...

ـ ما يقتضيه ماذا ؟... ومن ؟.

لم يجبها بشىء . انفرجت ابتسامته عن صف من الاسنان السليمة المنحنية ، اسنان اديلا . تبينت ماتلد على هذا الوجه الذى طالما أحبته منذ ان كان حدثا صغيرا شيئا لم تفهم كنهه من الأطماع المنتصرة . سألته بصوت خافت :

ـ وانا ، يا اندريس ، ماذا سيكون حالى فى ذلك كله ؟.

اسرع يرد عليها مداعبا :

ـ يا تاماتى ، اما يكفيك ما نلتيه منى حتى الآن ؟ . اعتقد .. ثم انى سوف اصنع لك حفيدا .. وربما حفيدين ... وهـؤلاء أيضا ، كما تعلمين ، لن انازعك فيهما ابدا ...

ثم اضاف الى ذلك فى خبث ومكر :

ـ ... ثم ستكون عندك ابنتك ...

هذه العبارة هى الاخرى ليست من عنده وانما هو جرادين الذى يتكلم عن طريق هذا اللسان البرىء .

ارتفعت الشمس فى الجو دافئة كما تكون الشمس فى اواخر سبتمبر . البقرات تنساب واحدة بعد الاخرى الى الحقل وخلفها صبى المزارع يغلق البوابة التى كساها الندى لمعانا . ركزت ماتلد نظراتها على الماشية لاهية عما تشعر به فى تلك اللحظة . انهالاتريد معرفة ما يتكشف لناظريها الآن وانما جعلت ارادتها كلها فى الا يختلف هذا الحديث عن الاحاديث الاخرى التى طالما تبادلتها من قبل مع اندريس . ان هذا الشاب سيصبح ثريا وسوف ينتهى الامر بأبيه الى السيطرة عليه والى افساده بلا شك ... انه قد ينطلق بعيدا عن دائرتها ويتنقل فى مختلف البلاد ... هذا اقل ما يحتمل ان يفعله ...

فجأة وبغير ارادة منها، كأنما فيضا من الدم قد تفجر من فمها، انطلقت منها صرخة لم تتمكن من كتمانها ، قالت :

ـ انت لا تحبنى ... انت لم تحبنى أبدا ...

نظر اليها فى دهشة . لقد شعرت ماتلد نفسها بالحرج من تأثير ما قالت . ارادت تغيير النبرة فى صوتها ولكنها ظلت ترتجف وهى تتابع كلماتها :

ـ ما الذى كنت استطيع ان افعله لك ، يا عزيزى ، اكثر مما فعلت ، لو انك كنت ابنى وفلذة كبدى ؟ .

ـ الذى كنت تستطيعين عمـله ، ياتاماتى ؟ هل تريدين ان اخبرك عنه ؟ ان تفكيرى قبل كل شىء فى مستقبلى . أن تبعدينى

عن هذا البيت الذى كنت أتطبع فيه بطباع القرويين .. أن تعتبرى الدروس التى كانت تعطينى اياها المدرسة الخاصة تعليما غير كاف ... أن تضعينى فى أحدى المدارس الثانوية الداخلية فى بوردو . لم تفعلى شيئا من ذلك . لقد كنت تضايقيننى بالعيش هنا الى جانب الرجل العجوز . أما ابنتك كاترين ..! من الخير الا اقول عنها شيئا ..! لقد كنت انا تسليتك ولهوك وسلواك ... بعد ذلك رضيت أن يجعل زوجك منى ما يشبه ناظر الزراعة المتبرع بعمله . كل همك كان ان ابقى فى ليوجا ، ولا شىء غير ذلك . تسليتى الوحيدة كانت كرة القدم . لقد قدمت لنا الأرض التى نمارس عليها هوايتنا ، هذا صحيح ، وبطبيعة الحال اصبحت انا بطل هذه اللعبة فى القرية ... أنا اعرف جيدا ... لولاك لما... ولكن لا تحاولى أن تقنعينى بأنك عاملتنى دائما معاملة الام لابنها.. عن هذا ... فلا . لا ...

هذا صحيح . ان ما يقوله اندريس هو الحقيقة بعينها ، الحقيقة التى اذهلتها . ولكن من الذى فتح له عينيه هكذا مهما كان من شأن هذا الفتى ، فهى تعرفه حق المعرفة ، وتعرف طباعه ... اذا كان قد احس بشعور غامض نبهه الى انه قد ضحى به ، فلابد ان انسانا ما قد اوحى اليه بهذا الشعور ووجهه هذه الوجهة . أن العبارات التى يستخدمها الآن ، لابد أن أحدا قد لقنها له ... من يكون هذا الملقن يا ترى ... أباه ؟.. ربما ... فجأة ، برزت الحقيقة أمام عينيها : « انها امرأة ، امرأة ما ، هى التى كشفت له عن كل ما غاب عنه علمه ... » لقد حاولت مع ذلك أن تبرر موقفها منه . قالت :

— أنت ظالم ، ياصفيرى ، لقد أجهدت نفسى فى حملك على الدرس . ولكنك لم تكن تحب الكتب . كنت تقول لى ان ما سوف تعمله فى المستقبل لا يتطلب منك وفرة العلم وكثرة التعلم . لم يكن لك غرام الا بالكرة والصيد والخيل ...

— ان الصغار ، جميع الصغار ، يقولون مثل هذا الكلام ، ولكن آباءهم لا يعلقون أهمية عليه . ان تذوق القراءة والاطلاع امر كان

سيتحقق لى مع الزمن ، فانا لست اغبى من غيرى . ليس لانى كونت هنا فريقا لكرة القدم . لقد وصل بك الأمر الى حد اقناعى بغبائى .. حقيقة أنا لست نابغة عصرى .. ولكن على كل حال ..

ظن انها لم تسمع الكلمات التى قالها بعد واختص بها نفسه وحده « ... فى امكانى ان اجتذب الاعجاب ... » ولكنها خمنت ما قال واشاحت بوجهها عنه . فهم انها تبكى فاراد ان يضمها بين ذراعيه لانه يحبها كثيرا . تخلصت بعنف من قبضته وقالت :

ــ اتركنى ... اذهب لترى هل مازال أبوك محبوسا مع الخال سيمفوريون . نادنى حين يخرجان .

نظرت اليه وهو يبتعد ثم جالت بنظرها فيما حولها . لم يتغير شيء تقريبا منذ طفولتها . اشجار الصنوبر اصبحت متباعدة عن بعضها البعض لأن الموت قد اخذ منها أفرادا . اما ما قطع منها فقد كبر ونما . ولكن رائحة الضباب والأصوات المكتومة التى تملؤ هذه الفترة المتأخرة من الخريف كانت تتصاعد من أغوار حياتها . لقد انمحى من شعورها الاحساس بالزمن . ظنت ماتلد أنها مازالت تلك الفتاة الصغيرة التى تجرى لاهثة بين الأشجار ، يطاردهما جبرييل وقد انحدرت على كتفها قبعة الشمس المعلقة فى رقبتها بشريط من المطاط ... وجبرييل ... لقد عاشت وفى قلبها تصميم على الا تفكر الا قليلا فيما فات . عدم التفكير فى الماضى ، وعدم اثارة ذكراه ، والعيش فى الحاضر ، وعدم الاكتراث إلا بما يرى وبما يلمس ... هذه كلها نعم لم تكن لتتاح لها لولا وجود اندريس الصغير الى جوارها . لقد قال الحق هذا الفتى : لقد استخدمته ، استفادت منه ، تغذت به .. لقد كان كلبها الأليف تجد فيه السلوى ... فهو ابن الرجل الذى احبته فى الماضى ، لولاه لما استطاعت ان تحيا فى ليوجا بين سيمفوريون ديبا وكاترين . لذلك لم يفكر احد فى ادخاله المدرسة الثانوية . لا ، انها لم تعن بتعليمه ولم تهتم بتثقيفه . لقد انصرف همها كله الى تقوية حب الأرض فى نفسه . ظنت ان الارض ستربطه اليها دائما ، ستحول بينه وبين مغادرة ليوجا .

سمعت خطوات اندريس تدق أرض الشرفة امام باب القصر. نظرت الى الاشجار من حولها فراتها كالاموات . السور والسياج والحقل ، كل شيء امامها تحول الى سراب . يا لخداع الذكريات! « عدم الابقاء على شيء » أي معنى يعلق بهذه الكلمات البسيطة في بعض الأحيان وبالنسبة لبعض الأشخاص ..! لقد انفرجت القبضتان وانفلت الغصن منهما فلم يعد يجدى الابقاء على شيء...

لم تتحرك من مكانها وقد صعقت بتأثير هذا الخاطر الذى نبهها الى انها منذ عشرين سنة تعيش في اليأس من غير أن تدرى . فقد يصبح اليأس طبيعة يغيب عنها الشعور . استندت الى شجرة بلوط وراحت تصغى في غباء الى الضجة المنبعثة من تلك العربة التي تبتعد . وظلت هكذا فترة طويلة من الزمن .

- ٦ -

ناداها اندريس من الشرفة وهو يشير اليها بورقة في يده .. فهمت ماتلد أن الأمور قد سويت ولن يكون ذلك الا على حساب كاترين . مرة أخرى عادت تكافح في نفسها الندم الدفين ... أن الصغيرة على كل حال ليست وحيدة فان أباها شغوف بها الى أقصى ما يمكنه الشفف بكائن حي ، وليس هذا بالشيء القليل . لابد أنه راعى الا تكون كاترين الضحية فيما تم عليه الاتفاق .

بقيه من حب الاستطلاع دفعتها الى الاسراع في السير . جرى نحوها اندريس وهو يصيح :

- تمت تسوية كل شيء . وقعت على الوعد بالبيع في عقد عرفي . سينصرف الاهتمام الآن الى موضوع الزواج . ها هو مشروع الاتفاق المالي : انه يبدو معقولا. لا ننتظر بعد غير موافقتك.

كان سريع التنفس ، محمر الوجه ، منفعلا ، مغتبطا . اجرت ماتلد نظرها على مشروع الاتفاق . انه ينص على ترتيب دخل شهرى لكاترين قدره الفان من الفرنكات وعلى تخصيص عمولة لاندريس على عصارات الأشجار وبيع الأخشاب . كما انه ينص ايضا على اعفاء الزوجين الشابين من كل التزام ومن دفع اية نفقة وعلى أن

يساهم أندريس فى أموال المشاركة الزوجية بما بقى له من عقار وهو نصف البيت ونصف الحديقة وقد بقيا فى الشيوع منذ وفاة اديلا .

ـ يريد الخال ان يشرب الشمبانيا احتفالا بخطبتنا ، ولكن أزمة الربو أنتابته ...

قبل ان يفتحا الباب سمعا الصفير الذى يتخلل تنفس سيمفوريون وشما رائحة الكافور . انه يقيم فى أصفر حجرة من حجرات القصر وكانت هذه الحجرة معبقة دائما بالابخرة والدخان الطبى . الرجل المريض يقبع فى قاع احد المقاعد . نظر الى ماتلد والى أندريس بعينيه اللامعتين وقال لاهثا :

ـ هو الانفعال الذى أثار لدى هذه الأزمة ...

كان يرتدى صدارا من الصوف فوق ثياب النوم ، وقد غطى ركبتيه بغطاء كثيف . لقد قيل ان كاترين صورة أبيها . فى الحقيقية ، ليس فيه تلك الملامح الحيوانية التى لها ، ولكنه ضئيل البنيه مثلها ، أسمر الجلد ، كثير زوايا الجسم . وكان يشبهها بأنفه وبشكل رأسه وبركبتيه ومرفقيه وبكتفيه البارزتين . قال وهو لايكاد يلتقط أنفاسه :

ـ هل قرأت مشروع الاتفاق ياماتلد ؟ فيما يتعلق بالبيع أمضينا العقد العرفى . ستصبح سرنيس وباليزاو ملكا لى .. باليزاو وسرنيس ...! ولكنى دفعت الثمن . يلزم للصفير شىء من النقود السائلة ليشترى دبلة الخطوبة والأشياء الاخرى ... أنا اعلم انه لن تلزمهما نفقات كثيرة ... لقد هبطت جيرسانت الى الكهف لتحضر زجاجة الشمبانيا ... تلك الزجاجة التى احتفظت بها معتقة منذ زمن بعيد ... لقد قلت دائما ... انى احتفظ بها ليوم خطبة كاترين ...

كان جرادير واقفا محمر الوجه وهو ينظر الى الرجل المريض ، أشار الى اندريس واسر اليه كلمات فى أذنه . دخلت جيرسانت تحمل زجاجة الشمبانيا على صينية ومعها الكئوس . وفجأة سمع صوت جبرييل يقول :

ـ لا ينقصنا احد غير بطلة الحفلة .
نظر سيمفوريون حوله وقال :
ـ هذا والله صحيح ... يا جيرسانت ، اذهبي واحضري كاترين ... لابد انها في الحجرة المجاورة .

أخذته ازمة سعال من غير أن يرفع عينيه عن الباب الموصل بين غرفته وغرفة كاترين . بعد برهة قال :
ـ هذه انت يا صغيرتي ، لم ننس أحدا غيرك .

الدهشة المفتعلة التي ارتسمت على وجه كاترين وهي تسأل ما الخبر ، ثم حيرتها ، ثم قولها : « ولكني لست مخطوبة لأحد ! » كل ذلك كان من قبيل التمثيليات الرخيصة . أما سيمفوريون فعلى العكس من ذلك كان يمثل دوره باتقان . فقد التفت ناحية اندريس وقال في دهشة ظاهرة :

ـ الا اخبرتني يا بني ؟ الم تكونا على اتفاق فيما بينكما ؟ لقد ظننت انكما سويتما معا كل الأمور . ألم تقسم لي على ذلك ؟... وانت يا كاترين ، لماذا تركتني في هذا الوهم ؟...

وقف اندريس شاحب الوجه ، ترتعش شفته من الحرج وهو ينظر الى ابيه ثم الى كاترين ثم الى ماتلد . ومرة أخرى عاد صوت الفتاة يقول في عدم اكتراث :

ـ لم تسألني رأيي أبدا . انا لست مخطوبة لأحد . لن اتزوج اندريس أبدا ...

لم يعد ديبا العجوز يحاول اخفاء شيء . وعلى الرغم من أزمة الربو التي تمزقه ظهرت على ملامحه كلها علامات السرور العميق الذي تخالطه الرهبة . وجه الكلام الى ابنته قائلا :

ـ ياعزيزتي ، لن يجبرك احد على أمر لا تريدينه ... انت حرة في نفسك ، ثم ...
قاطعه جبرييل قائلا :
ـ هيا ، لا تجهد نفسك . كفى ما ظهر من هذه المهزلة ...
ـ ولكن ، يا عزيزي ، لا توجد مهزلة ... انا اكثركم دهشة

أكثركم حسرة .. لقد طالما اقتنعت بهذه الفكرة .. وعلى كل حال ارجو ان تعيد كاترين التفكير ..

واذ قاطعته كاترين قائلة : « لقد فكرت فى كل شىء » عاد يؤكد فى لهجة سريعة :

ـ أيا كان الأمر .. فأنا لا اسحب شيئا من المزايا التى وهبتها لاندريس ...

قال الشاب ، الذى لم يكن قد فتح فمه حتى الآن وكان يبدو محطما :

ـ هل تظن انى سأبقى يوما واحدا هنا بعد الآن ... وقد أمضيت هذا الزمن كله ابذل من نفسى ومن جهدى ..؟

اسرع ابوه يقاطعه قائلا :

ـ بل ستبقى فى هذا البيت ، يا ولدي ، فهو بيتك . لقد أخذوا منك كل شيء ... سلبوا منك كل شيء ... ولكن العصر مازال فى حالة الشيوع . أنت هنا فى بيتك . ومادمت قد رضيت باستضافتى عندك ، فسأبقى هنا كل ما يلزم من وقت ...

سدد عينيه الزرقاوين الى المريض الذى احنى رأسه وراح ينظر اليه شذرا :

ـ ما يلزم من وقت لماذا ؟.

ـ لارغمك على الدفع .

ـ هيا ! هيا ! يا صديقي ... من الذى يرغم على الدفع هنا؟ انها لجراة وقحة منك ... هل تنوى ان تضطرنى الى وضع النقط على الحروف ؟ فانا على اتم استعداد لتمزيق الوعد بالبيع اذا ما رد اندريس المبلغ الى ... أم لعلك قد انفقت سلفا مال ابنك ؟...

لم يسمع هذه الكلمات الاخيره غير جراديو واندريس . امسك الشاب بيد ابيه الذى شحب لونه وقال فى لهجة جافة :

ـ لا رجعة فيما تم التوقيع عليه .

خيم الصمت لحظة ارتفع بعدها صوت ماتلد جافا لا نبرة فيه يقول :

- انا أيضا ؟ يا صغيرتى ، طوال هذه السنوات العديدة التى دامتها خطبتك اعتقدت انك على اتفاق بشأنها مع اندريس ... انت نفسك كنت تكلميننا عن هذه الخطبة كثيرا فى الماضى .. ولكنى لن اضغط ابدا ....

ردت الفتاة فى قحة تقول أن أمها تحسن صنعا اذ تجنب نفسها هذا العناء . عندئذ هزت ماتلد كتفيها ومن غير أن تقول شيئا خرجت من الحجرة يتبعها جبرييل واندريس .

ظلت كاترين وابوها لحظة يسترقان السمع ، ثم طلب الأب الى ابنته ان تنظر اذا ما كان الآخرون قدبقوا فى طرقة البيت. وفتحت الباب قليلا فوجدتهم قد انصرفوا .

- أرأيت ، يا صغيرتى ، ما قلته لك من قبل ، لا فائدة تجنى من اثارة الناس .. لقد أردت الشماتة فيهم وهأنت قد حصلت على ما تريدين ... وانا ايضا ... اعترف بانى قد حصلت على ما اريد ... ولكن الآن ... لقد سمعت ما قاله جبرييل ؟ انه لن يرحل عن هنا ابدا .

ردت عليه كاترين متسائلة وهى تعد الوسادات خلف راسه :

- ثم بعد ؟.

- ألم تعلمى أنه قادر على كل شىء ؟.

واذ صرخت الفتاة قائلة : « وما الذى يستطيعه ضدنا ؟ » قال لها أبوها بصوت خافت :

- لا ترفعى صوتك . انت لا تعرفين هذا الرجل . ان لدى معلومات عنه ولم أبح لك بعد الا بنصف ما اعرف . ان سنك لا تسمح لك بمعرفة كل شىء... بفهم كل شىء ...

كان جسمه يرتعد . اكتسى وجه كاترين بابتسامة العطف ووضعت يدها على جبهة ابيها وقالت فى سرور وحشى :

- لا تخف . انه لن يفترسنا ايا كانت نذالته . يبدو على كل حال اننا نحن الذين ادخلنا عليه الغفلة ..

ـ انا مريض يا كاترين ... ليس الى حد الموت كما يظنون كما يتمنون .. ولكن الربو قد تملكني تماما .. يمكنني ، طبعا ان أعيش سنوات هكذا كما انا ... لقد وعدني كليراك بذلك ... وأكده لي امس فقط ... على ان هذا لا يمنع اني اصبحت بغير حماية ...

وبعد ان توقف لحظة ليسترد انفاسه عاد يقول :

ـ احذري ، يا صغيرتي ، لست ادري ما الذي يدبرونه ... ما دام جرادير هنا يجب أن نظل مفتوحي الاعين . سينتهي به الأمر حتما الى الرحيل، فهناك في باريس من يدعوه الى العودة اليها... انه لا يدري أني أراسل صديقته آلين . انها لحسن الحظ قابضة على ناصيته ، ولكنني لن أتنفس في هدوء طالما هو هنـــا ....

سألته كاترين فجأة :

ـ هل لاحظت امي ؟ يا للفظاعة ...! انها لم تتحرك ... لم ابعد عنها نظري لحظة واحدة ...

لا . انه لم يستطع ان يلاحظها لانها كانت تقف خلف المقعد الذي يجلس عليه . عادت الفتاة تقول :

ـ على كل حال . ربما سرها اني رفضت قبول اندريس ...

ثم راحت تسدد نظرها في الفضاء .

ـ ليست امك هي التي تشغل البال وانما هو الآخر ... ذلك الوغد ... لست اطيق منه هذا التظاهر بالرقة . تنبهي لكل شيء يا صغيرتي . ولاحظي قبل كل شيء المطبخ ... وجهي عنايتك الى النار . ولا تخرجي بعد هبوط الليل ...

توقف لحظة ليسعل ثم عاد يقول :

ـ يجب ان تحشري انفك في حسابات اندريس . انه ينحدر من سلالة المزارعين وهو في الواقع يقف الى جانبهم دائما ضدي . يقولون عنه انه يحب الارض . ولكن هل حب الارض يعني التواطؤ مع اولئك الذين ينهبوننا . ويكفي ان يلاحظ عليه كيف يرضى أن يسرقه ابوه ... لقد ترك الايجارات تموت بسبب عدم تحصيلها من

الملتزمين بها ... انه رجل ضعيف . لو انه اصبح مطلق التصرف هنا لحلت بنا الطامة الكبرى . على كل حال راقبيه جيدا ولا تغفلي عنه .

قالت كاترين .

ـ اطمئن ! انى اراقبهم جميعا .

- ٧ -

ـ هل هدأ اندريس قليلا ؟ .

ـ نعم ، لقد تمدد واغلق عينيه . وضعت له منشفة مبللة على جبهته .

انقضت ساعة او تكاد على اللحظة التى كشف فيها ديبا العجوز عن أوراقه . اغلقت ماتلد فى رفق باب الغرفة التى مازالت فى نظرها « غرفة اديلا » على الرغم من أن ساكنها الآن هو جبرييل .

ـ كنت أعرف أن اندريس قادر على الغضب ، وكثيرا ما رايته حتى وهو فى مراهقته فى حالة هياج تقترب من الجنون . ولكنى لم أره قط كما كان منذ لحظات . ان الصدمة بلاشك قوية ...

قالت ذلك وجلست على حافة السرير بينما راح جراديريدخن واضعا يديه فى جيوبه وأطبق شفتيه بشدة . اضافت ماتلد :

ـ ان الأمر الذى ادهشنى فيـه هو الألم . قلت انه الغضب لا بل الألم .. انه بلا شك يعشق الأرض كما يعشق انسانا .. لكأنه قد فقد اليوم انسانا عزيزا عليه .

ـ أنت لا تعرفين كل شىء .

وجهت اليه نظرة سائلة فهز رأسه وقال :

ـ انت التى تفخرين بانك تعرفينه جيدا ! أيتها المسكينة ماتلد ...؟ اننى أعرف عنه اكثر منك ، مع انى لم أحضر الى هنا الا أمس فقط ...

شعرت بهذه الكلمات تجرح كبرياءها ، ليس لانها تعنى اشياء خطيرة تتصل بجوانب مجهولة من حياة اندريس ، ولكن لانها دليل

على ان هذا الرجل قد استحوذ على ثقة الشاب الذى لابد قد نقل اليه هذا الصباح - بينما كانت هى نائمة - كل ماتجهله هى عن حياته . قالت وهى تتظاهر بعدم الاكتراث :

- اوه ! انى اعرف اشياء كثيرة .

انها تكذب لانها لا تدرى ما يعنيه هذا الرجل . اما هو فقد رآها تتألم فأثارت الامها الامه من غير عطف عليها . ففى هذه الغرفة نفسها ، غرفة اديلا ، منذ عشرين سنة مضت ، اضطر لأن يكشف عن وجهه القناع امام ماتلد فعرفت من هو على حقيقته . وهو مازال الى اليوم يذكر صوت جسمها وهو ينهار خلف الباب . واليوم ها هى تتألم من أجل أندريس .. لا .. ليست الغيرة من أندريس هى التى تحركه وانما هى الرغبة فى ارجاع ماتلد الى مرارة الذكرى وحرقة الماضى ... ولكن كل شىء قد مات فى قلبها حتى المرارة ، وهذه الحقيقة ، حقيقة الفراغ ، هى التى تغيظه وتجعله قاسيا على ماتلد . انه ينظر اليها وهى تتألم . انه يخضع لهذه الرغبة فى التطلع دائما الى آلام الآخرين ويتلذذ باشباعها فى نفسه . تظاهر بالغفلة وقال :

- بالتأكيد . انك من الذكاء بحيث لا يفوتك العلم بان هناك امراة فى حياة أندريس .

قالت :

- كنت اعرف ذلك ...

وتعلقت عيناها المفتوحتان بشفتى جبريل الذى قال :

- ولن ادهشك اذا اكدت لك اننا لا وزن لنا فى نظره ، لا انا ولا انتم . انه ابنى وقد ورث منى تلك الارادة التى لا تقهر فى الوصول الى ما يريد على الرغم من كل شىء . وهو فى ذلك غريزى كما كانت أمه ...

قاطعته ماتلد :

- كيف تجرؤ على الكلام هكذا عن اديلا ؟ كيف تجرؤ على ذكر اسمها ؟ .

لقد لجأت الى هذه الحيلة ، حيلة الدفاع عن اديلا ، لتطلق

العنان لغيرتها ولما تشعر به من الم . ولكن جرادير تشبث برأيه وقال

ـ لن تستطيعى للواقع تغييرا . ان اندريس هو ابن الغرام...

قاطعته محتجة :

ـ لا . ليس ابن الغرام وانما هو ابن الحقد والكراهية . لقد كنت تكره اديلا وكانت هى تكره استسلامها اليك وتكره الخدعة التى راحت ضحيتها . مسكين اندريس !... ابن الغرام ؟... كلا بل قل ابن الحقد والندم ...

ـ ما هذا يا ماتلد ؟ كنت اظن القوم فى ليوجا لا قبل لهم على الكلمات الضخمة ...! يبدو لى انى لست انا « قائل الكلام الفارغ » ...

هل سمعت ما قال ؟ كانت جالسة منتصبة القوام مكتوفة اليدين فى ردائها القاتم العارى عن الزينة . مازال النبل يشع من جبينها ومن قوس حاجبيها وأنفها كما كان من قبل . ولكن الحدة والقلق كانتا فى فمها الواسع ذى الشفتين الباهتتين وفى عنقها المتهدل . بعد لحظة من الصمت اعترفت قائلة :

ـ لا ادرى شيئا عن تلك المرأة التى يهواها اندريس . لا اعلم من هى . ليس فى ليوجا واحدة ..

ـ انها ليست من ليوجا . لقد سكنت لبضعة اسابيع فى بيت القسيس.

ـ لست تعنى تلك المخلوقة ...؟

ـ لقد قابلها مصادفة فى القطار ، أحد أيام الخميس ، وهو عائد من مباراة رجبى فى سانت كلير . هى التى مهدت له سبل التعرف اليها . ظلا طوال هذا الخريف يتقابلان فى الحدائق المنعزلة وفى المزارع المهجورة . وهى الآن تقيم فى لوجدونوس ، فى ذلك الفندق الجديد المطل على ميدان مالبك .

لم يبعد نظره لحظة عن تلك المرأة التى ادهشته بشباتها وجمودها المصطنع وعدم اكتراثها وهى تسأله :

ـ وما العلاقة بين قصة اندريس هذه ، التى لا تعنينى فى شيء ، وموضوع زواجه الفاشل ؟.

ـ ان توتاريفو ـ وهذا اسمها ـ تعتزم الذهاب في هذه الايام الى باريس . لقد شاع خبر اقامتها في لوجدونوس . وعلى الرغم من انها تقيم هنا على غير علم من أخيها فان الناس يذيعون عنها انه هو الذى اسكنها هناك بل وانها ليست اخته ... وانت خير من يعلم التقولات الفظيعة التي يخترعها اهالي ليوجا . يبدو انها تعبد اخاها ولذلك خشيت أن تسىء اليه فرغبت في الارتحـال على الرغم من توسلات اندريس ... لقد نزل الصبي على رغبتها لانتوائه اللحاق بها في باريس بعد زواجه ، بل ربما قبل هذا الزواج ، والانفاق عليها هناك ... اما وقد اصبح اليوم لا يملك شروى نقير ... لا اعتقد أن هذه المراة خالية من الغرض ، على الرغم من ان اندريس يؤكد العكس ...

هنا قاطعته ماتلد لتقول ان اندريس قد قبض حديثا قيمـة شيك كبير من ثمن بيع مزرعتي سرنيس وباليزاو ... ولكن جرادين اشاح بوجهه عنها ولم يحر جوابا . اقتربت منه وقالت :

ـ هذا المبلغ ؟ انت اخذته منه ؟ اليس كذلك .. ؟ اعترف .

رد عليها محتجا في ليونة :

ـ كلا ! كلا ! لقد اقرضني اياه ... انى اعطيه عنه خمسـة فى المائة ولم يعد فى استطاعتى الحصول على المبلغ . لقد عرضت عليه كل مابقى معى ، ولكنه رفض .. وما كان ذلك لينفعـه كثيرا ... على كل حال لدى ما اقدمه له احسن من ذلك ... بمجـرد أن يستطيع الاستماع الى . لقد وعدنى بألا يرحل من هنا الا بعد أن تحصل على ما نريد .

انتابت ماتلد رعدة من هذا الكلام . انها تمقت هذا الصـوت العذب وتلك النبرة التى تستعصى على التحليل . مست بيدها كتفه ثم عادت فسحبتها بسرعة وقالت متوسلة فى حزم :

ـ خير لك ان ترحل انت أيضا ، يا جبريل . ارحل ودعنى استقل قطار الساعة الثالثة ...

ـ ولكن يا عزيزتى ، لدى اعمال كثيرة هنا .

عادت تقول بصيغة التأكيد :

ـ لن تستطيع ان تعملّ الا سوءا . مهما حدث ، لا تعتمدَ على اى شيء.

اقتربت من باب الحجرة بينما ظل هو على مقربة من النافذة مونيا لها ظهره فلم تر غير استدارة وجهه .

ـ هل تعلمين يا عزيزتى انى سأحتاج اليك ... سترين ... سوف تشكروننى ...

ردت محتجة :

ـ كلا ! كلا !...

ـ قبل ان تقولى كلا ، انتظــرى لترىَ ما الذى ادبره ... ماهذا ؟..

وضعت اصبعا على فمها واصغت باذنها وقالت :

ـ انى اسمع السيارة .

ـ انه يذهب لمقابلتها . ربما كان هذا آخر لقاء بينهما .

عندئذ انطلقت من ماتلد صرخة :

ـ ارجو الا تأخذه معها .

اقترب منها جراديز وهى واقفة بلا حراك واضعة يدها على مزلاج الباب . تناولها من كتفيها وقال :

ـ لا ، اطمئنى . سيطيعنى ... انا ايضا ...

ثم أضاف فى لهجة ملؤها الانشراح المفتعل :

ـ انا أيضا احبه ... هذا الصبى ... اتظنين انى اتركه وهو يعانى اشد مراحل الأزمة .؟

قال بعد ذلك بصوت مرير منخفض :

ـ سيصبح السيد هنا ، عما قريب ، اقسم لك على ذلكَ .

واذ ظلت صامتة قال لها فى اذنها وهــو يضــمها قليــلا الى صدره وقد شــعرت بانفاسه فى وجهها :

ـ سيصبح السيد هنا لانك ستصبحين السيدة ...

انفلتت بعنف من بين ذراعيه وقالت :

ـ انا لست شيئا هنا وانت تعرف ذلك . ديبــــا وحده هو المتحكم .

قال لها :

ـ هذا صحيح بطبيعة الحال يا عزيزتي ، ولكن داء الربو يبدو لا خطر منه وان كان ينتهي عادة باحداث اثر سيء في القلب ...

ـ انه سيوارينا كلنا القبر . هذا رأى الدكتور كليراك ...

ـ اوه ! تشخيص كليراك !... لي ثقة اكبر في تشخيصي أنا.

انطلق يضحك . كم هي تكره هذا الضحك منه !... لقد وجدت في نفسها القدرة على التخلص من هذا السحر ومغادرة الحجرة . هبطت السلم واخترقت الممشى واخذت معطفا واندست وسط الضباب الذي تنيره شمس النهار من غير ان تبدده . ناقوس الكنيسة يدق ايذانا بصلاة الظهر . انه بلا شك لاسوس الصغير الذي يجذب حبل الناقوس. الصفارات المولولة تفتح ابواب المصانع لتفرغ من فيها من العمال . شعرت ماتلد بنفسها خفيفة ، شعرت بالنجاة . لم تعد تتألم ، فالكون حولها يملؤه الضوء والحياة ، فيها طعم حلو ولها عطر كان منسيا . انها تعتمد على شيء لا تدرى له ركنها ، انها تنتظر الغد . لقد نقل اليها هذا الرجل عدوى الامل .

- ٨ -

في نهاية ذلك اليوم ، وعلى الرغم من هبوط الليل ، لم تكن النوافذ قد اغلقت بعد . مصباح احد الشوارع المتفرعة من ميدان مالبك في لوجدونوس يلقي ضوءه على السرير الذي استلقت فيه توتا ، تدخن وكأنها في طيات اكفان . كان نظرها معلقا بحركات اندريس الذي أوشك على الرحيل ، وقد بدا غلاما سمينا زرى الثياب ، لاعب رجبي برأسه الاكرت العنيف . اما هو فكان يتابع في الظلام حركات الذراع الجميل تحركه تارة نحو اناء تلقى فيه بالرماد وتارة نحو شفتيها تقرب منهما السيجارة . قالت له آمرة :

ـ لا . لا تستعمل فرشاتي .

اطاع في الحال ، فهو يقدس تلك الأشياء الثمينة المصنوعة من العاج وتلك الزجاجات البللورية ذات السدادات المذهبة . راحت تفكر وهي تنظر الى هذه الجبهة الضيقة تحت الشعر الاكرت والى هاتين العينين المسلطتين عليها : « سوف أصادف المتاعب ... »

ولكن هل تعود الى مسقط راسها كما يريد الان ؟ هل تعـود الى الاقامة فى ذلك البيت الصغير فى قرية بنوج حيث ماتت أمهم فى السنة السابقة وحيث الحياة بائسة فقيرة ؟ هناك فى الكهوف ثلاثة محاصيل متراكمة من محاصيل النبيذ لم يتقدم لشرائها شار بينما الكروم موجودة لمن لاضمير له يسيمهم العذاب .. لا ، أنها تفضـل الموت على العودة الى هناك ... اذن ، فهى الاقامة فى باريس ... ولكن كيف تستطيع الحياة فى باريس ولا يزيد دخلها على اثنى عشر الف فرنك ؟ فى أمكانها طبعا ان تعثر على رجل يتولى أمر الانفاق عليها ... ولكنها ، من اجل الان ، لا تريد لنفسها السـقوط ... لا تريد الانحدار ... بقى أن تستجيب الى رغبة الان ، وان تعـود الى زوجها ... ذلك المدمن على تعاطى المخدرات ... ذلك المجنون الذى يضربها ويهينها ... ذلك الكاتب الفاشل الذى تجمعت فيه كل الوان الانحلال .. لا .. ابدا .. ابدا . أما الأمل المنشود فهو ان يحضر اندريس الى باريس من وقت لآخر وان يعاونها على مواجهة تكاليف الحياة ... انها تشعر بالميل له على كل حال ... يجب اذن حمله على قبول هذا الحل .

ـ انا مضطرة الى التفكير فى السفر ... بسبب اخى ... ان وجودى هنا يلحق به الضرر ...

ـ الى من أنت ذاهبة ؟ قولى ؟..

نظرت من خلال فتحة قميصه الى صدره القوى وعنقه الضخم ثم رأت ذقنه السوداء التى اقتربت منها .

ـ لن اذهب الى احد ... طالما لا تلجئنى الفاقة الى ذلك... ثم ، ما الذى يمنعك من الرحيل معى ؟ نعم ، أعرف انك مخطوب ولكن يمكنك دائما أن تنتحل الأعذار .

انحنى عليها ، فمست شفتيه بيدها ، ولكنه انهـار عليهـا كالشجرة الهاوية فصرخت :

ـ يا لك من مجنون !..

نهض قائما وسمعته يتمتم :

ـ ياتوتا ، لا أستطيع الرحيل ..

لا . ليس فى استطاعته الرحيل . مازال يذكر الامر الذى أعطاه له ابوه ذلك الصباح فى ممشى القصر وهو خارج من غرفة ديبا العجوز : « ابق هنا . اصبر لبضعة اسابيع وستصبح السيد الآمر الناهى هنا . ستنال تلك المرأة التى تقول انك لا تستطيع الحياة بدونها . انت وحدك تملك الوسيلة التى تحفظها الى جوارك الى الابد ... »

لقد بقيت تلك الكلمات فى ذاكرته حتى خلال الأزمة التى القت به صارخا باكيا على سريره بعد خروجه من غرفة ديبا بدقائق . بل ان هذه الكلمات هى التى ادخلت الهدوء الى نفسه . ان لبعض الوعود التى يمده بها ابوه قدرة سحرية عجيبة . هل يستطيع احد مقاومة سلطان الوعود والتأكيدات التى يبذلها ابوه . لا . لن يذهب أندريس مع توتا . انما الذى يهمه الآن هو العمل بكل الوسائل على تأخير سفر توتا . عاد فجلس على حافة السرير وقال :

— ستبقين بضعة أيام أخرى ..؟ لقد وعدتنى بذلك منذ أقل من ساعة . أليس كذلك ...؟

نظرت اليه باشمئزاز مدفون . فهى لم تكن تسعد بقربه منها الا فى الظلام حينما يصبح مخلوقا لا وجه له ، بعيدا عن تعبيرات الغباء او النذالة — جسدا مبهما لا رأس له فى الظلام .

— أنت ترى أنى وحيدة لا عائل لى مادمت اتردد فى الرحيل يمكننى أن أذهب أو أن ابقى .. فلا أحد ينتظرنى .. ولو لم يكن الان اخى ...

عاد أندريس يسألها فى الحاح :

— الا تحبين انسانا ؟.

قالت :

— بل أحب انسانا ليس فى هذا العالم .

— ميت ؟.

— أسوأ من ميت ... انه سجين .

أسرع اندريس يستفهم منها باندفاع الصبى الذى لايعى كل ما يسمعه الا بمعناه الحرفى .

ـ هل هو فى السجن ؟
تنهدت وقالت :
ـ لو كان فى السجن لاستطعت الكتابة اليه ولعرفت انه يفكر فى كما أفكر فيه . ولكن لا يكفى ان أقول ان جدران كنيسة مطبقة عليه وان مسوحه يعزله عن العالم .. انها العزلة الأزلية ..
ـ آه !.. فهمت !.. تعنين اخيك !..

ثم انفجر ضاحكا فى فرح واحاط بذراعه اليسرى كتفى الشابة وقال :
ـ لقد اخافنى ما قلت ... يالك !...

نظر الى وجهها الابيض ، فانجذب اليه واقترب منه بوجهه فى بطء . اخترقت سيارة ميدان مالبك ، وسمع نباح الكلاب وخطو جواد غير متعجل . وقفت عربة أمام الباب وارتفعت فى الليل عبارات تبودلت باللهجة العامية . لم تكن توتا تشعر بأنها قد بعدت عن اخيها كثيرا . لذلك ستغوص مرة اخرى فى تلك الظلمات التى تعتقد أنها تحميها وتبعد بها عن كل ما يستطيع انسان مثل الان أن يخترعه للتأثير على مخلوقة مثلها وأغراقها فى بحر خضم من الصلوات والآلام . ولكن يجب على اندريس ان يعود والا يترك اباه يعتقد فيه الهرب والفرار ... سألته عن السبب الذى جعل عائلته شديدة الريبة والتوجس فى هذا المساء . فاجابها بما لا يشفى غليلا وقال فى اصرار :

ـ اذن ... انت غير راحلة ؟...
مسحت بيدها على يده صامتة وبعد برهة قالت :

ـ ربما يكفينى أن ابتعد قليلا ... قد استطيع الاقامة فى بوردو ... ولكن يجب ان تعاوننى ... انا لست ثرية ...

ظهر عليه الضيق فقالت توتا فى ضميرها : انه قروى صغير حريص على نقوده . ولكنه عاد بذاكرته الى ما وعده به ابوه فقال لها : « اصبرى بضعة اسابيع أخرى ، وستكونين انت الرابحة ... » وراح يلح عليها فى البقاء فى لوجدونوس . لم ترفض ، فهى مازالت ملكا له ، خاضعة لارادته ، لا تعصى له امرا .

ظل مرات يردد قوله : « انا ذاهب ، يجب ان انصرف ... » ولكنه بقى واقفا الى جوار السرير الذى تمددت فيه فبدا لها عظيم الجثة على غير ماهو عليه . عادت فرفعت ذراعا خيل اليه انهليس منها وانما هو حية تتراقص وقد احتلت اليد مكان الرأس منها . ضغطت بكفها على فم الشاب وتلقت عليها عضة رقيقة منه لم تتأوه لها . الفندق الصغير يسوده صمت لا يعكره الا صوت الطهىالقادم من المطبخ . قال لها :

ـ استودعك الله هذه المرة .

تقارب وجهاهما مرة اخرى فى الظلام .

اصغت الى خطوات اندريس تتباعد . انها دائما تصغى هكذا الى تلك الخطوات والى صوت السيارة وتتسلى بهذا الاصغاءلاطول وقت ممكن . لقد اصبحت تستطيع التعرف من صـوت الكلاكس على ما اذا كان يلف حول ناحية الجبانة او انه قد سـلك طريق سانت كلير . فى تلك الليلة اذن ظلت متنبهة الى وقع القـدمين الثقيلتين وهما تدوسان البساط الممتد فى ممشى الفندق . وفجأة سمعت صوتا مكتوما ، صوت جسم يسقط وشىء يهوى منهـارا يصاحب ذلك سيل من الشتائم يلقيها اندريس وضحكات مكتـومة متوالية .

قفزت توتا من سريرها وتلمست رداء القته على جسمها ونفذت الى الممشى المظلم تحت الضوء الضئيل المنبعث من السـلم . على الردهة هناك اناس فى خليط غير مميز . انهالابد خدعة وكمين... مداعبة سخيفة . رجل ملقى على الأرض وقد اجتمع عليه رجلان يكورانه داخل ملاءة وهما يتضاحكان .

لم تستطع المرأة الشابة وهى شبه عارية ان تبرز من الظلام وقد اطمأنت قليلا للضحكات القبيحة التى تصل اليـها . تمكن الرجل الملقى على الارض من فك الكفن الموثق به ورأت توتا امامها رأس اندريس وقد لطخه الدم واخذ منه الحنق كل مأخذ . بدت الدهشة والحيرة على الشابين اللذين فعلا به تلك الفعلة الشنيعة .

ـ السيد اندريس !... يا للمفاجأة ...

صرخ اندريس وقد كسا الدم وجهه : « موليير ؟. هذا انت؟. أقسم .. ايها النذل ! . ايها الوحش ! . » أسرعت توتا اليه وجثت على ركبتيها بجواره ترفع رأسه . ليس به غير نزف من الأنف وورم بسيط بالشفة العليا .. قالت بصوت منخفض تأمر الشابين :

ـ هيا ، بسرعة ، ساعداه على السير حتى حجرتي ..

اظهر الشابان الاسف والندم . لقد اشتهر اندريس بمعاونة الجميع وفاز بحبهم ، وهو الى ذلك جم التواضع وبطل من أبطال الكرة وخير من يلعبها كمركز هجوم في المنطقة كلها . ولولاه لما كان لبلدته ليوجا ذلك الفريق الذى تفخر به .

كان الفندق ، لحسن الحظ ، خاليا او يكاد من النزلاء في هذه الفترة من السنة . ولم يكن يوجد أحد في هذا الطابق بالذات . اخذ موليير يقول بلهجته القبيحة :

ـ أصابة بسيطة لا خطر منها ... لو اننا علمنا انه هو ... يا للمصيبة ... لقد كنا نريد عمل خدعة ووقيعة للقسيس ... موضوع هزر وضحك ..

انتصب اندريس جالسا في السرير الذى يرقد عليه وقال :
ـ انا بخير ...
واذ سمع الشابين يرددان :
ـ لو اننا علمنا ... هل تظن اننا ...
صاح فيهما :

ـ انصرفا ... واياكما والتفوه بكلمة عما حدث ... هذا مفهوم ؟.. والا قدمت فيكما شكوى .

عرض موليير أن يبقى ليقود السيارة اذا ما شعر اندريس بالتعب ، وقال بارديو انه سيعود بالسيارة الأخرى . اكدا ان ليس فيما اتياه ما يدعو الى التفاخر والحديث ... ولكن اندريس صرخ فيهما :

ـ اغربا عني كلاكما .

وهنا قالت توتا ، التى لم تفتح فمها طوال الوقت الذى قضته تضمد جراح اندريس ، من غير ان ترفع عينيها الى الشابين :

ـ على كل حال ، فى استطاعتكما ان تشهدا للسـيد الراعى بأنه ...

القى الشابان نحوها نظرات الشك والريبة ولم يرد بارديو الا بعد أن صار فى ردهة الفندق قال :

ـ ما معنى هذا ..؟ ما الذى يدل عليه..؟ انه يثبت ...

رفع ابهاميه على هيئة قرنين الى جانبى القلنسـوة التى تضم رأسه الضئيل .

اراد اندريس أن يندفع خلفه ولكن توتا منعته قائلة :

ـ اتركه ... اتركه ...

انتظرا حتى ضاع على البعد صوت السيارة التى استقلها الشابان . كان اندريس هو المستلقى الآن على السرير وتوتا هى التى ترتدى ملابسها على عجل بينما الكهربا تنشر ضوءها الساطع فى انحاء الحجرة . قال لها اندريس متضرعا :

ـ لماذا ترتدين ملابسك ؟ مادمت تستعدين للنوم ؟.

لم تجبه بشيء وانما فتحت خزانة الملابس وراحت تخرج منها ثيابها قطعة بعد قطعة . انتصب اندريس واقفا وقال :

ـ هل جننت ؟ لم تعد هناك قطارات فى تلك الساعة .

قالت انها ستستقل قطار الصباح التالى الذى يقـوم فى الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين ، وانها ستنتظر الى الغد وهى مرتدية ملابسها جالسة على السرير . سألها الى أين تنوى الذهاب فلم يحصل منها الا على هذا الرد : « الى أبعد ما يمـكن الذهاب اليه ... » أكدت له أنها سوف تكتب له بمجرد أن تستقر ، حتى يستطيع اللحاق بها . أحس بأنها على استعداد لتبذل له كل مايطلب منها من وعود حتى تتخلص منه . وكانت توسلاته تتلاشى وتذوب عند قدمى هذه المخلوقة الصماء الغائبة فى تلك اللحظة .

- كأني اسمع صوت السيارة .

ذهب جراديز الى الباب ففتحه ووقف يتسمع . الضباب يمكن ضوء القمر وليس في هذا الكون صوت غير خرير الباليون وقد ضاعفت الأمطار الاخيرة من مياهه . لم تغادر ماتلد مقعدها بالقرب من النار . لو ان اندريس لعرفته ماتلد في الحال ، انها لا تخطىء ذلك . قالت متململة : « ان نراه بعد اليوم ... » هز جراديز كتفيه وقال :

- لقد تأخر ... ولكن ضعي نفسك مكانه ... لا تخافي انه رزين ...

فجأة . قامت ماتلد منتصبة وقالت :

- انه هو هذه المرة ...

قال جبريل انه لم يسمع شيئا . ولكن سرعان ما ظهر على البعد صوت محرك وسط الصمت اخذ يقترب . قالت ماتلد

- انى اسمعه ينقل الحركة . انه يدور في منعطف الطريق .

دخل اندريس وخلع سترته القديمة المصنوعة من جلد الماعز ولم تبد عليه الدهشة حينما رآهما متيقظين في منتصف الليل .

صاحت به ماتلد :

- يا عزيزى ، لقد اصابك سوء . شفتك متورمة ... وهذا النتوء في جبهتك ..؟

قال انه ارتطم في احد الجراجات وان الامر هين ؛ ثم اقترب من النار دون ان يجيب على الاسئلة التى تلقى عليه . اشار فقط الى انه جائع . اسرعت ماتلد تعد المائدة وكانت قد احتفظت بشيء من الحساء الساخن . جلس يأكل محدثا ضوضاء كما لو كان في احدى الحانات . جلس جبريل يدخن بعيدا عن المائدة من غير ان يبعد نظره عن ابنه . اما ماتلد فكانت على العكس تقوم على خدمته من غير ان تنظر اليه . لم ترد ان تقبله لانه بدا كريها في نظرها .

- الآن يا صغيرى ، يجب أن تذهب الى الفراش .

افرغ كأس النبيذ دفعة واحدة واقترب بمقعده من النار ،
كان بادي الضيق ، زائغ النظر ، مشوه الفم . وكانت اصاباته تضفي عليه مظهر الصبي الشرير الذي تضارب لتوه . قال :

ـ لا اشعر بحاجة الى النوم . ثم ليس لدينا وقت نضيعه ، يجب علينا أن نتدبر امرنا ... مالم يكن بكما تعب وارهاق ...

رد عليه جبرييل :

ـ اوه ! انا لم أعد اعرف للنوم معنى منذ ان عرفت شيئا اسمه الليل ... اما انت يا ماتلد ... اذهبي الى فراشك ... فانت تنامين واقفة ...

اذ بدأت ماتلد تعترض على ذلك نظر اليها جبرييل نظرة ذات معنى تقول : « اتركينا منفردين . » .

لم يكن يرضيها ان تتركهما منفردين ، فهي لا تدري ما سيقوله هذا الرجل لاندريس ولكنها واثقة ان الفتى في حاجة الى من يدافع عنه . وهي في الوقت نفسه تتفق مع جرادير في رغبته وتشعر بانها شريكة له متواطئة معه . سيسوى كل شيء ... ولكن بأي ثمن ؟... ما الذي تخشاه ؟ لا ، انها لا تخشى من شيء . انها مع ذلك تتردد في الخروج . عندئذ اقترب منها جبرييل ودفعه بعطف الى الباب وقال لها بصوت خافت :

ـ مستحيل ان احدثه امامك ...

ـ عن أي شيء تحدثه ؟.

ـ انت فاهمة جيدا ما اعني !...

اشارت بما يفيد انها لا تفهم شيئا . هز كتفيه واشار لها على اندريس الذي جلس ممددا رجليه أمام النار ومديرا لهما ظهره .

هزت رأسها هزة غير ملحوظة ولكنه فتح امامها الباب وتقهقر ليتركها تمر ، فالتفتت مرة اخرى وقالت بصوت فيه تأكد وحزم :

ـ لا يا جبرييل ، انا لا أفهم شيئا .

عاد الى ابنه فوجده واضعا يديه الكبيرتين على وجهه . ظن انه انما يتقي بهما وهج النار ، ولكنه رآه يبكي فقال له :

ـ هيا ، لا تضايق نفسك . سنتكلم فيما بعد ...

تمخط الشاب محدثا جلبة بينما التشنجات تنتابه كما كان يحدث له فى طفولته بعد أزمات الغضب . جلست الى جـواره برجير تسند راسها على يده وتنظر اليه . رأى جبرييل أن ينتظر الى ان يهدأ الشاب والى ان يصبح مستعدا للاصغاء اليه . لا داعى للتعجل فالليل بطوله امامهما . لم يكن يدرى كيف يبدأ حديثه مع ابنه ولكنه كان على ثقة من النصر شاعرا بالتأييد والقوة . ضغط على يد اندريس وقال له :

ـ ما وراءك .

ـ لقد رحلت .

ـ خيرا فعلت . نعم ، خيرا فعلت . انها بذلك تترك لنا المجـال واسعا لنعيد كل شيء الى نصابه .

ـ لست أدرى الى اين ذهبت ...

ـ الى باريس يا صديقى ، ان باريس هى دائما محط هذاالنوع من الطير ... هيا ، لا تحزن سنجدها لك ... لن تنقضى ثمانية أيام الا ويصلك خطاب منها ..

ـ نعم . لقد وعدتنى بذلك .

عندئذ صاح جرادير :

ـ اذن ، لماذا تبكى ؟...

ابتسم الشاب . لقد عاد اليه الأمل من جديد . سأل أباه :

ـ هل من جديد فى القصر ؟.

اقترب جرادير بمقعده منه والقى بحزمة من الحطب فى النار وراح ينظر لحظة الى اللهب ينتشر من عود الى عود ثم قال :

ـ لا . لا جديد الآن . يجب أن تنظر الى المستقبل ، المستقبل القريب . مهما قيل فان المريض العجوز قد اشرف على النهـاية ولن يستمر قلبه فى المقاومة طويلا ...

رد عليه أندريس يائسا :

ـ اذا كان هذا كل ما تعلق عليه الآمال ...! ثم ماذا بعد ذلك؟ هل تعتقد ان كاترين ستغير رأيها ؟ أبدا ..! انى اعرفها .. على انى أنا ايضا لم اعد راغبا ... لن ارضى بأى ثمن ...

وقف اندريس وراح يدور في ارجاء المطبخ وهـو يردد في لهجة الاستخفاف :

ـ اذا كان هذا كل ما أمكنك الوصول اليه !...

قاطعه جراديز قائلا :

ـ لا يتعلق الأمر بكاترين . طبعا ربما امكننا ان نحاول ، في الوقت المناسب ... ولكني فاهم أنك لا تغفر لها ... على ان هناك ما هو احسن ....

ثم خفض من صوته وهو يضيف :

ـ انهما متزوجان وفقا لنظـام المشـاركة فيما زاد على البائنة .. نعم ، العجوز وتاماتي .. ستحصل اذن عندما تصبح أرملا على كل ما آل اليها من جهة دوبوش فضلا عن نصف ماحصل عليه الزوجان في خلال الزوجية . كل ما اشتراه مني العجوز .

استمع له أندريس منفرج الفم مقطب الجبين وقال :

ـ كل هذا لا يعنيني في شيء .

ظل جراديز يتابع كلامه كأن شيئا لم يحدث وكأنه انما يشرح مسائل ذات طابع عام :

ـ يحدث كثيرا في العائلات ، من اجل المحافظة على الأملاك ، أن يلجأ الناس الى عقد زيجات قد لا يتصورها العقل . على كل حال ، تاماتي وأنت لاتربطكما الا قرابة بعيدة ، فهي ليست سوى ابنة خالة امك .. سيكون الزواج بطبيعة الحال زواجا أبيض . هذا مفهوم وبعد تسوية الأمور سيعود كل شيء بينكما كما كان من قبل .

ـ لقد جننت يا أبي ..

مال اندريس على أبيه يهزه من كتفيه ويقول :

ـ أنت مجنون .. كل الجنون ..

ـ ما دام الأمر شكليا فقط .. طبعـا لن تستطيع الزواج مادامت تاماتي باقيـة على قيد الحياة .. أما اذا ماتت فخيرا تفعل ، لأنك ستصبح اذن حرا ..

ـ أولا ، هل تراها تقبل تمثيل هذه المهزلة ؟ . مهما كانت الصفة الشكلية البحتة .. انى أعرفها ، انها تعتبرنى ابنها ، ان الأمر سيبدو فظيعا فى نظرها .

أخذ جرادير يهز راسه وهو يكرر : « كلا . كلا .. » بصوت فيه ابتسامة الواثق الذى دبر الأمر من قبل .

ـ انها ستوافق على كل شيء . أؤكد لك هــذا .. على أن لدينا ما يكفى من وقت لاعدادها لذلك .

ـ وماذا يقول الناس هنـا فى ليوجا ؟ هلا فكرت فى وقع النبأ عليهم ؟ .

قال جبريل بلا تردد :

ـ يمكن كتمان خبر الزواج . ولـكن هـل هـذا ممكن مع وجود كاترين فى البيت ؟ هذه مسألة تلزم دراستها ، فى الحقيقة يجب أن تعلم انه مادام الأمر يتعلق بترتيبات تتعلق بالمصالح فان أهالى هذه المناطق يسلمون بكل شيء .

ـ ولـكن يا أبى ، لقد اصغيت اليك .. الى كلامك .. ماذا تعنى بكل هذا .. ان الخال سيمفوريون ما زال حيا يرزق ، فى كامل الحياة ..

ـ حيا ؟. هذا صحيح . أما فى كامل الحياة ؟ فلا ..

ـ قد يستمر على هذه الحال سنوات عديدة .

ـ أنت تحلم يا فتاى المسكين .

ـ على كل حال سيعيش طويلا . وانا لا طاقة لى على الانتظار . كلا . انى ارفض ان أعيش فى هذا الشك .

راح أندريس يلف ويدور فى المطبخ وأبوه يتـابعه بنظراته ثم فجأة قال الأب :

ـ لن تعيش طويلا فى هذا الشك ، امنحنى ثقتك .

توقف أندريس عن المشى لينظر الى الرجل الذى يتكلم هكذا والذى لم يكن يعرف صوته ، كان جرادير جالسا على المقعـد المنخفض ، واضعا ذراعيه بين فخـذيه ويحاول اخفاء وجهه . اندريس لا يرى منه غير ظهره الضئيل وكتفيـه النحيلتـين تحت

سترته المصنوعة من الصوف الانجليزى . انه يسمع هذا الرجل المجهول له وهو يتنفس سريعا . خطا الشاب بضع خطوات وفتح الباب المفضى الى الحديقة . الليل صاف وبارد وخرير الباليون يختلط مع حفيف الرياح الضعيفة ، صرخ فيه جرادير انه ينتفض من البرد ، مر اندريس بيده على جبينه وعاد الى أبيه يسأله ضاحكا :

ـ هل أنت نبى تكشف عن المستقبل وترجم بالغيب ؟ .

انه يضحك ليبدد ما به من دهشة وايعود الى حالته العادية البسيطة،اما الآخر فقد ظل كما هو منحنيانحو النار ورد عليه قائلا:

ـ المستقبل هو الصورة التى نضفى نحن عليها ..

قال هذا ورفع عينيه نحو الشاب فرآه فى حالة اضطراب وقلق :

ـ ما بك يا أندريس ؟ لماذا تنظر الى هكذا ؟ هل قلت شيئا عجيبا ؟ .

ـ لا . لا شىء ..

ظل الفتى يهز رأسه كأنما يريد أن يطرد منها خاطر مخيفا كريها ، وفجأة برزت الى ذهنه ذكرى توتا ، لقد اختفت من مخيلته لبضع دقائق وها هى تعود اليه ثانية ويحس به تلسعه فى كيانه وتلتصق بوجوده الخفى وتمتزج فيه .. بقى جرادير صامتا ، لقد قال كل ما عليه أن يقول وهو الآن ينتظر .

مزلاج الباب الموصل الى السلم تحرك ببطء ودخلت ماتلد ، ارتدت ثوبها الليلى المصنوع من الصوف البنى وضممت شعرها استعدادا للنوم ، لم يسمع لخطوها صوت لأنها انتعلت شبشبا خفيفا . قالت :

ـ نزلت ثانية . لقد كنت قلقة ، هل تعلمان كم بلغت الساعة الآن ؟ .

ركز اندريس نظره عليها لبضع ثوان فى اصرار غريب .. سألت :

ـ فيم تكلمتما ؟ ..

ـ والله ! لست أدرى .. ما الذى تكلمنا فيه يا اندريس ؟ .
أشار الشاب اشارة مبهمة بيديه وخرج مسرعا ، فتبعته ماتلد ومعها جرادير .

صعد ثلاثتهم الى أعلى المنزل وكان السلم الخشبى يئن تحت خطواتهم ، حينما وصلوا الى الطابق الذى به حجرات النوم انفتح أحد الأبواب ورأوا شبحا متهالكا يسير الى جوار الحائط .. سيمفوريون ديبا فى لباسه الليلى ، مخيف بضعفه وهزاله .

ـ ماذا تفعلون انتم الثلاثة فى مثل هذه الساعة ، لقد أوشك النهار على الظهور .

قالت ماتلد انهم فى قلق بسبب عدم عودة اندريس وانها آسفه لايقاظه من نومه ، ولكن العجوز رد عليها قائلا :
ـ انت كاذبة . لقد سمعت السيارة .. اندريس عاد منذ زمن طويل .. أريد أن أعرف ما الذى فعلتم .
قاطعه جرادير وهو يرفع صوته :

ـ أليس لنا الحق فى الكلام الآن ؟ اذا كان فى هذا البيت لص ، فان هذا اللص ليس بيننا ..
استند ديبا الى الحائط وراح يحاول الكلام فلا يجد كلاما ، ظهرت كاترين فى لباسها الليلى هى الأخرى واقتربت من ابيها ، عادت ماتلد تشرح له انها انتظرت الى أن يعود اندريس وان جبريل خاف كثيرا لتأخر ابنه ولكن كاترين لم تعر كلمات امها أى التفات وأمسكت أبيها من كتفيه وجذبته الى داخل حجرته .

سمع الثلاثة الآخرون مفتاح باب الحجرة وهو يدور ، أشار جرادير الى ماتلد وأندريس بأن يتوقفا لحظة وان يحبسا أنفاسهما سمعوا من خلال الفاصل القائم بين الغرف والدهليز صوت كاترين وهى تقول :
ـ لقد آذيت نفسك .. ماذا أفدت .. مع انك تعلم انى ساهرة عليك ..
ـ الدليل على انك لا تسهرين ..
ـ الست فى حاجة الى النوم ، أنا أيضا ..

تمتم العجوز بعض كلمات لم يتبينوها ، وصاحت كاترين من سريرها الذى عادت اليه تقول لأبيها :

ـ أما عن هذا فلا ، يا أبى المسكين ، انت لست على صواب ، انى أراه قادرا على أشياء كثيرة ، الا على هذا الأمر ..

لم تتبادل ماتلد مع جرادير النظرات ، حاولت أن تقبل أندريس ولكنه أدار عنها رأسه .

ارتفعت أصوات المزالج تحكم غلق الأبواب وأصبح القصر بيتا من بيوت الريف القابعة وسط الضباب وقد هجع كل من فيها قبل صياح الديكة بوقت قصير .

ـ ١٠ ـ

فى اليوم التالى ذهبت ماتلد ، بعد أن غسلت وجهها ، تدق على باب زوجها لتتلقى منه اوامره قبل ان تبت فى طعام اليوم ، ولكنه لم يصرح لها لتدخل كما هى عادته وانما جاءت كاترين توارب الباب وتقول :

ـ لقد قضى ليلة قاسية على أثر الخوف الذى انتابه .. وهو الآن يستريح .

ـ حسنا ، سأتركه ينام .

ـ لقد كاد يختنق هذه الليلة يا أمى ، لقد اعتقدت أنه على وشك الموت .

ـ لماذا لم تأتى لتناديني ؟ .

نظرت كاترين لأمها وقالت :

ـ كيف ذلك يا أمى ، انك ما كنت لترضين بذلك .. ان مجرد رؤيتك كان كفيلا بأن يعيده الى الأزمة من جديد .

ـ لم أكن قط مخيفة لأبيك يا صغيرتى كاترين ، ان له دائما ثقة فى .. ماذا تقولين ؟ .

ردت عليها كاترين فى غضب :

ـ لا شىء ..

ثم اغلقت فى وجهها الباب .

ظلت لحظة لم تحس خلالها بالغيظ ، لقد كان احساسها هو احساس الانفراج الذى يأتى به النبأ بعد طول انتظاره ، لم تسأل نفسها عن مدى هذا السرور ولا عن مصدره .. « لابد أن كاترين تبالغ حينما ظنت أنه على وشك الموت .. أليس يبدو عليه أنه على وشك الموت كلما جاءته الأزمة وانتابته الاختناقات » .

وضعت يديها الكبيرتين الجميلتين على حافة السلم اللامعة ومن فوقها قطرات المطر تدق الزجاج الذى منه ينحدر ضوء النهار ، مطر هادىء رتيب مستمر .

قالت ماتلد لنفسها :

ـ مطر الشتاء هذه المرة .. ستعود حقول فرونتناك بركا ومستنقعات .

هناك انسان يجب أن تقابله فى الحال لتنقل اليه نبأ قد يهمه كثيرا معرفته وان كان يبدو للوهلة الأولى غير ذى خطر .. تخطت بضع خطوات فى الدهليز ودقت باب جرادير . صاح من الداخل يأذن الطارق بالدخول ، وما أن رأى ماتلد أمامه حتى ظهر عليه الاضطراب وراح يعتذر :

ـ لم أكن أعلم ان القادم هو أنت . والا لما سمحت لنفسى .. كان مستلقيا فى فراشه يدخن ويقرأ كتابا ، قالت ماتلد ضاحكة :

ـ اذا كنت تظن أنى أنظر اليك ! ..

ضم أطراف ردائه ولكنها لاحظت أن لهذا الرجل ذى الخمسين . صدرا ناصع البياض وجسما كجسم الصبيان . ان هذا الجسم لم يتغير منذ أن رات جرادير الصغير وهو واقف عار فوق الجسر متردد قبل أن يغوص فى قناة الطاحون ، وقد تلألأت فى الشمس قطرات الماء على كتفيه .

ـ اسمع يا جبرييل ، أريد أن أنبهك الى ضرورة عدم تكرار لعبة مساء الأمس ...

ـ أية لعبة ؟ .

وكز عليها نظرته الصافية فأحست بالضيق وقالت :

ـ أنت تفهمني جيدا . لقد تعذب زوجي كثير الليلة الماضية حتى أن كاترين ، التي تفسد كل شيء عن عمد لتسيء الي ، قالت انه كان على وشك الموت ..

دعك جرادير عقب سيجارته في المنفضدة فرأت ذراعه العاري الطري الذي تعرفه ويده التي تظللها شعيرات صفراء ، قال في نبرة هادئة :

ـ لا عجب في ذلك .. لقد قال لي كليراك ان اي انفعال شديد قد ..

قاطعته ماتلد بعنف :

ـ لا ..! لا ..!

ـ لماذا تقولين .. لا ؟ .

ظلت صامتة وذهبت تسنند برأسها الى زجاج النافذة وقد كساد المطر كل شيء غارق تحت الماء ، ربما استمر المطر هكذا لبضعة أسابيع يحاصر البيت والحديقة ويعزل القوم هنا عن العالم الخارجي . سيعيشان معا هذه الفترة في تلك السفينة المغلقة كسفينة نوح . سألها جرادير فجأة :

ـ هل تحبين زوجك يا ماتلد ؟ .

ـ يا له من سؤال ..! بالتأكيد .

ابتسم واشعل سيجارة . قالت له :

ـ كيف اشرح لك ؟ ليس من عادتنا هنا أن نثير مثل هذه المسائل ، في الواقع ، لقد ظل سيمفوريون بالنسبة لي كما كان قبل زواجنا ، هل تذكر ؟ . كان يدير ممتلكاتي منذ وفاة أبي . وظل يفعل ذلك .. لم تكن بيننا أبدا عاطفة ملتهبة .. انا له شاكرة لانه ساس شئوننا سياسة حسنة .

ـ نعم يا عزيزتي ، ولكن لابد أن جاءت فترة كان فيها اكثر من مجرد مدير لشئونك .. كاترين لم تهبط اليك من السماء ..

ضحكت وهي تقول :

ـ اوه ! لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد .. واستمر فترة قصيرة .. شهرين او ثلاثة على الأكثر . سرعان ما ادرك على أثرها أن لا ضرورة للاستمرار . وان لا قبل له على ذلك . أقسم لك صادقة انى أكاد لا أذكر ـ بل اكاد لا اتخيل ـ كيف كانت اتصالاتنا الزوجية ..

ـ اذن أنت لا زلت ، فى الواقع ، عذراء ، يا ماتلد .

شعرت باللهيب ينتشر فى وجنتيها وعادت الى النافذة ؟ وهى تهز كتفيها ، عاد يقول :

ـ عذراء ، يا ماتلد ، انت تتركين كل شىء ينتهى من قبل أن يبدا شىء ... ويحدث كثيرا ان تكون الحياة أرحم بنا منا على انفسنا .. نعم .. والا تكتفى بالمصير الذى استسلمنا نحن له وقبلناه . وان تمنحنا بعد اليأس كل ما تصورناه بعيد المنال عسير التحقيق .

تمتمت قائلة

ـ لست أفهم ما تقول ...

ولكنه استمر فى حديثه كما لو كان واثقا من مشاركتها له فى اغراضه العميقة :

ـ ما زلت أذكر ماتلد الصغيرة .. كم كانت بريئة !! كم كانت طاهرة ! ولكن .. هل تذكرين « المخبأ » ؟ .

ردت عليه بعنف :

ـ كلا .. اسكت .

بدا وكانه يحلم متمددا على السرير وشعره الأبيض نافر فوق جبهته . وبعد برهة قال

ـ هل رايت اندريس هذا الصباح ؟

ـ كلا . لم اره بعد . ليس لدى ما أقوله لأندريس ...

ـ علمت طبعا أن حبيبته قد طارت ؟ نعم رحلت . يجب علينا الاحتفاظ به هنا من غير أن يركبه الغيظ .. انى فى الحقيقة اتمنى أن تكتب له رسالة لتضع الصبر فى قلبه ، هيا

يا عزيزتى ، اذهبى الى فتاك أندريس .. أما أنا فلن تكون هذه المهمة سارة لى .. ويجب أن اذهب لأشرب كأسا مع كليراك .. نعم الدكتور وأنا أصبحنا يعبد كل منا الآخر . لقد أهديته زجاجة من نبيذ الباستى ، من الصنف الأصيل ، الذى يخبئونه فى البارات ولا يخرجونه لأول قادم .. سيلهب له حلقه وسيقوم فى الليل ليروى ظمأه .

خرجت ماتلد مندفعة فى سرعة أخجلتها ، سألت نفسها :

ـ ماذا بى ؟ ..

ان من حقها أن تذهب لترى أندريس ، ومن الحمق ان تحرم نفسها من ذلك . هذا فضلا عن ضرورة مراقبته ، انها تعرفه معرفة حقيقية وتعرف أنه لن يتحمل الاستسلام للألم . شعرت بالحمى تجتاح جسدها وتملؤه خوفا وأملا .. دخلت من غير أن تدق الباب كما كانت تفعل دائما .. وجدته واقفا أمام المرآة مشمرا عن ساعديه .. يحلق ذقنه .. التفت نحوها حانقا وقال :

ـ هل هو السوق هنا ؟ ما هذا ؟ هل يجب على أن أضع المزلاج دائما ؟ .

ظلت واقفة على عتبة الغرفة مشدوهة ثم قالت :

ـ يا أندريس .. يا عزيزى .. حقيقة انى ما زلت أعاملك كصبى صغير .

هذه الكلمات هى خير ما يدخل الهدوء الى نفسه .. اقترب منها وقبلها ..

ـ وأنت ! أنت خالتى تاماتى القديمة ..

قبلها ثانية ولكنها لم ترد اليه قبلته وغادرت الغرفة .. فتبعها فى الدهليز وسألها :

ـ ألم يحضر بعد ساعى البريد ؟ .

ـ لا يا عزيزى . انه يجىء دائما بين الحادية عشرة والظهر كما تعرف ..

لن يحيا بعد اليوم الا على أمل قدوم البريد . فكرت ماتلد

فى ذلك وقالت فى قرارة نفسها : ان المرء لا يستطيع التفكير الا فى شخص واحد ، شخص واحـد فقط هو الذى له وجود فى نظرنا أما الآخرون جميعا فنحن نتظاهر بالتسليم بوجودهم ..». « خالته تاماتى القديمة ! » . هزت رأسها كأنما تبعد عنها حشرة ضارة تحوم حولها ، ثم ذهبت الى المطبـخ لتصدر تعليماتها الى جيرسانت ، فى أثناء عودتها اصطدمت بكاترين :

ــ كنت أبحث عنك يا أمى . نعم . ان أبى يريد أن يراك ..

وأضافت الفتاة فى صوت حاد :

ــ أوه .. لا داعى للجرى ..

كانت ماتلد لاهثة عندما دخلت على زوجها وهو قابع كعادته فى مقعده ، منذ زمن طويل لم تره مستلقيا فى سريره . لم يكن قد حلق ذقنه أو اغتسل ، شعرت بنظرته مسلطة عليها تنفذ الى أعماقهـا وسمعت الصفير الذى يخالط تنفسه وهو يدخن احـدى السجائر الطبية التى تخفف من أزمات الربو . قال لها :

ــ اجلسى على مقربة منى لكى أتحاشى الاجهاد قدر الامكان حالتى العـامة ليست أسوأ مما كانت ولكن أعراض الاختنـاق هى التى تزداد .. ان الأزمة التى تصيبنى فى فصل الخريف هى أسوأها جميعا وهى التى تستمر طويلا .. أردت أن أحدثك .. أن أوجه لك سؤالا .. اصغى الى يا ماتلد ، على الرغم ممـا حدث تلك الليلة ، مازلت واثقا بك .. اريد التأكد من انك لسـت مع الآخرين ضدى .. انك لست متواطئة معهم . اذا وعدتنى بذلك صدقتك بقولك ، كم أنا بحاجة الى ذلك ! كاترين مازالت طفـلة ولا يمكن الافصاح لها عن كل شىء . ثم هى عاطفية مندفعة كثيرا .

حقيقة ، اذا كان فى العالم كله مخلوق لم يثر لدى سيمفوريون ديبا شكا أو ريبة فهذا المخلوق هو زوجته ، وهى تعرف ذاك كما تعرف أيضا مقدار ما تتمتع به من شخصية فى نظره ؛ ولـكنها تجهل السبب العميق لذلك ، ان الفترة من حياتها الزوجية ، تلك الفترة التى لم تزد على شهرين او ثلاثة اشهر والتى أشارت اليها منذ لحظة أمام جرادير قائلة انها لا تكاد تذكرها ، هذه الفـترة لم

ينسها سيمفوريون . مازال الزوج العجوز يذكر الفشل المخزى الذى منى به وقتئذ والنجاح الضئيل الذى وصلت اليه محاولاته وهو يشعر بالامتنان لماتلد لأنها لم تحنق عليه لذلك ولم تعايره به ، وانما ظلت دائما تبذل له الرعاية والاحترام وخالص النصح الا حينما يتعلق الأمر بمصالح أندريس الصغير .

قالت له وهى تشد على كل كلمة من كلماتها :

ـ لا توجد مؤامرة بالمرة ، ولو كانت هناك مؤامرة ووصل الى علمها لأخبرتك عنها ، ولكن لا تشكرنى الآن لأنى مازلت انا مقتنعة بالمؤامرة التى دبرتها انت ضد اندريس .

ـ لا يا عزيزتى ، لا ، أقسم لك .. طبعا ، كنت أعلم أن اكاترين حانقة عليه .. ولكنى كنت حتى اللحظة الأخيرة اعتقد أنها سوف ينتهى بها الأمر الى قبول الزواج منه ، فأنت تعلمين كما أعلم أنها له مولهة .

ابدت ماتلد شيئا من الدهشة عند سماعها هذا الكلام فعاد يقول مؤكدا :

ـ طبعا ، بالتأكيد ، والا لما حنقت عليه كل هذا الحنق بسبب عزوفه عنها . كثيرا ما قالت لى : « لو أنه على الاقل حاول ايهامى .. لو انه تظاهر أمامى .. » انها كانت تعرف . قبلكم جميعا ، أمر علاقة أندريس .. على ذلك .. تفهمين .. كنت على حق حينما ظننت انها ربما انتهى بها الأمر الى قبول الزواج منه ، على رغم تأكيداتها لى بعكس ذلك .. واعترف لك أنى كنت اخشى هذا القبول منها . فأيا كان مقدار حبك له ، ياعزيزتى ، تصورى ما هو عليه أندريس .. وماذا يكون بالنسبة لنا زوج ابنة مثل أندريس !.. لا عيب فى الشاب نفسه ولكنه ابن ..

نظر الرجل المريض فى رعب الى ناحية الباب وخفض صوته وراح يكمل حديثه وقال :

ـ انت لا تعلمين ما اعلم . انت تجهلين ما الذى يستطيعه جرادير ، وما قد يحدث بين يوم وآخر . نعم ان لدى عيونى

الساهرة .. وستحمدين لى يومئذ كلّ ما عملته من أجل الحيلولة دون أن يصبح هذا الوغد حما ابنتك ..

تهدج صوته وبان عليه الانفعال لدرجة أخافت ماتلد وقال :

ـ سينالنا العار كل العار يومئذ .. اذا ما جاءوا لالقاء القبض عليه عندنا .. انه على كل حال لا يمت الينا الا بقرابة النسب ، ولكن بسبب أندريس يجب اعتباره فى صورة ما من العائلة .. لا أستطيع أن أقول لك شيئا ليس لى الا كاترين ».

اقتربت ماتلد بمقعدها منه وقالت له بصوت هادىء :

ـ يمكنك أن تثق بى . أنت تعرف أن السر عندى فى بئر . على انى من جانبى لا اريد أن يتم زواج أندريس من كاترين ..

هذه هى المرة الاولى التى تزعم فيها أنها لا تريد هذا الزواج بعد أن كانت تصرفاتها تدل على اعتقادها ان سعادة أندريس انما تتوقف على اتمام هذا الزواج . ضغط الرجل المريض على يد زوجته معبرا بذلك عن ثقته واغتباطه ، إنه يستطيع بعد ذلك أن يقص عليها كل شىء :

ـ الدليل على أنها راغبة فيه هو رفضها قبول عريس هائلّ هو ابن بربينى .. نعم بربينى شريكى فى المصنع .. انت لاتجهلين مقدار ما تمثله املاكهم على الرغم من انخفاض ثمن الأراضى .. انه شىء كثير . ثم سترين الاراضى وقد استعادت أثمانها العالية يوم يخفضون قيمة الفرنك .. سيضطرون الى تخفيضه .. هيه ؟ يا عزيزتى المسكينة ماتلد ، هل كان من الواجب أن نبقى منفصلين عن بعضنا منذ سنتين أو ثلاث حتى لا أجرؤ على مفاتحتك فى شأن هذا المشروع !..

قاطعته في قسوة قائلة :

ـ طبعا ، لم يكن فى استطاعتك محادثنى عن هذا المشروع الخاص ببربينى وفى نفس الوقت ايهامى بأنك تريد تزويج كاترين من أندريس .. أما الآن وقد اخذت منه مزرعتى سرنيس وباليزاو ».

ـ فكرى جيدا . ان اباه كان سيحمله بأية وسيلة على بيعهما . إنت تعرفين أنه انما يقود أندريس كما يشاء . وكان يجب الا تخرج

سرنيس وباليزاو من الأسرة . الست توافقينني على ذلك ؟ هذه هي البديهة بعينها . لو اشتراهما غريب لكانتا فاصلا بين اطياننا ولمنعته املاكنا من ان تكون كتلة واحدة . لقد تصرفت وفقا لما يمليه على الواجب . انى لم أكذب ما دمت حيا حتى اللحظة الأخيرة، كنت أخشى أن تقع الفتاة الصغيرة بين يدى أندريس . أما هذا البائس فقد جرده أبوه الخسيس من ماله قبل أن يصل الى يده . ولكنى ساعوضه عن ذلك . فطالما انا على قيد الحياة سأتولى جميع نفقاته وسيحصل على أكثر من ايراد سرنيس وباليزاو اللتين يجب منعهما من الخروج بعيدا عن العائلة . وبعدى ، اذا قدر لك أن تعيشى بعدى لأن الأعمار بيد الله ، بعدى سيكون لك أن تعطيه ما تشائين نقدا .. بطبيعة الحال .. لا قيراطا واحدا .. أتقسمين على ذلك ؟ . ولكن أين سيكون أندريس فى ذلك الوقت ؟ . انى أرثى لحاله .. لا عيب فيه ، ولكن الأشياء تجرى هكذا .. الأولاد يدفعون من آبائهم .. هذه سنة الكون .

أصغت اليه ماتلد بانتباه عميق . لقد استردت كامل وعيها وهى تريد أن تعرف ما الذى يهدد جبرييل لتنبهه اليه .. لأنها لا تسلم بسنة الكون هذه ولا تريد أن تنطبق هذه السنة الجائرة على أندريس .. قالت لنفسها : ولكن جرادير أقوى من كل من عداه واذا ما بلغه الامر فهو قادر على تحاشى الضربة التى يراد توجيهها اليه .

— اسمع يا سيمفوريون . أنا سعيدة لانجلاء هذا الأمر فيما بيننا ، وأرى أنك فيما يتعلق بأندريس لم تتصرف التصرف اللائق. ولكنى لم أعد أشك فى حسن نواياك .

تناول العجوز يد زوجته وضمها . استرسلت تقول :

— فقط ، أطلب منك أن تعيد الى ثقتك . أنت تعلم مقدار حبى لاندريس ... لذلك أريد أن أعرف ما الذى يهدد اباه ... لأجعل الصبى على حذر ولنجد سبيلا الى ... ترحيله على عجل في استطاعتنا مثلا أن نبعث به الى النرويج ... لقد كان عليه أن يزور مصانع الورق هناك ...

خفض العجوز صوته وقال لها :

ـ اسمعي ، اقتربي مني . منذ زمن بعيد عرفت من جرادير نفسه أن هناك امرأة تبتز أمواله عن طريق التهديد . لم يكن من العسير تخمين ذلك ، لانه اذا كان رجل من هذا الصنف يقبل أن يستغل طوال هذه السنوات فمعنى ذلك ان الطرف الآخر يمتلك أسلحة رهيبة ... لقد بحثت عن عنوان آلين هذه وكفاني لذلك ان أراقب بريد جرادير اثناء مدة اقامته الأخيرة هنا ... انه صعب المراس ولن يترك هذا البيت الا بعد ان ينال مني ما يشاء .. وانا يا ماتلد ارى نفسي ضعيفا أمامه ... بسبب صحتي ... يرى كليراك ان حالتي تتقهقر ... لم يقل لي مثل ذلك من قبل ابدا ... وهذا امر لا ابوح به الا لك أنت .. لقد اصبح كليراك متشائما فجأة على انى لا اصدق شيئا من ذلك لأني اشعر بحالتي وارى انها ليست سيئة الى هذا الحد ... ولكن يجب أن يرحل عنا هذا اللئيم . الست على هذا الراى ايضا ؟ يجب أن يرحل بأى ثمن ... لذلك كتبت لتلك المرأة آلين وردت على هذا الصباح تقول انها تتكفل بتخليصي منه . ستحضر هنا في وقت لا يتصوره ... هذه المسألة ستكلفني كثيرا هي الأخرى، ولكنى لن ادفع لها شيئا الا بعد أن يتطهر البيت من وجوده . انها مصممة هذه المرة على القضاء عليه تماما ؛ لعلمها انه أصبح فاقد الحيلة . هناك من يعرض على هذه المرأة ثروة محترمة لتتم هذه المهمة ... نعم أنت على علم بذلك ... المركيز دورت ... سبق أن رويت لك هذه القصة ... تلك الرسائل المحررة بخط زوجة المركيز والتي دأب جرادير على عرضها في كل مكان والتي انتهى به الأمر الى بيعها بمائة الف فرنك للزوج . ابنة المركيز كانت مخطوبة لشاب تركها على أثر هذه الفضيحة ... يقال انها مصابة الآن بالجنون ... ولكن هذه كلها أمور ليست لب الموضوع ، وانما الذي يعنينا هو أن المركيز دورت يريد رأسه، ويعرض الثمن للحصول عليها وقد قبلت آلين الصفقة . فاذا كان في الأمر ما يتطلب القاء القبض على جرادير او حتى مساءلته فقط ... فمن الخير أن يتم ذلك كله بعيدا عنا ... أليس كذلك ؟ بعيدا عنا كثيرا ... والا أصابنا من ذلك رشاش .

ارادت ماتلد أن تصرخ : « لا . لا تفعل .. من اجل أندريس .. » ولكنها توقفت ، فلن يوقف زوجها عن تنفيذ ما انتواه شيء . قررت

اذن الاستمرار فيما رسمته لنفسها وهو التظاهر بالحرص على مصالح الرجل العجوز والحصول منه على السر واخبار جبريل به. وهكذا ... من أجل اندريس وقفت فى صف النذل ... نعم نذل وان كان منذ لحظة فقط قد أثار فيها أعذب الذكريات بكلمة واحدة منه هى كلمة « المخبأ » ... رجعت بالذاكرة الى ثلاثين سنة مضت : لقد أسندت رأسها الطاهر الى هذه الكتف النحيلة واغلقت عينيها آمنه ... مازالت تذكر الى اليوم المطر العنيف الذى كان يتساقط من حولهما ... لم يمر فى حياتها شيء غير ذلك ... ان نصيبها كله من الدنيا ينحصر فى هذا « المخبأ » ... لم تنل شيئا غير هذا ، ولن تنال شيئا غيره ... لا شيء ... وبينما هى فريسة هذه الأفكار المتلاحقة كانت اذنها صاغية الى ما يرويه عليها زوجها:

ــ لقد كتبت لها رسائل نسبتها الى غيرى وبغير توقيع ، ذلك انى فيما يتعلق بالحرص والحيطة لا يتقدم على احد ... رسائل لا يبين فيها مصدرها . وخوفا من انها ربما احتفظت بغلافاتها فقد عهدت بها دائما الى بربينى فى أيام الاثنين عندما يذهب الى بوردو. لا ارسل شيئا منها من ليوجا فلم تعد بى ثقة فى عاملة البريد . بالاختصار : آلين هذه قادمة الى هنا يوم الاثنين ... بعد أيام ثلاثة. ستذهب كاترين الى المحطة لاحضارها . وبمجرد وصولها سنطلقها على غرفة جرادير الذى سيفاجأ بها وهو فى فراشه . لقد كتبت لى تقول:

« أؤكد لك انه سوف يعود معى يوم الثلاثاء بأول قطار ... » سيحدث انفجار ــ كما يقول اندريس ــ نعم . سيحدث انفجار عنيف ...

ثم أضاف وهو ينظر الى ماتلد فى قلق :

ــ ولكن ... اعلمى انى بذلك اؤدى خدمة للصبى . فبعد ضربتنا هذه سينسى سريعا كل شيء ، ويمكننا بعد ذلك الاحتفاظ به هنا . ما الداعى لتركه يسافر وينفق المال سيستمر فى الاشراف على الممتلكات كما لو كانت مملوكة له وينتهى الامر بكاترين الى الزواج من ابن بربينى ... هل أنت منصرفة ؟ ...

قالت له ماتلد بعد ان انتصبت واقفة :
ـ كلا . ولكنى أراك قد اكثرت الكلام وبدا عليك الارهاق .
ومرت بيدها على جبينه فتناولها وطبع عليها فمه الجاف . ثم قال :
ـ ستثور كاترين اذا علمت انى ابحت لك بهذا السر ... انها تسيء بك الظن ... بسبب الغيرة ... اما انا فلست نادما على شيء وانما أشعر على العكس بالاطمئنان يغمرنى ... انك كنت دائما تمقتين هذا الرجل ... ولك كل الحق فى ذلك ... من أجل ما فعله باديلا على الأقل ...

قالت بصوت فيه الصراحة :
ـ لست ادرى اذا كنت اكرهه ... اما كونى أمقته وأخشاه فهذا صحيح .
اطمأن الرجل المريض وراح يفرك كفيه سعادة ويطرقع اصابعه وقال :
ـ كم انا مطمئن ... ان دورك يقتصر على العنـــاية باندريس لتبعدى انتباهه . وبعد انزال الضربة تهدئين من روعه وتصورين له الوضع على خير صورة . انى اعتمد عليك فى ذلك .

ما كادت ماتلد تسحب يدها من اليد التى كانت تضغط عليها حتى دخلت كاترين والقت عليها نظرة شاكة مرتابة . ان سرور ماتلد عظيم كسرور الاطفال حينما يتاح لهم الاخبـــار عن نبأ هام . ان الكارثة التى يعد لها العجوز تملؤها قلقا . لاشك انه ليس من الحكمة ان تذهب لتوها الى جرادير ، فعين كاترين لن تغفل عنهـما ... تذكرت فجأة ان جرادير قد ذهب لمقابلة الدكتور كليراك . فهمت الآن لماذا عمد هذا الطبيب فى الفترة الأخيرة الى ازعاج المـــريض بشأن حالته ... ياله من رجل قادر ، جبرييل ! ... انه هوالاقوى وسوف يتحاشى الضربة الموجهة اليه .

اشتد هطول المطر وظلت ماتلد فى غرفتها متحفزة وقد رفعت جانب الستارة لتشير الى جرادير عند قدومه . لم يضايقها طول الانتظار . فلم يكن لديها ما هو اهم مما تفعله الآن . أليست تسعى هى الاخرى الى هدفها ؟ ... الى سعادتها ؟ ... تلك السـعادة

البهمة اللانهائية التى طمعت فى الحصول عليها منـــذ ان عاد جبريل . ستنفذ الى هذه السعادة عن طريقه هو .. فلـه من القدرة ما يمكنه من ان يفتح لها ابوابها ... هل من خطيئةارتكبتها فيما هى فيه ؟... لا . لا داعى للقلق والندم . فلو انها أقدمت فى تلك اللحظة على سر الاعتراف لما وجدت شيئا تنسبه الى نفسها. أليس من واجبها أن تخطر جبريل بما يحدق به من خطر ؟ وبمـا يهدد حياته ؟ وهو جرادير ، زوج اديلا ، أبو أندريس ؟.. سمعت صوتا دفينا يقول لها : « ولكنك تعلمين جيدا انك تسـخرين من جرادير ... انت تعلمين ما الذى تنتظرينه منه ... » رأتنفسها تقول بصوت عال :

ـ انا لا انتظر شيئا !...

كانت جالسة الى المائدة مع كاترين واندريس عنـــدما دخل جبريل . انهم منذ أن وقعت الحوادث الأخيرة يتناولون طعامهم فى صمت كئيب . قامت كاترين قبل تناول الحلوى لتـذهب الى جوار ابيها . انتهزت ماتلد فرصة انصراف الفتاة وانتظرت الى ان سمعت وقع خطواتها فى الطابق الاعلى وان لا احد يتسمع عليهـا وقالت لجرادير انها فى حاجة للتحدث معه على عجـــل فى مكان أمين . لم يكن من المستطاع العثور على هذا المكان الامين فى أثنـاء النهار اذ ان الامطار المنهمرة قد الجأت الجميع الى التزام البيت. قال لها جرادير :

ـ تعالى الليلة الى غرفتى . انها ابعـــد ما تكون عن غرفـة العجوز .

ـ ولكن ، اذا اكتشف أمرى ؟.. ماذا تظن ؟..

ـ لن يكتشف أمرك احد. ثم ان الامر هام ... أليس كذلك أهم مما نفـكر فيه أنت وانا ... ان ما تريدين الافضـــاء به الى خطير ... اشعر بذلك من الآن ... هل يتعلق الامر بآلين ؟

اشارت له اشارة الايجاب فرفع قبضتيه الى السماء وتركهما تهبطان وقال :

ـ هذه المرأة !... يالها !..

ارتسمت على وجهه امارات الغضب والكراهيه فلم يسع ماتلد الا ان تحول عنه نظرها .

في عصر ذلك اليوم كان أندريس مستلقيا في سريره يدخن السيجارة الأخيرة من العلبة التي فتحها في الصباح وقد فرش تحت قدميه جريدة لكي لايلوث حذاؤه المحمل بالطين فراش السرير .. نبهته جيرسانت من خلال الباب أن السيد الراعي يريد التكلم معه .

— نعم . انه طلب أن يتحدث معك أنت يامسيو أندريس ... لقد ادخلته الى الصالون الريفي .

أمضى أندريس بضع ثوان قبل أن يربط في ذهنه بين الراعي واخي توتا . ثم نهض فجأة واقفا : انه الرد الذى طالما انتظره.. رد توتا في أسوأ صوره . ما دام القس الصغير قد تدخل في الأمر ، اذن لم يعد هناك أمل . نزل أندريس من غير أن يعنى بهندامه حتى ولا بتصفيف شعره ، ودخل منكوش الشعر زائغ البصر مفتوح الصدر في الحجرة الواسعة الكئيبة التى ينتشر في ارجائها الصقيع على الرغم من المدافىء . الى جانب الخزانات الكبيرة انتشرت المقاعد المكسوة بالأغطية بمحاذاة الجدران وفوقها بعض الصور الجيدة لأفراد عائلة دوبوش من صنع دى جالار ذلك المصور المجتهد الذى عاش في بوردو في عهد مابعد الثورة . ضوء المصباح المغطى بالحرير الخفيف ينعكس على منضدة ثقيلة من الطراز الامبراطورى محملة بمجموعات الصور والعاب التسلية المختلفة . وسط هذه الأشياء كلها رأى أندريس أيضا قبعة الراعي في شكلها الغريب المتجعد كأنها خفاش نافق . نظر الفتى خلسة الى القس الصغير فوجده قصيرا مثله ، فلا عجب اذن أن أخطأ موليير وبارديو وظناه هو . ولكنه لم يستشف على هذا الوجه الشاب المكتئب الذى ضربت فيه التجاعيد قبل اوانها شيئا من التوجس أو الخجل . ان وظيفة القس لاتمثل في نظر اندريس الا مجموعة من المعاني لم يقف عندها عقله من قبل أبدا . لقد كان واحدا من أولئك الأطفال العديدين الذين يقبلون على الاسرار الدينية بحكم العادة من غير أن يجهدوا اذهانهم بالتفكير فيها بعد ادائها . ولو تعمق باحث في أعماق ضميره وقتئذ لوجد انه انما يرى في كل ذلك اشياء مملة لاطائل منها ولا تستحق الاهتمام بها الا وقت دنو الأجل فقط ..

مسائل شكلية معروفة ، الغرض منها تنظيم حفـــلات الزفاف والجنازات على الوجه اللائق . ثم ان الفتى كان يشعر حيال هـذا الرجل العف الأعزب باشمئزاز عميق مبهم ، اشمئزاز الذكر القوى من العاجز ، اشمئزاز الطبيعة من الخارجين عليها . بدأ القس حديثه بقوله :

ـ أنت تعرف ياسيدى باسم من أنا قادم اليك الآن ؟

واذ وقف أندريس لاحراك به خافضا جبهته مقوسا عنقه متحفزا لتلقى الضربة التى يتوقعها ، قال القس :

ـ اعرف مشاعرك حيال انسان يمت الى عن قرب .. يجب أن تتذرع بالشجاعة ياسيدى .. نعم لقد فعلت مالم أكن أتوقع منها أن تقدم عليه وما لابد أنه سيفرحك كثيرا أيضا ـ لأنك تحبها حقيقة، أليس كذلك ؟ .. لقد عادت الى زوجها . هذا ما علمته من خطاب وصلنى منها هذا الصباح ..

قاطعه أندريس فى نبرة فيها الحقد والكراهية قال :

ـ هيه .. لقد توصلت الى ماتريد ..

أخذ القس يردد كلمات متلعثمة يحاول بها أن يقول أن هـــذا القرار الذى اتخذته أدهشه هو نفسه ، وانه لم يؤمل فى الوصول اليه ، وانه فى حيرة من أمره .. ولكن أندريس أسكته بقوله

ـ أنت قادر .. ان الناس على حق اذ يقولون عنكم ان حيلكم واسعة .. واحابيلكم طويلة ..

ـ لا ، ياسيدى ، لا ، أنا لست قادرا ولا قويا ..

لم يكن أندريس خبيرا فى اجتلاء خبايا النفوس ولا فى استطلاع مكنونها . ولكنه مع ذلك أخذ بما فى هذه الكلمات من نبرة ، فرفع عينيه على أخ توتا وراح يتفحصه على هذا الاعتبار . لاشبه بينهما ومع ذلك رأى فى هذا الوجه المنهك النحيل رسم فمها وعقـــدة أنفها ولون نظرتها .. كل ما فقده بفقدها . وفجأة انفجر قائلا :

ـ لاتستطيع أن تعرف .. أعذرنى ياسيدى الراعى .. لاتستطيع أن تعرف ..

أمسك القس بيده فى خجل فلم يحاول اندريس ســـحبها وقال :

ـ انتم ومن على شاكلتكم لاتفهمون هذه الأشياء. انتم لاتعرفون ماهو الحب .

ودهش اذ سمع ضحكة قصيرة من القس لم تلبث أن انقطعت فرفع رأسه اليه واذا به يسأله فى كلمة بسيطة :

ـ أتظن ذلك ؟.

ثم عادت الضحكة القصيرة مرة أخرى بعدها قال القس فى لهجة هادئة لا نبرة فيها

ـ أنت تحبها كثيرا ياسيدى . يجب أن تزيد من مقدار حبك لها ، فتتركها لشأنها .

عاد أندريس الى هياجه وصرخ قائلا :

ـ هذه كلها قصص وخرافة . هل تظن ان هناءها فى أن أتركها وأتخلى عنها . أنت ايضا تظننى مغفلا .. ولكن سترى ان لم ألحق بها .. سترى !..

ـ انه لأمر سهل عليك ياسيدى .. انها كائن ضعيف مطارد ..

ثم اضطرب صوته فجأة وترقرقت الدموع فى عينيه وهو يتابع كلامه :

ـ ولكنى انا جئت ألتمس منك .. من الشاب الطيب القلب الذى يقف دائما الى جانب المساكين .. جئت ألتمس منك أن ترأف بها . لست أجرؤ أن أكلمك عن نفسى .. فأنت لا تعلم .. لأنك ما زلت شابا .. بل لأنك مازلت شابا تستطيع أن تفهم ما هى حياتى ألم تحدثك عنها توتا ؟ ربما . فأنا أيضا لم أبلغ من العمر الا ستا وعشرين سنة والكل هنا يكرهنى ويحتقرنى . ورؤسائى انفسهم يعتقدون أنى على الأقل قد أخطأت بعدم الحيطة . ومن اجلها هى اتحمل كل هذا .. لم اقل ذلك لأحد بعد .. انت أول انسان فتحت له قلبي . أستحلفك بالله الذى ستظهر قوته على كل قوة فى يوم قريب والذى سيتغلب على الجهد الذى نبذله من أجل ضياعنا ..

كثيرا ماتكشف الحياة عن هذا التفاوت العجيب بين الانسان الذى يكشف عن أسراره الدفينة والانسان الذى يتلقى هذه النجوى . فليس لنا الخيار فى أنفسنا .

هناك لحظات يطفح فيها الألم من كياننا ويبرز من احشائنا فتمتد ذراع – أى ذراع – لتتلقى الشكوى وتضمد الجروح . واذا كان أندريس ، لشبابه وبساطته ، لم يفهم ما تحويه هذه الكلمات من معنى ، الا أنه شعر بمدى ما وصل اليه هذا الألم . فقال :

– لن أنسى ان لى ثأرا مبيتا عند موليير وبارديو ، وسأناله منهما . أما الآن فلن يضايقك احد يا سيدى الراعى،أؤكد لك ذلك .

تذكر الان فيما بعد هذه اللحظة وانه اقتنع فجأة فى قرارة نفسه بأن هذا الشاب الذى يدل مظهره على القوة كان يتخبط كريشة فى مهب الريح . كذلك شعر بأن وجوده فى تلك الغرفة ليس من عمل المصادفة وحدها . انصرف تماما عن التفكير فى توتا فلم يكن لها أى نصيب فى القلق الذى يعصر قلبه . راح يكرر فى قرارة نفسه : « يا الهى ، أنزل رحمتك على سكان هذا المنزل .

شاع الاضطراب فى قلب أندريس عندما رأى الدموع تملأ عين القس وفى نوبة من نوبات العطف التى يتميز بها الشبان أخذ يده بين يديه وقال فى تلعثم ظاهر :

– لا أعدك بشيء . ان رغبتى لشديدة . ولكنى سأكافح بقدر ما تسمح لى به قواى .

أحنى الراعى رأسه وراح ينظر اليه طويلا وهو عاجز عن التفوه بأية كلمة .

فتح أندريس الباب . فى الردهة المظلمة جلس رجل يدخن ، رجل مازال يكسوه الشباب على الرغم من شعره الفضى وقد ارتدى ثياب الصيد وبرز من جيب سترته منديل من لون قميصه نفسه . تذكر القس من رائحة السيجارة التى يدخنها هذا الرجل تلك الرائحة التى كان يشمها من قبل فى غرفة توتا .

قال أندريس :

– أتعرف أبى ياسيدى الراعى ؟ .

انتصب جراذير واقفا . على الرغم من ان العتمة المطرة لم تسمح للقس بتبين وجوه المحيطين به فى تلك الردهة فقد شعر بنظرات هذا الرجل تخترق اعماقه ، هذا الرجل الذى ينعته الجميع بكل سيئة والذى اندفع لتوه فى انحناءة كبيرة . مر الراعى مسرعا

أمامه وأغلق الباب خلفه واختفى وسط الظلام وتحت المطر . وما أن خطا خطوات قليلة وهو يكافح الرياح المبتلة التى تنفخ فى مسوحة حتى سمع صوتا يناديه . التفت خلفه فرأى ذلك الرجل ، أبو أندريس ، عارى الرأس منكوش الشعر يقول له :

ـ ياسيدى الراعى ، أردت أن أقول لك ..

اضطر الان الضئيل الجسم أن يرفع رأسه ليستمع اليه .. ضايقه من نفسه أن يشعر حيال هذا الرجل الذى يكاد يجهل ملامح وجهه بكل هذه الكراهية وبكل هذا النفور . فما أشد مقته لهذا الصوت الناعم الذى يذوب رقة وعذوبة .

ـ لقد كتبت لك رسالة ، ياسيدى الراعى ، هل أقول رسالة ؟ لا بل مجلدا ، سردت لك فيها حياتى كلها ، حياتى الرهيبة !.. ثم توقفت .. لم اجرؤ على الاستمرار فى الكتابة .. أما الآن فارى أن ذلك لازم .. يجب أن تقرأ .. هل لى أن استودعك هذه الكراسة ؟ - نعم انها كراسة مدرسية . لك أن ترد أو الا ترد ..

اشار الان اشارة القبول وقال فى شىء من التكلف :

ـ انى مملوك للنفوس ..

ولم يقدم له يدا مصافحة .

عاد جرادير وهو يرتعد ولم يلحظ أندريس غيبته .

ـ لقد جاء ، ياأبى ، يطلب منى .. بسبب أخته .

لم يستطع اكمال كلماته فقد خنقه الحزن وبعد برهة قال :

ـ ستقول لى أنه ليس على الا أن أريد .. وأنه يكفى ان أتابعها باصرار ..

قاطعه أبوه الذى أدار وجهه بعيدا عن ابنه وقال :

ـ لا ياصغيرى ، لن أقول لك هذا .

جال فى خاطر أندريس أن أباه يخشى أن يطالبه بمال ليذهب لملاقاتها فى باريس . ولكن ما يدور فى خلد جرادير فى ذلك الوقت كان مختلفا عن ذلك كل الاختلاف فقد قال لابنه :

ـ هذا القسيس الصغير .. تستطيع أن تضع ثقتك فيه .. صدقنى ، أنا أعرف ذلك ..

بدت الدهشة على وجه الفتى وقال لأبيه فى صوت كله استسلام ويأس :

ـ اذن يا أبى ، كل شىء عندى اليوم سواء .. لقد فشل زواجى .. ولست أهتم لهذا الفشل . أما سرنيس وباليزاو فقد أخذت أنت ثمنهما .. وأنا اهزأ من كل شىء آخر .. اذن ماالداعى لبقائى هنا ؟ .. نعم . ما الداعى ؟.

ثم تردد قليلا وخفض من صوته :

ـ حديثنا ليلة الأمس لم يرق لى ولم استسفه .. ربما كان ذلك غباء منى .. ولكن ما فائدة كل هذه المناورات وكل هذه التدبيرات ؟ لم يعد لك عمل تؤديه فى ليوجا .

الليل يرخى سدوله الآن .. لم يعد أندريس يسمع لأبيه صوتا حتى ليكاد يظن أنه اختفى . واذا بصوت الأب يرتفع فجأة حادا قويا كما لم يعهده فيه من قبل :

ـ كلا ياصغيرى ، ما زال لدى عمل واحد أؤديه هنا .. وبعد أن أتم مهمتى سأرحل . انى أعدك بذلك .. سأرحل ولن ترانى بعد ذلك أبدا .

لم يجد أندريس ما يجيب به على هذا القول . انه لم يتعود الخوض فى قرارة نفسه والتطلع اليها وقراءة مكنونها .. انه من فصيلة هذا العدد الذى لايحصى من الشبان الذين يقولون « انا مهموم .. » وهم يعنون بهذه الكلمة آلاف المصادر الخفية التى تنبع منها آلامهم وأسباب يأسهم . فجأة سمع وسط الصمت المخيم صوت الباب يغلق ببطء شديد فأدرك أن اباه لم يعد له وجود ...

ـ ١٢ ـ

قال جرادير بصوت خافت :

ـ سأنتظر قليلا قبل أن أغادر حجرتك . لاشك أن كاترين قلقة من الحديث الذى دار بينك وبين العجوز . انها تتجسس علينا لو رأتنى خارجا من هنا الآن ..

ردت عليه ماتلد قائلة :

ـ ابق لحظة اخرى .

سمعا من الخارج خريرا عظيما رتيبا تبرز من خلاله طقطقة القطرات التي تنساب من سطح المنزل وتقع على الشرفة فى فترات مختلفة . ولم يكن المصباح المجاور للسرير كافيا لاضاءة الحجرة . أمام ماتلد جلس الرجل على المقعد الطويل مسندا ذراعيه الى ركبته وراح يقرض أظافره .

انه الآن يعرف كل شيء . لقد روت له كل ما سمعته من زوجها وبدأت تشعر بالندم على ما فعلت والرهبة من القوة الهائلة التى اطلقت عقالها بكلماتها . لم يبد عليه شيء من الدهشة ، لا ولا من الغضب ، ولم تصدر عنه أية صرخة . لقد تمنت ماتلد لو انه افاض بما فى صدره من حنق .

هذا الانتباه المركز وتلك الاسئلة التى يلقيها بعناية وهدوء كل ذلك كان يخيفها أكثر من انفجار الغيظ والغضب . انه يعود مرة أخرى الى نقطة بعينها يستوضحها فى اصرار :

ـ أنت متأكدة ان كاترين هى التى سوف تذهب لاحضارها من المحطة ؟ .. هل ديبا قال لك فعلا أن رسائله كانت مكتوبة على الآلة الكاتبة من غير اشارة الى مصدرها وانه يرسلها من بوردو ؟ . هذه كلها مسائل هامة جدا ..

سألته ماتلد :

ـ ما أهمية ذلك ؟

أشار اليها اشارة مبهمة وعاد الى تفكيره . وظلت ترقبه عن بعد . انه يضم يديه ويعصرهما ويسندهما الى صدغه . لقد حركت ماتلد فجأة تلك القوة التى لا تقهر كما يحدث حينما يلقى طفل لاه بعود من الثقاب وفجأة ينتشر اللهب فى الغابة وتدق أجراس الكنائس مؤذنة بالخطر وتحتشد الطرقات بالسيارات والعربات .. لقد حاولت عبثا اقناع جرادير متوسلة اليه بأن يبتعد وتبقى الشر الذى يتهدده . ولكنه راغب فى مواجهة الخطر ومقاومته .. لا .. كان عليها الا تتكلم وعندئذ كانت آلين ستحضر وتأخذ معها جرادير وتنصرف .. ربما حدثت عندئذ الفضيحة ووقع شيء من القلق .. ولكن الصمت كان سيجرجر ذيول النسيان على كل شيء .. كان من الممكن بعد ذلك ارسال أندريس الى اسكنديناقيا .

لطالما عارضت في هذا السفر ولكنها في هذه المرة كانت لاشك ستسر كل السرور لحصوله . ولكن ما فائدة التفكير في هذه الافتراضات ؟ لقد سبق السيف العزل .. مالم .. نعم .. امامها فرصة أخيرة أن تخر على ركبتيها أمام سيمفوريون وتعترف له بأنها خانت سره . ثم ارسال برقية الى آلين هذه لترجي سفرها وبذلك قد يمكن تحاشي وقوع الكارثة .. هذه الأمور كانت تشغل تفكير ماتلد وهي تروح وتجيء وسط الحجرة . وكان جرادير هذه المرة هو الذي ينظر اليها ويتبعها بعينيه .

لقد ادرك ما هنالك من خطر . ان حدسه دائما يرشده فجأة الى ما يدور في خلد خصمه من تفكير خفي . هاهو يحس بالخيانة تنبت في ذهن شريكته قبل أن تصبح رغبة حقيقية في ضميرها. سألها :

ـ هل أنت متأكدة أن كاترين لن تستقل السيارة حتى لاتثير الانتباه وأنها وآلين ستعودان سيرا على الأقدام من المحطة ؟.

ـ مادمت تعرف ، لماذا تطلب مني أن أكرر ما قلت ؟.

ـ حسنا ، لنتكلم عن شيء آخر . أنا أيضا لدي خبر انقله اليك. لقد جاء الأب فوركاس وقابل أندريس بعد ظهر اليوم . هل تخمنين لماذا ؟ لقد تصالحت السيدة مع زوجها على ما يبدو . لقد عرف الراعي الصغير كيف يؤثر على أندريس ، وهو الآن على الأقل زاهد في مواصلة فتوحاته ..

أطلقت ماتلد صرخة المفاجأة وتوقفت عن السير .

ـ ان الأمر هام جدا لنا .. ولك .. عليك الآن أن تعني به وأن تراقبيه من غير أن يبدو منك شيء يدل على ذلك وأن تحيطيه .. ولكن أكفي معاملته معاملة الصبي الصغير . غيري أسلوبك . ان مايحتاج اليه هو وجود امرأة الى جواره .. حنان المرأة وعطفها .. ثقي بي. ستسير الأمور سريعة بعد اليوم . نعم سريعة جدا . وخصوصا لا تتركي للقلق سلطانا عليك فأنا الآن في حالة دفاع مشروع عن النفس .. مهما حدث كوني مطمئنة الى انني انما أقوم بواجبي في انقاذ عنقي ..

ثم اقترب منها وقال لها :

ـ ستصبحين حرة طليقة بعد حين يا ماتلد .
قاطعته بعنف وقالت :
ـ لست بحاجة الى الحرية !... أنا لا أطمع في شيء ... أبدا ..
أشار اليها جرادير بأن تخفض من صوتها وذهب الى الباب يلصق به أذنه . ثم قال :
ـ اظن أني استطيع العودة الى حجرتي .. اتفقنا اذن ياصغيرتي .. أنت لاتريدين شيئا أكثر مما لديك . ولكن اذاحدثت لك أمور .. تلك الامور التي لاتحسبين لها حسابا والتي لم تفكري فيها أبدا ؟.. اذن ... سترين .. على كل حال ، أنا مطمئن ، فمنذ ان بدأنا العمل لم تخطئي في شيء . واليد التي قدمتها لي الليلة لن أنساها . كما أنك ايضا لن تنسي أني قدمت لك السعادة ، ففي زمن قريب جدا لن يفرق بينك وبين أندريس شيء حتى ولا الليل .
كتمت صرخة في صدرها وقالت :
ـ اخرس .. أنت نذل .. !
كان قد غادر المكان قبل أن تلقى هذه الكلمة . لم تفكر في خلع ملابسها وظلت واقفة في وسط الحجرة لاتفكر في شيء . انها تجد الراحة في أن تبقى هكذا جامدة التفكير خالية الذهن . خطرت لها فكرة تناول بعض العقاقير المنومة لكي يستولي عليها النعاس سريعا .

تحتل خزانة الدواء ركنا من اركان الحمام الذي تطل نافذته ذات الزجاج الخشن على حوش البيت . من الخير عدم اضاءة الكهرباء . تحسست ماتلد في الظلام العلب والزجاجات . برجيي نبحت قليلا ثم سكتت . ماهذا الأزيز ؟ لقد عرفته ، هو أزيز غطاء الصندوق الخشبي الذي يضم العدد . صعدت ماتلد على مقعد صغير ووأربت النافذة . كف المطر عن السقوط ، ولكن الغابة مازالت تنفض ما علق بأشجارها من ماء فاذا هب الهواء خيل للرائي انها هطلات جديدة من المطر . لابرودة في الجو . أخذت ماتلد تستنشق في لذة رائحة الأرض التي غمرتها المياه . لا . انها لم تخطيء . هذا انسان يخرج من حيث توجد العدد وقد حمل على كتفه جاروفا .

انه لايأخذ شيئا من الحذر لعلمه أن مامن حجرة فى البيت تطل على هذا الحوش . فهو خبير بالبيت وما فيه . لقد عرفته لتوها . انه الرجل الذى كان منذ ربع ساعة مضت يجلس أمامها فى غرفتها؟ هل جن ؟ نعم انه مجنون . فما من شيء يستدعى وجوده فى الخارج فى تلك الساعة . . ما من شيء خيرا كان أو شرا . قالت ما تلذ لنفسها أن عينيه عينا مجنون وكلماته كلمات مجنون ، ثم عادت الى حجرتها وابتلعت قرصين لتنام . انها تجد لذة فى تقبل حديثه وفى الاقتناع به . على كل حال ما شاهدته منه الآن لايهدد أحدا . اقسيمفوريون يرقد على بعد أمتار قليلة منها وآلين ، تلك المرأة آلين ، مازالت بعد فى باريس . وقبل أن يحل يوم الاثنين لا داعى للقلق . لم يأت اليها النوم بسرعة كما كانت تريد ولكن انحلالا ينتشر فى أعضائها وراحة عذبة تطفى على جسمها كله . تذكرت فجأة صلاتها التى نسيت أن تؤديها قبل النوم . يجب عليها أن تنهض من فراشها وأن تركع على ركبتيها . شجاعتها تخونها وقوتها تهرب منها . اخذت تنطق متعجلة بكلمات الصلاة من غير أن تعى معانيها . انضمت ذراعاها على خيال لاوجود له ، وشعرت فوق جسدها بثقل طيف هائل خفيف .

- ١٣ -

فى صبيحة يوم الاثنين ، صاحت جيرسانت من خلال الباب كعادتها :

ـ مدموازيل كاترين مطلوبة على التليفون .

واذ ابدت الشابة شيئا من الدهشة قال لها أبوها :

ـ لابد انه المصنع . . .

ان الخوف مما سيحدث يزيد اختناقاته . سوف تحضر تلك المرأة الليلة وسيدخلها فى حجرة جرادير . هل سيأتى عليه الغد وقد تخلص منه ؟ ان جرادير هذا قادر قوى . . . حقا ، ولكن ليس ضد آلين . لقد مضت عشرون سنة وهى قابضة على خناقه ولم يستطع منها فكاكا . هل أفشت ماتلد سره ؟ كلا . ان العجوز

مطمئن . لقد أكدت كاترين التى راقبتها مراقبة ، دقيقة أنها لم تتصل قط بجرادير ... مالم تكن قد أوصلت اليه ورقة مكتوبة ؟ لو حدث ذلك لعلمت به كاترين . هاهى كاترين عائدة .

ـ انها مكالمة من باريس يا ابى ، تلك المرأة ، نعم ... آلين . لقد اخطرت أن تؤجل قدومها الى يوم الخميس . انها مريضة ولكنها ليست فى خطر . يمكننا ان نعتمد عليها ليوم الخميس القادم ...

ـ هل هى التى كانت تتكلم ؟.

ـ نعم ، ما أقبح صوتها !... خشن مبحوح ... لم أسمع قط صوتا كهذا الصوت ...

ـ اذن فلننتظر الى يوم الخميس . ولكن هذا يؤسفنى ... فى مثل هذه الأعمال يجب الاسراع فى التنفيذ .

قالت كاترين وهى تفكر :

ـ علينا أن ننتظر يومين . لعل المطر ان يخف فى تلك المدة فيصبح قطع المسافة من المحطة الى هنا أقل وعورة . هلا تصورتنى وأنا أخوض فى الطريق المملوء بالمياه والى جانبى هذا الوحش الضارى ؟ لعلك اخبرتها ان عليها أن تسير سيرا حثيثا لبضع وعشرين دقيقة ؟.

ـ يجب أن أقول لك ، ان هذا أقل ما يعنيها فى برنامج المهمة التى هى قادمة من أجلها ... على أنها ليست مندهشة لما أتخذ من احتياطات لأنها ترى فى هذا الانسان خطرا كبيرا . وهى تعرفه حق المعرفة . تلك اللئيمة !...

ـ ابى ، لقد اكتشفت شيئا ... لا تضطرب فليس فيه أية أهمية ، فقط اردت أن تكون على علم ... منذ بضعة أيام تناول كليراك الشراب عند لاكوت مع ...

ـ لا تقولى مع جرادير ...

أحنت كاترين رأسها :

ـ أمتأكدة أنت ؟.

ـ ولكن يا أبى ، هل هذا الأمر جد خطير ؟ . . . أطرده وسنلجا الى الدكتور بيتيو الذى يماثله واكثر . . .

رد عليها المريض متنهدا :

ـ نعم ، ولكنه لا يعرف طبعى . ثم ان هذا الأمر له مفزاه . هل رايت الى اى حد نشر جراديز شراعه ؟ انه لأمر مخيف يا صفيرتى . . . وأخاف عليك أيضا . . . انه يسعى الى ابعادك . . . وسيجد لذلك الوسيلة . . . لست أدرى ، أنا . . . ربما استعمل السم . . .

قالت كاترين متململة :

ـ ايقتلنى !. .

صاح العجوز من غير ان يصغى لما قالت :

ـ فهمت اذن لماذا كليراك يحاول ارهابى طوال هذه المدة . . . يا الهى . . . ان الآخر هو الذى دفعه ليؤثر على حالتى المعنوية . . . انى أود ان أعرف الحقيقة على كل حال . . . مازلت متينا . . . ولكن هذا لا يمنع من أننا وحيدان . . . لا سند لنا . .

ثم قال متضرعا :

آه ، لو تقبلين يا صفيرتى . . . لو ترضين . . . بابن بربينى ،

قاطعته فى لهجة عنيفة :

ـ لا . هل نسيت ما اتفقنا عليه ؟ لا أريد أن أسمع كلمة واحدة عن هذا الموضوع حتى أول يناير .

ـ نعم ، ولكنى لم أكن أعرف وقتئذ الخطر الذى يهددنا . تصورى قليلا . . . رجل آخر فى البيت ، شاب قوى متين فى الثلاثين من عمره ينحاز لجانبنا ، بطبيعة الحال ، يأخذ بخناق هذا الوغد ويلقى به من النافذة . . .

ـ ولكن يا أبى ، ان جراديز يقيم هنا عند ابنه . . . اى فى بيته . . . هل نقلنا محل اقامتنا بعيدا عن هذا البيت ؟ ان بيت ديبا الواقع على الميدان مازال خاليا . . .

ـ لن أترك القصر ؟ هذا مستحيل !. .

لقد قضى طوال حياته بحلم بان يصبح فى يوم من الأيام المالك الوحيد لقصر نيوجا . ولكنه لم يستطع طوال المدة التى كان فيها أندريس قاصرا أن يخرج من حالة الشيوع . ومنذ عام مضى يرفض الشاب جميع العروض التى عرضتها عليه لشراء نصيبه فيه وذلك بتأثير نصائح أبيه ونصائح ماتلد .

ـ كلما أفكر أنى شريك فى الملك مع ابن هذا الوغد ، الذى هو صديقك اندريس ، أكره النظر الى وجهه القبيح الصغير ...

قالت كاترين محتجة

ـ لا . يمكن أن يقال عنه كل شىء الا أن وجهه قبيح .

ـ انك ترينه جميلا لأنك لم ترى وجها غيره .

حقا . انها لم تر وجها غير وجهه على الرغم من أنهـا حضرت احيانا بعض حفلات الزفاف وذهبت الى سباق الخيل فى بازاس أو فى لوجدونوس ، حيث الشبان عديدون . ولـكن هل كان فى استطاعتها ان تنظر اليهم ؟ فلا يوجد الا واحد فقط فى العالم كان يمكن ان تصبح زوجته لو انها ارادت ... زوجته المهمـلة ... المكروهة ربما ... ولكنها زوجته على كل حال ، يجب عليـه أن يقترب منها من وقت لآخر ليحصل منها على الأولاد . هذا الخاطر الذى يشغل بالها فى بعض الأحيان او قل الذى تحاول أن تمنعه من أن يشغل بالها ، كان الموضوع الوحيـد الذى تدور حوله اعترافاتها بين يدى القسيس . وترى فيه خطيئة تطلب عنهـا الصفح والغفران ... هذا الجرم لو تحققت أحلامها ، لتحول الى واجب مفروض ، وسيان بعد ذلك أن تكون محبوبة أو لا تكون .

ـ فيم تفكيرك يا صغيرتى ؟.

ـ أصغى الى المطر . انى جد سعيدة لعدم اضـطرارى الى الذهاب لملاقاة هذه المرأة الليلة ..

فى حوالى الساعة الرابعة من يوم الاثنين هذا سمعت كاترين صوت محرك السيارة . اقتربت من النافذة ورأت جراديز يدخل الى البيت ثم يعود فيخرج منه فى الحال . قالت :

ـ هذا هو جرادير يخرج ... لا اتبين ماذا يحمل ... أين يمكن أن يذهب فى هذا الوقت المتأخر ؟! لم تحل بعد ساعة قدوم البريد ...

ـ هيا اسرعى يا ابنتى . اتبعيه ... يجب الا نهمل شيئا وخصوصا فى هذا اليوم بالذات .

أخذت كاترين معطفها المشمع وفتحت الباب بالطريقة التى لا يجيدها أحد سواها ... فلم تحدث أقل صوت. سمعها سيمفوريون تجرى فى الدهليز . اراد أن يهون عن نفسه قلق الانتظار فأخذ أحد دفاتر الحساب المكومة على المنضدة الصغيرة القريبة من يده وراح يعيد بعض عمليات الجمع ذاهبا من أسفل الى أعلى . عادت كاترين بأسرع مما كان يتوقع .

ـ ما وراءك ؟.

ـ لن تستطيع التخمين فى هذا أبدا ... لقد ذهب ليودع مظروفا كبيرا فى بيت القسيس ... ولما لم يفتح له أحد ، أولجه من تحت الباب ورجع . هل كنت تعرف أنه على صلة بالأب فوركاس ؟.

أخذ سيمفوريون يفكر

ـ لا أرى شيئا بينهما ... اللهم الا علاقة أندريس بأخته ...

قالت كاترين فى غيظ ظاهر :

ـ بالتأكيد . لابد أن الرسالة تتعلق بهذه القاذورات .

- ١٤ -

فى يوم الاثنين التالى طاف الراعى على منازل المزارعين ممتطيا متن دراجته . وقد فضل زيارة المزارعين حتى لا يتعرض لاهانات سكان البلدة . عاد فى الساعة السادسة مجهدا ولكنه كان سعيدا لأن بعض البيوت فتحت له أبوابها ، أربعة أو خمسة ، وقدم له سكانها الشراب ، ووزع على اطفالها الصور وتلقى أسماء الكثيرين منهم ممن قبلوا الانضمام الى دروسه الدينية . وفى أثناء اجتيازه البلدة تقدمت اليه مدام لاروز ، بائعة الخردوات ، وسألته عن

الموعد الذى يقيم فيه القداس فى يوم الجمعة الأول من شهر ديسمبر . وأخيرا لاحظ ان جماعة من عمال مصانع ديبا وبريبنى قد ردوا له تحيته بأحسن منها . الا يكفيه ذلك اليوم ليسترد ثقته بنفسه ؟ ان كل ما حوله يبتسم له منذ أن عادت توتا الى زوجها . عاد اليه العبوس عندما دخل الى بيته والتقط من تحت الباب المظروف الذى تركه له جرادير . انه يعرف مصدره سلفا وقد راودته الرغبة فى القائه فى أحد الأدراج من غير أن يفتحه. ولكنه بعد أن تناول قليلا من الطعام صعد الى غرفته وانتعل شبشبه وراح يقرأ فى الكراسة المدرسية الصغيرة .

مصباح الغاز الذى يضىء غرفة الراعى قائم الى جوار سريره ، يبعث النور من أسفل الى أعلى على الصليب المعلق على الجدار فوقه . كان القس بعد كل صفحة يقرؤها يلتقط أنفاسه ، ويرفع عينيه الى الصليب كأنما هو يستمد منه القوة ، ثم يعود الى الكراسة يغوص فى أوحالها يملؤه شعور أقوى من الشعور بالاشمئزاز ، انه الشعور بالرهبة والفزع . ان الاثم الذى طالما فكر فيه أخو توتا ، ذلك السر الذى وقف أمامه حائرا وكاد يفقد ايمانه أكثر من مرة بسببه ، ها هو يتكشف له كاملا بين يديه ، تلك الليلة ، تحت الغلاف الأزرق الذى يغطى هذه الكراسة الصغيرة ذات الخطوط، راح يقرأ بلا انقطاع ، حتى وصل الى حيث يروى جرادير ماوسوس له به الشيطان ويشير الى العبارة التى قالها له القس العجوز : « هناك نفوس موهوبة له » .

وهنا صاح محتجا بصوت عال :

ـ لا . لا . يا الهى . لا .

لم يكن آلان يعتقد أن هناك نفوسا قد وهبت للشيطان . . . والا لكانت النفوس جميعا قد استسلمت وضاعت . ذلك أن ما خلفه الأجداد للأحفاد ، منذ وقوع الخطيئة الكبرى ، يكفى لاضاعة الأجيال جميعا ، ولتبرير ذلك الجنون الغامض الذى ينبع من أغوار الجنس البشرى ويندفع متراكما فى آخر الأحياء . . . تلك الرذائل المكبوتة عند البعض والضارية عند البعض الآخر والتى تتجلى

واضحة فى الذرارى البعيدة والأعقاب المتوالية على مر الزمن. هذه المادة الكريهة المفنة ... لقد أوتى كائن خفى لا يرى القدرة كل القدرة على تشكيلها وابرازها ... كائن هو ملك ضال يجهل معظم الناس كل شيء عنه حتى وجوده .

انه لا يقنع باللعب بما فى تلك القلوب البائسة من دس وموروث وأوشاب عميقة ، ولكنه يستغل فى اغراضه أيضا كل ما فيهما من ميل الى الحنان والخير وما وهبت من رغبة فى بذل الذات والتضحية بالنفس .

انحنى الآن على نفسه يفكر

- يا الهى انى لم أعد اجهل ما هى الوحدة الى جوارك .... وأنت أيضا تعلم ما يعانيه البشر اذا ما ابتعدوا عنك وحرموا من رعايتك . فلا تسمح لعدوك الضال أن يستغل هذا اليأس ليلحق بعبيدك الضياع ... فهو ملك الظلمات والمتحكم فى رقاب هذا العالم ... ولكن من أين جاءه هذا السلطان ؟ ممن استمد هذا الملك الواسع ؟ من وهبه هذا الحكم الجائر ؟.

من خلال الكراسة المدرسية ذات الغلاف الأزرق البرىء خرجت أسراب لا عدلها من الساقطات والقوادات «والبلطجيه» والمنحرفين ومتعاطى المخدرات والقتلة . رأى القس أمام عينيه المواخير والليمانات والسجون وكل ما اعدته الدولة لمكافحة الجريمه ، يتجمع ليصور عالما سفليا بعيدا ودنيا لا حدود لها من الشر والدنس .. جيش من الفسقة والعتاة يسير مرددا نشيد الخسر والضياع .. أدرك الآن أنه قد دخل الى عالم الاغراء الذى يوسوس فيه الشيطان فليس الذى يمر أمام عينيه الآن هو عالم الأحياء ، ليس هو ممالك الأرض ... وانما هو مجموع ما على هذه الأرض من خزى وذل وهوان . خر ساجدا على ركبتيه وضم يديه فوق الكراسة المفتوحة أمامه . يداه اللتان ما جعلتا الا لتناول المقدسات ولمنح العفو والغفران ، ها هما تمسان تلك الصفحة التى تجرى بين سطورها آثار نجسة خلفتها أنامل جراديز . انطلق الراعى يتمتم صلواته على تلك الكلمات المكتوبة التى لوثتها الجريمة . تذكر

واجب الطاعة المفروض عليه واستعاد الى ذهنه ما تلقاه من تعـاليم الدير . ان ما نرتكبه من كذب وخطيئة فهو من أنفســنا ، أما حب الله فهو نعمة منه وهو جزاء لنا عما نأتيه من عمل فى حب الله . واذا كان هو الذى يبادر الى الخير فنحن الذين نبادر الى الشر . وفى كل مرة نسعى فيها الى الخير يسعى الله فيها معنا وبنا ، أما حينما نسعى الى الشر فلا نسعى فيه الا بأنفسنا . وهكذا فنحن فى عالم الشر نوع من الآلهة ...

•

ـ هذا الرجل ، جرادير ، قد اختار لنفسه ان يكون اله ...

هذه الحقائق كلها مرت فى خاطر آلان فنزلت على ما يملـــؤ قلبه من حيرة نزول الثلج على النار الحامية . الثلج !.. الثلج!.. تذكر أن احدى القديسات رأت فى عالم الرؤى ، الأرواح تهوى الى الظلمات على صورة ندف لاعداد لها وسط عاصفة من الثلج . ألم يكن خرير المطـر على قرميد البيت وفوق الطرق الفـارقة ليكفى لاخفاء الصمت المادى المنتشر على هذا الثـــلج الآدمى ، على تلك الطبقات المتراصة من الأرواح الهاوية المتراكمة بعضها فوق بعض فى سقوط لا نهاية له .

بذل الجهد العنيف ليقتل فى نفسه هذه الرغبة الآثمـة التى شعر بها تبرز فى أعماقه ، رغبة الانضمام الى تلك الندف ليصبح واحدة منها ، رغبة الانصياع الى الاغراء الكريه الذى يدعوه الى عدم الانعزال عن دنيا الأرواح العديدة الضائعة . أفرغ من قلبه التفكير وترك ذهنه عاطلا . واذا بفؤاده يعود من خلال العصور الطـويلة الى الكلمة التى رد بها المسيح على حواريه وقد سأل :

ـ اذن يا رب ، لن ينجو أحد أبدا .

ما من شي يستطيعه الانسان وكل شيء يستطيعه الله .

كل شيء يستطيعه الحب . ان الحب يفسد احكام المنـــطق والعقل ويتحدى حكمة الحكماء . هذا الانسان البائس الذى أفرغ على صفحات تلك الكراسة الصغيرة جميع ما فى حياته من ادران، هل يدرى ما كان يستطيعه لو أنه سار فى طريق الخير ؟ لعل أولئك الذين قدر لهم أن ينغمسوا فى حمأة الشر كانوا هم قبل غـيرهم

الصفوة الناجية ؟ وما عمق الهاوية التى سقطوا فيها الا مقياس الخير الذى أعدوا له من قبل ثم انحرفوا عنه . هل اصبح الأبرار أبرارا الا لأنهم أوتوا القدرة سلفا على سلوك سبيل اللعنة والضياع؟ وربما كان الساقطون هم وحدهم الذين كان فى استطاعتهم أن يصبحوا يوما فى عداد القديسين .

هكذا كان يفكر آلان وهو راكع وقد ضم يديه على الكراسة المدرسية الصغيرة . ازداد المطر شدة . قال فى نفسه ان المطر ينهمر أيضا على سطح قصر ليوجا حيث يرقد فى احدى حجراته الرجل البائس الذى سود بخطه المتعرج تلك الصفحات . وهذا الرجل هو أبو أندريس الذى أحبته توتا ... أحس الآن فى تلك اللحظة احساسا يكاد يكون ماديا بتلك القرابة التى تربط النفوس بعضها ببعض . بتلك الأنساب الخفية التى تنظمنا جميعا فى خيط واحد من الخطايا والنعم . سالت من عينه دمعة ، انه يبكى من أجل الخاطئين وبعد قليل مزقت صفارة القطار صمت الليل البهيم، وصرخت عجلاته وهى تدرج فوق القضبان بينما انطلق منه البخار فى جلبة شديدة . قال آلان : « هذا قطار الساعة التاسعة يدخل المحطة » . ولكن ما الذى يعنيه من وصول القطار ؟ شعر فجأة بحزن ثقيل يضغط عليه حتى أنه أسند رأسه الى المنضدة ومس بجبينه الكراسة الزرقاء الصغيرة .

تقدم القطار تحت المطر الكثيف . ليس على الرصيف أحد غير ناظر المحطة وقد تلفلف فى رداء سميك وعامل الاشارة الذى راح يحرك مشعلا فى يده وجراديو يخفى وجهه تحت مظلته . أسرع الخطى نحو سيدة بدينة هبطت فى عناء من احدى مقصورات الدرجة الثانية حيث كانت بمفردها . أما عربات الدرجة الثالثة فكانت ترتفع منها أصوات كنقيق الدجاج . من تلك اللحظة بدأت اللعبة التى أعد لها جراديو فى عناية . فقد كان من أيسر الأمور لديه أن يقلد صوت آلين فى التليفون ... بدأ فى الحال الفترة الحرجة اذ يجب ان تصغى آلين الى ما يقدمه لها من شرح ولعلها سوف ترفض حتى الاستماع اليه . لو انه استطاع أن يمدها

لتلك اللحظة عن طريق برقية يرسلها لها ... ولكن ارسال البرقية من مكتب ليوجا كان أمرا جنونيا بلا شك بينما ذهابه الى بوردو لهذا الغرض كان من شأنه أن يثير الظنون والريبة . فقد تفضحه البرقية - لو أنه بعث بها - فى التحقيق المحتمل ... ألم يكف أنه اضطر هذا الصباح الى التحدث بالتليفون من لوجدونوس مقلداً صوت آلين ؟... لم يكن هناك من وسيلة غير هذه لمنع كاترين من القدوم الى المحطة ... لا . ان الأمر على هذا الوضع خير من غيره . أما المهم فهو نبرة الصوت الذى يتحدث به مع آلين ... نعم ، يجب اختيار النبرة المناسبة .

- نعم ... نعم ، هو أنا . هل ادهشك وجودى هنا ؟.. لا تقلقى ... سأشرح لك الأمر . كاترين مريضة... ٣٩ حرارة... اضطر العجوز لذلك ان يكشف لى عن السر ...

تسمرت آلين فى مكانها فلم تجد ما ترد به عليه .

- هيا ، لا تبقى تحت المطر ... هيه ... أنا على علم بكل شىء ... تلك المؤامرة التى دبرتموها لكى أتزوجك وأريحهم من وجودى ... يالك من غبية !... لم تكن بك حاجة الى كل هذه المؤامرات والتدبيرات . لقد كنت مصمما ، على الزواج منك ولكن اسمحى لى أن أقول لك انك أخطأت باشراك ديبا العجوز فى شئوننا الخاصة .

استمادت آلين تفكيرها وأمسكت بذراعه لتحتمى معه تحت مظلته . قالت فى ضميرها : « لاشك أنهم أوهموه بهذه الحيلة وانهم وجدوا هذا الأسلوب أبسط الأساليب ... وهى ليست على كل حال بالفكرة السيئة ... » ثم التفتت اليه :

- اعلم يا صديقى أن الزواج منك ... أصبح الآن لا مطمع لى فيه ... وأنا أطلب مهلة للتفكير فى الأمر .

اطلق جرادير عند ذلك انفاسا عميقة . ان كلمتها هذه الأخيرة فيها النجاة كل النجاة له ، والهلاك كل الهلاك لها . فعل كما فعل ليلة قدومه فاعطى تذكرة آلين الى المستخدم ، واخذها ودار بها حول مبنى المحطة . سألته آلين فجأة :

ـ ما هذا ؟... مادمت على علم بمقدمى ... لماذا لم تحضر ومعك السيارة ؟ ليس هناك سبب ... !

ـ لقد أخذ أندريس السيارة ولم يعد بها بعد .

من حسن طالعه أن الردود البسيطة المقنعة هى التى تقفز الى ذهنه دائما فى اللحظة المناسبة .

تمتمت آلين « يا للحظ العاثر !.. » ثم تعلقت فى ذراعه وغاصت بقدميها الهائلتين فى الوحل . فقال لها :

ـ مسيرة عشر دقائق ... لا أكثر ... سنسلك الدرب المختصر ...

سارا فى طريق تكسوه نشارة الخشب ولحاء الشجر وسط أكوام مرصوصة من الألواح ويؤدى الى أحد أطراف القرية . وبدلا من أن يسلك الطريق الرئيسى دخل بها فى ممر ضيق محاذ للبيت الأول من بيوت ليوجا ثم اندس بين أشجار الغابة . وقال لها :

ـ هذا هو الدرب المختصر ...

أخطأ اذ قال لها ذلك . فقد كان فى استطاعته الا يقول شيئا لأنها لم تكن تنظر الا الى قدميها لتتحاشى برك المياه وحفر المسير . لقد استرعى انتباهها فاضطرته الى رفع المظلة عن رأسها وبدا عليها القلق لوجودها وسط الغابة بعيدة كل البعد عن المساكن .

قال جبريل :

ـ سننفذ قريبا الى الطريق المؤدى الى القصر . هلا رأيت مزايا هذه الأراضى الرملية فى مثل هذا الطقس اللعين ؟ انها تمتص الماء جميعه . تصورى حالة الطرق الآن ... انها أنهار من الوحل ... أما هنا فلن تبتل قدماك ...

ردت عليه آلين محتجة وقد تقطعت انفاسها :

ـ بل لقد ابتلت قدماى فعلا ... هذه الاعشاب اللعينة !.. انها تلقى بمياه المطر داخل الحذاء كما لو كانت تصبها بملعقة ...

ـ ها قد عاد المطر ينهمر ...

ـ لا . انها الرياح تسقط ما علق بالاشجار من ماء ...

وكانت مياه المطر فى الواقع هى التى تنساب عليهما سيلا مدرارا وتصفع وجهيهما بعنف . قالت آلين وهى تنوح :
- يا الهى !... لقد هلكت من التعب والمطر ... ثيابى التصقت بجسمى ... هل أنت متأكد من طريقك ؟... هل نحن نقترب من النهاية ؟..

لاشك انه لم يسمع ما قالت لأنه لم يرد عليها بشىء ... كانا يسيران على أرض من الرمل الناعم انتشرت فيها الجذور التى لا يمكن تحاشيها والتى يرتطم بها السارى فى كل خطوة .

- ما اشد الظلام يا جبريل . ارجو الا تكون قد ضللت الطريق ؟... لماذا لا تجيبنى بشىء ؟...

حاولت ان تستخلص من ذراعه ذراعها التى يضغط عليها ويضمها اليه كما يفعل العشاق . لا ، بالتأكيد ، انه لم يضل الطريق . لقد كان يسير بخطوات ثابتة سريعة كخطوات من يعرف الى أين يسير وهى تتدحرج الى جواره كأنها دابة كسيحة شرسة .

توقفت فجأة وقد التوى كعب حذائها وانغرس فى الرمل . ثم لفت ذراعها اليسرى تحتضن جذع احدى الأشجار وقالت فى اعياء :
- لا . لن أتقدم الى أبعد من هنا .

ضاع صوتها الأجش الكريه وسط صفير الرياح وضوضاء المطر وهى تصرخ :
- النجده !..

لم يكن فى استطاعة أذن بشرية أن تسمع صرختها على بعد خمسين مترا من حيث يقفان . قال جبريل بصوت كله هدوء :

- هل جننت يافتاتى المسكينة ، ها قد وصلنا ... هناك ؟ الا ترين الصنوبرات الاخيرة ؟ الا ترين تلك الفسحة فى السماء ... ذلك الذى يبدو أبيض هناك ... انه البيت ...

استردت انفاسها وهى معلقة بجذع الشجرة ووجهت عينها الى الجهة التى يشير اليها حقا ... نعم .. يبدو أن الغابة قد

اقتربت من نهايتها . ان أشجار الصنوبر تقف حيث تبدأ الحديقة.
نعم هناك جدار منتصب أبيض اللون ... انه حائط فعلا ...
ابتلعت قدرا من الهواء ثم قالت وفى صوتها ما يشبه الرقة والدلال:

ـ أرأيت كيف انك تخيفنى ، أيها الوغد . أعرف أنك لم تنس بعد تلك الغرفة فى شارع لامبير بحى ميراديك ... هل تذكر كيف كنت أعنى بك هناك كما لو كنت ابنى ؟ ما أكثر ما أنفقت من مال من أجلك !... أموالى كلها كنت أخصصها لك ... كنا متحابين وقتئذ أليس كذلك يا جبرييل ، قل ...

عاد اليها نوع من الاطمئنان وأصبحت هى التى تسبق جرادين فى السير . أسرعت نحو نهاية هذا الكابوس ، ولكنها توقفت فجأة وقالت فى نواح:

ـ ليس هذا حائط . انى لا ارى سطحا ولا نوافـذ ... أين تقودنى يا حبيبى ؟. اين نحن الآن ؟.

ـ نحن عند مدخل المرج . لقد كنا فى طفولتنا نسمى هـذا المكان « الصخرة » . كم من مرة انزلقنا منه انا وابنتـا دوبوش الصغيرتان !...

ـ انزلقتم ؟... لماذا انزلقتم يا جبرييل ؟.

ـ اليك ، انظرى ... لا تخافى .

كانا على شفا ربوة تعلو عالما مبهما مجهولا . على ضوء الرمل الأبيض رأت آلين ، رغم الظلام . خليط مبهما من الجبال الدقيقة والفوهات المستديرة . قال لها جبرييل شارحا فى هدوء متير:

ـ انه مقطع رمال مهجور . ها قد وصلنا .

تلعثمت وهى تقول:

ـ وصلنا ؟...

لم يعد ممسكا بذراعها ، فلا سبيل لها الى الفرار . والى أين نهرب ؟ انه مطمئن تمام الاطمئنان . زاد من مدى خطواته ، وترك فريسته تجرى خلفه لاهثة على بعد قليل منه . وقال:

ـ نعم يا عزيزتى ، لقد تحاببنا كثيرا فى شارع لامبير . ومنذ ذلك الحين جردتنى انت أيضا من مالى كثيرا . ليس هذا عتابا منى

كلا فقد أخذت أنا منك وأخذت أنت منى .. وكنت أنت الفائزة بعد خمسة وعشرين عاما ... ما الذى أعددت لصديقك القديم ؟ هلا قلت يا جميلتى ؟...

غيرت اتجاهها وراحت تجرى وسط الغابة متثاقلة . القت بنفسها وسط الادغال السوداء الى أن سقطت وهى تطلق صرخة لم تكملها ثم تماوتت وظلت هكذا برهة غير قصيرة . صمتت الأصوات جميعا الا صوت الخرير الهائل وصوت قمم الأشجار المتصارعة وصوت اسنانها المصطكة . لعله قد ضاعت منه آثارها ولعله يضرب الآن وسط الظلام . ولكن فجأة اخترق الليل شعاع قوى من نور ما لبث أن سقط عليها ثم انطفأ . سمعت بعض الأغصان تتكسر ثم جاء صوته المرعب من جوارها يقول :

ـ اختراع عملى جدا مصابيح الجيب هذه ؟ أليس كذلك ؟.

قبضت يداه على رسغى قدميها وتعلق فى جسمها متوسطا ما بين ساقيها كأنه جواد ربط فى عربة . اخذ يجرجرها خلفه وهى تتشبث بالجذور والجذوع والاشواك وتطلق من حنجرتها حشرجة مكتومة ، فلم تعد بها قدرة على الصراخ . واخيرا توقف عن السير.
ـ على قدميك يا صغيرتى!..

ولما لم ير منها حركة ارسل بكعبه بضع رفسات عشواء فى الجسم الضخم المكوم امامه فانتصبت فجأة . كانا قد وصلا الى حافة مقطع الرمل فلف ذراعه حول خصرها واحتضنها الى صدره كما لو كان يراقصها وقال فى صوت هادىء لا ثورة فيه :

ـ أرأيت يا آلين . فى هذا المكان لما كنا صغارا ، كنت امسك كلا من ابنتى دوبوش من يدها وأقول لها : « ضمينى جيدا الى صدرك » ثم نتزلق باقصى سرعة . انظرى ... هكذا ...

جذبها الى الامام على الحافة حيث سقطت فى الحال وهى تصرخ . ولكنه أسرع يدفعها بكلتا يديه وقدميه فى وحشية مفاجئة كما لو كان يدحرج برميلا . كانت فى حالة اختناق واعياء شديدين عندما وصلت الى أسفل المنحدر وهناك ارتمى على جسمها بكامل

جسمه وضغط عليها بمنتهى ثقله وقبض على عنقها بيديه تلك الحركة التى طالما رسمها فى خياله ، واخيرا أجهز عليهـــا فى بطء وعناية . تجمعت فى أصابعه قوة هائلة لم يعهدها من قبـــل . لم تكن به حاجة لان يظل قابضا على عنقها طوال هذا الوقت ، فانهـــا ماتت قبل ان يفك قبضته بزمن طويل ، ولولا المطر الذى كان يملأ جسمه بردا لظل فى ذلك زمنا طويلا ، فما كان ليشـبع ابدا من خنق هذه الجثة الهامدة .

التقط انفاسه قبل أن ينتهى من فعلته ، ولم تعد فى جســمه شعرة لم تبتل من المطر ومن العرق معا . تأكد ان انسانا ما لم يحرك منذ مساء امس الواح الخشب التى تخفى منفذ المغارة حيث كان العمال يحتمون من المطر قديما . دخل الى المغارة واضاء مصباحه الجيبى . لقد تسرب المطر اللعين من حيث لا يدرى وغمر الحفرة التى حفرها الليلة الماضية . حدث نفسه قائلا : « لتأخذ آخر حمام لها فى هذا العالم » ثم شعر بالتعب الشديد ينال منه . عاد الى لعبة الجواد والعربة مرة اخرى وتعلق بين ساقى الجثة التى مازالت محتفظة بطراوتها . لم يحس هذه المرة باية مقاومة من ذلك الشىء الذى يجره خلفه . ولكنه لاحظ ان احدى القدمين قد تعرت من الحذاء . يجب عليه أن يعود القهقرى وفى يده مصباح الجيب، فلن يخطو خطوة الى الأمام الا بعد العثور على الحذاء المفقود ... هاهو الحذاء بكعبه الملتوى ...

لا يقاس الجهد المطلوب منه الآن بذله شيئا الى جانب ما بذله الليلة الماضية فعملية الردم أسهل كثيرا من عملية الحفر . ولـــكن الأمر مع ذلك ليس يسيرا مع انفاسه المتقطعة ويديه الواهيتـــين وساقيه المجهدتين . اعاد الى مكان الحفرة الأعشاب المتعفنة التى كانت هناك من قبل والقش القديم ... لا يدخل الى هذا الجحر أحد ابدا . والجاروف ، ماذا يفعل به ؟ خلع منه مقبضه ودفنه فى الأرض . اما قطعة الحديد نفسها فهو يعرف مكانا فى قاع الباليون حيث لن يسعى الى البحث عنه فيه احد . كم يلاقى من العنـــاء لصعود هذا المنحدر !.. مازال المطر يسقط كأفواه القرب . اخذ

جرادير يبذل كل ما بقى له من جهد كما لو كان يدفعه انسان حتى وصل الى القمة . وهنا انتهى الأمر ، ولم يعد فى حاجة الى أحد ، ثم انطلق يسير وسط الظلمة المبللة وهو يضم الى صدره حديدة الجاروف التي أدمت أصابعه ، وسلك الطريق التى سار فيها فى ضوء القمر البديع ليلة وصوله الى ليـوجا . لم يتكشف له عالم الرؤى فى تلك الليلة الا عن الوحل اللزج وعن المياه الدائمـة التى تغمرد . هذا هو الجسر الذى يعبر الباليـون ، فيجب عليه اذن أن يهبط مرة أخرى ويغوص بكل قدميه فى المرج المبتل الذى لاتنفصل منه قدمه الا ولها طرقعة عالية . القى بالجاروف وسط مجـرى الماء ، وعاد الى الطريق وقد اكتسى صورة الجريمة . لقـد افـرغ حمولته من الكره والحقد ، تلك الحمولة التي تجمعت فى نفسـه ، قطرة قطرة منذ ربع قرن من الزمن . لقد انقضى الكره والحقـد فجأة ما احلى رقدته منذ عشرين سنة مضت فى سرير الغرفـة بشارع لامبير !... عادت الى ذاكرته فى تلك اللحظة صورة الورق الممزق على الحائط وبقع الدم الصدىء الذى تركه هنا وهنـاك الناموس والبق . لقد كان يترقب انصراف الزبون من عند آلـين ليذهب يصطلى على النار فى حجرتها ... ما الذى حدث ؟.. لقد قتلها حتى لا يقتل هو . هل هو بحاجة لانتحال الاعذار عما فعل؟.

لكن قوة الجريمة خانته ولم تعد تسنده . واستولى الرعب المخيف قليلا قليلا على حركات تفكيرد المبهمة . شـعور بالوحدة يضغط عليه لم يشعر بمثلة من قبل أبدا . ها هو وحيدا ! ... ما الذى صار اليه هذا الوجود الحارق فى داخله ؟ أين هذه الفطنة الغامضة فى ذهنه ؟ أين هذا الصوت الماكر المخادع ؟ أين هـذا الناصح الذى لا يغيب عنه ابدا ؟ لقد كان حتى تلك اللحظة كالاعمى الذى يسحبه كلب أمين لا يتوقف عن السير على الرغم من جذبه المتواصل على مقوده . أما الآن فقد أفلت هذا الكلب من رباطـه وتفتحت عينا الأعمى واصبح يرى كل شىء بوضوح على الرغم من الظلام المحيط به .

بقى له أن ينتظر المطاردة . سيقوم أناس بالبحث والتحـرى والتشمم ورفع الآثار . سيقترب منه النباح الذى يتتبعه . ستظهر

العلامة الأولى : بضعة اسطر فى احدى الصحف وتلميحات مبهمة عن الارتياب فى أحد الشهود . سيجرى الكلام عن اجراء الاناية القضائية وسيتم استجوابه لمدة ساعة او ساعتين أو طوال ليلة كاملة . سيتتابع عليه الجلادون من المحققين ، وسيحصلون منه على الاعتراف عن طريق الارهاق والاعياء . ثم حياته كلها وقد انكشف عنها الغطاء ، حياته الدنيئة كلها ... وسيعلم أندريس الحقيقة ... ولكن ألم يكن الصبى ليعلم على كل حال لو أن آلين نجحت فيما كانت تنوى عمله ؟...

لولا هذا المطر الذى لا ينقطع لكان قد استلقى راقدا فى عرض الطريق . بيت القسيس !... آه لو انه استطاع !... لو أوتى الجرأة على طرق هذا الباب !... ثم القى بنفسه على العتبة المبتلة وبيديه راح يمسح عليها فى استحياء وخجل ، ويمسها كأنها وجه انسان ، فشعر بالتجاعيد تحت أصابعه .

- ١٥ -

كل اهل البيت نيام . انه يمسك حذاءه فى يديه ، كتلتين من الطين الغليظ . شعاع من نور ينفذ من تحت باب غرفته . هل ترك النور مضاء ؟ فتح الباب فوجد انسانا راكعا امام المصلى الصغيرة التى تتوسطها صورة اديلا . وقفت ماتلد ونظرت اليه من غير أن تقول شيئا . انه سعيد لوجودها هنا . ارتعد من البرد وقال لها:

ـ انا بردان ، اتركينى ارقد فى السرير .

كلماته فيها تضرع ومسكنة . لكأنه سائل يستجدى . انتزع عن جسده ملابسه المبللة . ادارت رأسها وشمت تلك الرائحة التى تنبعث من الصوف المبتل ومن العرق الغزير . جذب الغطاء حتى أخفى تحته وجهه . لم تعد ماتلد ترى الا كتلة ترتعد وخصلات من الشعر بيضاء . قال لها:

ـ خذى حذائى وازيلى منه الطين . ثم اخفى ملابسى .

استطاعت ان تتكلم فسألته ما الذى فعل ؟ ومن أين هو آت؟ فاجابها :

ـ من الصخرة ... هل تذكرينها ؟... كنت آخذكما انت واديلا كل واحدة من يدها ...

لم يكمل حديثه وانما خفض صوته وقال :

ـ ... لقد دافعت عن نفسي ... كان ذلك من حقي... اليس كذلك ؟.

القى هذا السؤال بصوت فيه استرحام وألم . وبرز بوجهه من بين الأغطية فظهر رأسه ... رأس عجوز فان . سألته ماتلد :

ـ انا شريكتك اذن فى الجريمة ؟.

ثم عادت تسأل فى يأس أ

ـ هل انا شريكتك ؟ بالتأكيد ، لانى كنت على علم ...

ـ لم يرنا أحد ... لقد كانت تسكن غرفة مفروشة ... وكانت على غير وفاق مع صاحبة المنزل ، ولم تكن تذكر أبدا الى أين هى ذاهبة . خطابات سيمفوريون التى سيعثرون عليها لا تحمل اية دلالة . وهو ليس الرجل الذى يقبل ان يذكر اسمه فى هذه المسألة اذا ما شاعت . وعلى كل حال ستنحينه أنت عن ذلك .

كانت آلين وحيدة ... وحيدة تماما . سيبحثون عن الفاعل وسيستجوبوننى بالتأكيد ... ولكنى طبعا كنت هنا ...

فجأة سألته ماتلد :

ـ ومركيز دورت ؟ لقد دبر كل شيء . لا بد أنه على علم بسفر آلين . سيرشد العدالة الى الطريق الذى تسير فيه ... وبما انه لا يكن لك الا الكراهية ...

حبس جبرييل صرخة فى صدره وانتصب فى سريره : انه لأمر عجيب ... كيف لم يحسب لهذا المركيز حسابا ؟ . ولكنه قال :

ـ ولكنه لا يملك أى دليل . سأنكر ...

هزت ماتلد كتفيها :

ـ هل تظن حقيقة انهم لن يجدوا أثرا لسفرها الذى قامت به؟ التذكرة التى اشترتها ؟ يوجد دائما من يثبت أنه رأى المسافر ...

قال متلعثما :

ـ لن اتحرك من هنا ... سأنتظر هنا ... فى هذا المأوى ..
جلست ماتلد على حافة السرير ومن غير أن تنظر اليه سألته :
ـ ما الذى فعلته بهذه المرأة ؟.
ـ لقد تشاجرنا . كانت قادمة لتقضى على ... اليس هذا صحيحا ؟ لم يكن فى نيتى ... ولكنى عندما رأيتها متبجحة استولى على الغضب ...

ها هو قد بدأ يكذب ... قد بدأ مرافعته . انه يفكر فى الظروف المخففة .

ـ نعم ، ولكن لماذا خرجت فى الليلة الماضية ومعك الجاروف؟
وجه الى ماتلد نظرة ملؤها الرعب والحقد وقال :

ـ ما هذا ؟ هل تتجسسين على انت ايضا ..؟ ما دهاك ؟ هل هى خيانة منك ؟ ولكن حذار يا صغيرتى ...

اسرعت تضع اصبعها على فمه . فقد سمعت من الدهليز صوت عطسة مكتومة . واربت الباب وقالت :

ـ هذه أنت يا كاترين ؟ نعم لقد جاء جبريل يستدعينى . انه متعب وبه حمى عنيفة . بودى أن اعمل له بضعة كاسات هواء . والكئوس فى حجرة أبيك على ما أظن . هل يمكنك احضارها من غير أن توقظيه .
سمع جراديز صوت كاترين تقول :
ـ لم يكن يبدو عليه أى مرض اليوم ...
ـ لقد رقد بعد تناول العشاء . تبلغ حرارته الأربعين .

قالت كاترين انها ذاهبة لاحضار الكئوس، وظل الباب مواربا . تنهد جراديز ارتياحا ، فقد أصبحت ماتلد تشاركه ما يعانى ، انها بدأت تكذب . نشرت الملابس المبللة على مدفأة حجرة الحمام . لم تلبث كاترين أن عادت ومعها الكئوس ، فشكرتها ماتلد من خلال الباب الموارب وانتظرت الى أن ابتعدت الفتاة ثم فردت صحيفة على أرض الغرفة وراحت تكشط الطين عن الحذاء بوساطة خنجر معدنى مما يستعمل فى فض الرسائل ... اخذ جبريل يردد على سمعها عبارات الشكر والامتنان فقاطعته فى تأنيب قائلة :

ـ هذا من أجل أندريس ...

من أجل أندريس أو من أجل غيره ... ما الذى يهمه من ذلك؟ فهو لم يعد وحيداً ... انه الآن لم يعد يساوى شيئا . انه مجرد حطام . فاجأته ماتلد بالسؤال:

ـ ما الذى تنوى عمله ؟ كنت قد رسمت خطة ، أليس كذلك؟.

لقد كانت لديه خطة مرسومة ، بالتـأكيد ، ارهاب الرجل العجوز ، نعم ، ارهابه وقتله بالخوف ... انها خطة تبدو هزرا ولعبا . قال لها:

ـ ولكن ، لو تمت الخطة لما جاءت آلين ، ولما ردت على رسائله ... ولما كان لديه أى دليل ضدى ... كل ما هنـالك أنه كان سيشعر أنى الأقوى ، وانى أسير الأمور كما أهوى . وما كان عندئذ ليقوى على تحمل الصدمة ...

هزت ماتلد كتفيها . انها ترى هذا التدبير صبيانيا بحتا ... على كل حال ، مازالت الظروف كما كانت ، وعلى الصـورة التى تمناها . فما الذى تغير من الأمر ؟.

ـ لم أعد كما كنت يا ماتلد . لقد تغيرت ... لا لم يكن تدبيرا صبيانيا أبدا . أنا أعرف ماذا أقول . لقد كنت قادرا على القضـاء عليه وبسرعة فائقة ومن غير حاجة لان أمسه بيدى ...

ـ يالك من بائس! ... وهل تعتقد أنى كنت أتركك تفعل فعلتك هذه ؟.

ادركت فى الحال أن هذا الاحتجاج جاء متأخرا . ولكن لم يعد للأمر اية أهمية . فسيمفوريون قد نجا ، والرجل الذى تصطك أسنانه الآن لم يعد قادرا على ايذاء أحد . ها هو يستعيد ثقتـه ويقول متسائلا:

ـ هكذا ؟ لقد وضعتنى بنفسك فى السرير بعد الانتهـاء من العشاء ، وبذلت لى عنايتك ، ويمكن أن يقال انك لم تفارقينى طوال الوقت . ومن حسن الحظ ان كاترين لم تسمعنى حينما خرجت ، وان جرسانت صماء على ما هى عليه ، وان الخدم ينامون فى القرية .

أنا لم ادخل الى المحطة . وثقتى كاملة فى أن مظلتى حجبتنى تماما. اما ناظر المحطة واما عامل القطار فكانا ملتفين فى أرديتهما ولم يكن لهما من هم الا الاحتماء من المطر ...

استمعت الى كلماته فى ياس مظلم . ما الذى توقعته من هذا الوغد الجبان ؟ ما الذى تنتظره فجأة امام هذا المخلوق المنهوك ؟ لقد اعتمدت عليه واستراحت ، وكان له مظهر القوة والجبروت ، وكان يعدها بالسعادة . لقد استدرجها فى الطريق السهل الذى ليس فيه خطيئة جسيمة ترتكب ، وليس فيه شيء يستحق ان يذكر فى سر الاعتراف ... ومع ذلك فقد بدا لها الهدف المقصود جميلا الى الحد الذى لا قبل لها معه ان تفكر فيه بل ولا ان تتصوره . هل يرجع حنق ماتلد عليه الى الجريمة التى ارتكبها؟ هل كان احتقارها لهذا البائس ليزيد لو انه عاد فخورا مباهيا بما فعل ؟ هل تنصب كراهيتها فى الواقع على المجرم أو على المهزوم؟..

سمعته ماتلد يقول :

ـ لقد تذكرت يا ماتلد ، لقد تذكرت الآن انها لم تكن لها اتصالات مباشرة بالمركيز دورت ... لقد قالت لى هى نفسها ان علاقاتها كانت كثيرة التعقيد بسبب خوفه من الفضيحة . لقد كان كل شيء يتم بينهما عن طريق شخص وسيط . فى استطاعتنا ان نطمئن من هذه الناحية . لن يتحرك المركيز...

قاطعته ماتلد بعنف :

ـ ما الفائدة من الكلام الآن . لم يبق الا انتظار ما تأتى به الظروف . فاذا لم يحدث شيء .. ستسير الأمور كما لو لم يرك أحد ثانية فى ليوجا . ما أعجب الفكرة التى كنت أرسمها عنك فى خيالى . طبعا ، كنت أعرف من أنت ، ولكنى أدرك الآن انى كنت أسند اليك قدرا لا ادرى مداه من السلطان ومن القوة ... كم كنت بسيطة غبية !... مهما كان الأمر الذى ارتكبته هذه الليلة ، فأنا لا اريد أن اعرف ما هو ، ولا أصدق كلمة واحدة مما رويته لى ، ولا اسمح لك بفتح فمك فى هذا الشأن امامى ... مهما كان هذا الأمر . فأنت على الرغم منه مازلت فى نظرى رجلا لا يفكر الا فى

انقاذ راسه ، وقد عجز عن تحمل الصدمة وانفلت منه عيارالتفكير ... أنت رجل مسكين بائس .

كان جرادير جالسا على السرير ينظر اليها فى صمت ويتلقى طعناتها بلا مقاومة . لم يعد يشعر بالبرد وامتلأ قلبه اطمئنانا : ان شهادة ماتلد ، مع افتراض أسوأ الفروض ، سوف تؤدى الى انقاذه . اخذ الدم يصعد الى وجنتيه ويزول عنه الجمود والتبلد ببطء . لقد اصبح الثعبان الآن فى مأمن ، وعاد اليه الدفء فعاد يرقص برأسه الصغير ذى العمامة الفضية فوق الأغطية . وراح يرد بعنف على عبارات الاحتقار التى توجهها له ماتلد. انه لم يخطىء الحدس ولم يضل التقدير !.. لقد وقعت فى الفخ وهاهى تعض فى الطعم الذى نصبه لها ، بشراهة لم يتوقعها منها من قبل ، شراهة أدهشته هو نفسه . لا ، لن يخيب رجاؤها فيه ... يجب الايخيب رجاؤها والا تفقد ثقتها . سيسير اذن قدما فى طريقه وكل ما تنتظره منه هذه المرأة سينفذه لها . ومن حسن طالعه أنها لم تظهر له حنانا ولا حبا ، والا لزادت من رهبته ولزادت من ضعفه ... ولكن هذه الرأفة منها ، التى يخالطها الاحتقار ، كانت تلهب ظهره، وتدفع به الى الأمام ، وتعينه على قهر ما هو فيه من انهاك وخمول ... لم يكن لموت آلين أية اهمية . انه يعرف ذلك ... سكيرة قذرة انتقلت الى عالم الفناء . حية ابتلعت ضفدعة ... هل من شأن ما ارتكب فى تلك الليلة ان يحتل مكانا مرموقا فى نظام الكون؟ انه بطبيعة الحال قد بذل جهدا واجتهادا كبيرين فى ارتكابه لفعلته ... ولكن هل يتم القضاء على امرأة هكذا بغير حماس ؟...

قال بعد صمت طويل :

ـ ياصغيرتى ماتلد ، انك تحكمين على بما اصابنى من عجز مادى بحت ، ولكن اطمئنى ، فالآن سنسير حتى النهاية .

احتجت عليه بعنف ، فلماذا يشركها معه فى قوله «سنسير»؟ ما شأنها هى فى ذلك كله ؟.

ـ أنت مكيرة يا عزيزتى ، ككل النساء .. ولكن الأمر لدى سيان . ولم يمنعك مكرك هذا من أن تعيدى الى نفسى الشعور

بالمسئولية .. نعم بالتأكيد ، مسئوليتى قبلك ، ومسئوليتى قبل اندريس .

تظاهر بأنه لم يسمع شيئا من احتجاجاتها واسترسل يقول :

ـ على أنه يجب علينا أن ننتظر وستملى علينا الظروف السلوك الذى نتبعه . اذا لم ينكشف شيء من المخبوء سننال وترنا منهم وفى وقت قريب .. أما اذا سئلت فى التحقيق فسأخلص نفسى منه بفضلك أنت .. فأنت سياج منيع من حولى ..

سألته ماتلد فى صوت خافت :

ـ الا يحتمل أن يكتشفوا .. أعنى ، المكان الذى توجد فيه .. لا . لاتقل لى شيئا عن هذا المكان .. لاتقل لى شيئا .. فقط هل أنت مطمئن من هذه الناحية ؟.

ابتسم ابتسامة مبهمة وقال :

ـ ما من شيء يبدو لنا خفيا .. ما من شيء يبدو لنا غامضا .. كتلك الأماكن التى كانت مرتع لهونا ولعبنا ونحن أطفال . هل تذكرين دهشتنا يوم أن اكتشفنا مصيدة العصافير فى تلك « الجزيرة المهجورة » وسط الباليون ، التى سميناها جزيرة الجمال ؟ أماالمكان الذى توجد فيه ، فلايمكن التعرف عليه أبدا ، ولعل السبب الوحيد فى ذلك هو أن هذا المكان لم يحدث به شيء من قبل منذ تلك الأيام التى كنت فيها آخذكما ، أديلا وأنت ، من يدكما وأتدحرج معكماعلى المنحدر ..

قاطعته عندئذ ماتلد بصوت خافت :

ـ الصخرة ؟.

ـ نعم الصخرة ، مقبرة لم تكن بها جديرة . أما من يليق به هذا المأوى الأخير فهو نحن .. ثلاثتنا .. نرقد فيه .. وسط هذا الرمل الدافيء ، اللين تحت أقدامنا العارية .. أيا كان الأمر يجب علينا أن ننتظر ، ولكنى لا أستطيع السهر على كل شيء .. راقبى إندريس .. حالته تقلقنى .

ـ انه كما كان دائما .. لم يتغير .

انه من طبيعة حيوانية بسيطة غير معقدة .. ولست أقصد بذلك اهانته .. هو من أولئك الرجال الذين اذا أحبوا لم يصبروا

على البعد والهجران ؟ والذين لا يخشون الموت .. لأن الموت عندهم وفى تفكيرهم لايمثل شيئا ايجابيا اللهم الا ما يقصدونه منه وما يبغون من ورائه ، وهو الكف عن الاحساس بألم الفراق الذى لالقاء بعده . على كل حال ، راقبى واسهرى ..

التفتت ماتلد نحوه وهى تضع يدها على مزلاج الباب وقالت :

ـ لعلى أعرف طباعه أكثر مما تعرفها أنت . لقد أصيب بفشل ذى طابع شهوانى ، هذا جائز .. أما القول بأنه قادر على الانفعالات العنيفة .. فذلك يحملنى على الابتسام .. ولكن هل هذا ما يعنينا حقيقة الآن ؟ كيف جاز لك ، هذه الليلة .

بعد خروجها ، لاحظ جرادير أنه قد تكلم فعلا عن اندريس كما لو أن شيئا ما لم يحدث . ان الأمور لا أهمية لها فى ذاتها ،وانما المهم هو الاحتفاظ بهذه النبرة الخفيفة الطبيعية فى الكلام ، اذا ما جاءت العدالة تطارده . استغرق دفعة واحدة فى نوم عميق ..نوم فرضه عليه ما هو فيه من جهد وارهاق . فى تلك الساعة لم تكن جثة آلين بأكثر عمى ولا صمما من جثة هذا الرجل المنهوك المسجى، وقد ألقى برأسه الى الوراء ، وفغر فاه ، وضم على صدره يديه اللتين لم يهتم حتى بغسلهما من آثار الجريمة .

ـ ١٦ ـ

لاسوس الصغير هو الذى جاء بهذه الورقة من عند السيد الراعى .

تفحص جرادير وجه الخادمة،أول انسان قابله فى هذا الصباح ..ان مظهرها هو مظهرها العادى،فاطمأن قلبه . وانما الذى يقلقه فهو هذه الرسالة . لقد جن بلا شك حينما كشف عن مكنون فؤاده لهذا القس فى الظروف الحالية وخصوصا انه فعل ذلك بعيدا عن سر الاعتراف . نعم ، ولكن سر الاعتراف انما يشمل الاستفاضات التى يتلقاها القس بصفته الدينية.انه لا يخشى أن يقدم هذا القس على الادلاء بأقواله كشاهد اثبات . ومع ذلك ، كم هو يأنف من فتح

هذا المظروف . لعله مجرد اشعار باستلام ما ارسله اليه . . استسلم أخيرا وراح يقرأ : عبارات مرصوصة ،كلمات من كلمات القساوسة.

« مهما كانت الأعمال التى تثقل حياتى ، فليس فيها ما يدهش رجلا مثلك له علم بالرجال ، بل له علم بنفسه ، وهكذا يكفى . لا يجوز لنا أن ندهش لشىء ، ياسيدى ، الا لتلك المعجزة العظيمة الكامنة فى سر الاعتراف ، اذ يكفى أن تعيد على مسمعى كل ما احتوته الكراسةالصغيرة ، وأنت راكع خاشع وفى قلبك التوبة والندم ، لكى لاتبقى ذرة واحدة من الأثقال التى تبهظ كاهلك ولكيلا يكون بين قلب الطفل الصغير وقلبك من فارق الا بعض الندبات .

« لا ، لم تصبك أية لعنة ، فما من كائن حى أصابته اللعنة . . يجب عليك أن تدرك تلك النعمة الكبرى التى تمتعت بها ، وتذكر أن معظم الأنفس الزكية تحيا وتموت فى قداسة من غير أن تدرى شيئا من شئون السماء ، الا ماكشف لهم الايمان عنه . أما أنت ،ياسيدى، فاذا كان لعدو الله والناس وجود ، فلكل ما عداه وجود أيضا . . وكيف اذن لا تخر ساجدا ؟ ان قصة زوجتك ــ أديلا هذه ــ التى ربما أصبحت سبب نجاتك غدا ــ قد فتحت لى عينى ، أنا القس الحقير الذى ملأته قراءة الكراسة فى أول الأمر اضطرابا وقلقا ، هذا ما أعترف به وكلى خجل وحياء . ولكن يجب علينا الا ننظر من الأمور الا الى نهاياتها . . فالموت وحده هو الذى يضىء حياتنا . لم ترتفع تلك النفس المسكينة الى أسمى الدرجات العليا ، الا لأنك هبطت بها الى أسفل الدركات الدنيا . هل كان فى استطاعتها أن تسمو كل هذا السمو من غير الخطيئة ؟ هل أنت مدرك ، ياسيدى انك كنت وستبقى الى الأبد زوجا لاحدى الشهيدات ، لاحدى القديسات ؟ هل تدرك ذلك ؟ . . نعم ، أنت لاشك تدركه ، الا انك شرحت لى ذلك أحسن شرح فى كراستك . . »

كان جرادير يشعر وهو يقرأ تلك الرسالة بالغضب يتزايد فى نفسه ، ذلك الغضب الذى لم يقو أبدا على كبح جماحه . لم يستطع ان يذهب فى القراءة الى أبعد من كلمتى « الشهيدات » و « القديسات » ثم مزق الرسالة وألقى بقطعها فى المدفأة . وقف أمام المرآة ينظر الى الرجل الظاهر فيها بوجهه الشاحب وملابسه

المنزلية وشعره الأشعث . استنشق الهواء بقوة فسمع شنشنة فى صدره من أثر الاحتقان الرئوى . ولكن الصدر سليم . ها هى الحياة تنتشر مرة أخرى فى كيانه ، بل أكثر من الحياة : شباب عجيب يغلى فى عروقه ويفور فى دمه ... ما من شىء الا وهو قادر عليه ، مستطيع أداءه . وما من عمل الا وهو واثق من النجاح فيه واتمامه . عندما دخلت عليه ماتلد دهشت اذ وجدته مرتديا ملابسه مستعدا للكفاح . ضرب بجماع قبضتيه على صدره وقال فى مرح:

ـ ميت بعث حيا ... أليس كذلك ... يا صغيرتى ...؟

لم ترد عليه بشىء وأشاحت عنه وجهها الحزين اليائس . انها لم تنم من الليل شيئا وبدت وجنتاها وفيهما بقع صفراء . بعد لحظة قالت له :

ـ لو أنك مريض لعنيت بك . ولكن مادمت قد شفيت فانى أريد أن أخطرك أنى لن أضع قدمى فى هذه الغرفة بعد اليوم أبدا ، وأنى لم اعد راغبة فى تلقى أسرارك . ان كل ما أستطيعه الآن هو تجاهل ما أنا على علم به ، ونسيانه . وأسأل الله أن ينظر الى بعطفه وغفرانه . أما الآن فلا تأمل منى أن أخطو خطوة واحدة معك ...

ـ ما معنى ذلك ؟ هل هو تقاعس منك ، وقد أوشكنا أن نلمس الهدف بأيدينا ؟.

ـ ليس بينى وبينك شىء مشترك ... ولا لى غرض أسعى اليه .

واذ وصلت الى باب الغرفة لتنصرف ، قال بصوت خفيف : « أندريس... » فالتفتت اليه هائجة حانقة :

ـ أنت أخذته منى ... لقد فقدته ... نعم فقدته ... لقد كان ابنى ... ولدى الحبيب ، الى أن جئت أنت فعكرت كل ما كان طاهرا صافيا ... أشعت السم فينا . انه الآن يفر منى . لم أعد أشك فى ذلك ... هذا الصباح أردت أن أدخل الى غرفته فطردنى منها . لم يعد يطيق رؤيتى ... ما الذى أوحيت اليه عنى ؟ أكاد أعرف ذلك : انه ذلك الشىء الذى أسمعتنيه فى احدى الأمسيات والذى مازلت تلوحين به فى كل كلمة من كلماتك ...ها نحن اليوم

لا يجرؤ احدنا أن ينظر الى الآخر وجها لوجه ... وأين ومتى ؟ ... فى الوقت الذى يجد فيه المسكين نفسه مهجورا من تلك المخلوقة ... فى الوقت الذى يشعر فيه بالأخطار تهدده من جراء ما سوف يتكشف من دقيقة لأخرى ... ذلك أن جريمتك سوف تكتشف ، يا بائس ... ان القتلة لا يفلتون من يد العدالة أبدا .

قبض جرادير على ذراعيها وهزها هزا عنيفا وهو يقول :

ـ لا . هلا سكت ؟ سيسمع صوتك ... ما الخبر ؟ الم اكن فى حالة دفاع مشروع عن النفس ؟ يا غبية ! ... هل ظننت انه لا توجد جرائم الا ما تقرئين عنه فى الصحف ؟ هل تعلمين كم تبلغ نسبة جرائم القتل التى تظل بغير عقاب ؟ هذه النسبة ، انا أعرفها . يوجد من السمك الحر الطليق ما لا يمكن مقارنة عدده أبدا بالسمك الذى وقع فى شباك الشرطة وأحابيلها ... لا علم لك بالملايين العديدة التى تعيش فى الأعماق السحيقة بعيدة عن متناول الجميع .

لم تعد تصغى اليه على الرغم من بقائها مستندة الى باب الحجرة ضامة حول جسمها الجميل الملىء ثوبها القديم المصنوع من الصوف البنى . تسمر نظرها واهتز رأسها وهى تقول :

ـ لم ارد ... لا ، لم ارد ... لست أدرى كيف ... لا أحد يساعدنى ... لا أحد ...

ـ لا احد يساعدك ؟...

هدأت اعصابه وأخذ ينظر اليها فى سخرية مزاجها الحزن ، ثم راح يكرر قوله :

ـ لا أحد يساعدك ؟.. يالك من عمياء !..

ظننت انه انما يشير الى نفسه بكلامه هذا . فانطلقت تحتج بقولها انها لم تعد تريد أن يكون بينهما أى تواطؤ ، وانها ترفض باشمئزاز كل ما أوحى لها به ، وانه أصبح لا يثير فيها غير الكره والمقت . لعلها تمنت فى تلك اللحظة لو أنه انهال عليها ضربا ، ولكنه لم يفقد شيئا من هدوئه وأكد لها أنه انما كان يعنى شخصا آخر . ثم قال :

- هذه هي المناسبة التي يحسن بي أن أذكر تلك الكلمة :« يوجد بينكم شخص لا تعرفونه » ... أرأيت كيف أني كنت في مدرسة اللاهوت ؟ أليس كذلك ؟ يوجد في ليوجا شخص لاتعرفينه . اذهبي اليه وأسمح لك أن تقولي له كل شيء ... نعم كل شيء ... هل فهمت ؟ حتى كل ما يتعلق بما حدث في تلك الليلة .

ظنت ماتلد أنه يهذي . ولكن بدا عليها الاضطراب عندما سمعته يلفظ ، بصوت هادىء - اسم الراعي فوركاس . قالت :

- من أسوأ الدلالات أن يجد هذا القس قبولا لديك ...

تمتم من بين أسنانه كلمة « يالك من غبية !... » ثم فجأة انفجر يقول :

- أنت على حق ... لا تذهبي اليه ... أين كان عقلي ؟ انه أضحوكة القرية كلها . انه موضع الهزء والسخرية ومحط العار . انه جبان . ان الجميع يبصقون عليه وهو لا يحرك ساكنا . ولو أنهم اقتادوه الى المجزرة لما انفلتت منه صرخة ، ولما أبدى أقل اعتراض . ان الجميع هنا يحملونه وزر الأعمال القذرة التي يقترفونها في الخفاء ، وهو راض لا يرفض أثقالا ولا يقوى على انكار ماينسبونه اليه من تهم وهو بريء . انه حطام آدمي بائس يتسلى الجميع بالزراية به والاستخفاف بأمره ، فلا يجد لذلك ردا . هلا رأيت كيف يقضي حياته وحيدا في كنيسة يتمتم صلواته بينما لا يجد الطيبون من رعاياه أمثالك الا أن يفروا منه ويحتقروه . ان رؤساءه أنفسهم يحيطونه بالشك والريبة ، لأنه تعرض للفضيحة ...

ثم مر بيده على عينيه الزائغتين وقال :

- ماذا ؟... ماذا تقولين ؟...

واذا به يرى أن ماتلد قد غادرت الحجرة .

- ١٧ -

في مساء الخميس ، تأخر القطار كثيرا عن عادته . كانت الساعة قد قاربت العاشرة حينما سمع ديبا ، بعد طول الانتظار ، الصفير الذي كان ينتظره وصوت انبعاث البخار . انزلقت عجلات القطار على القضبان . لن تنقضي عشرون دقيقة الا وتكون آلين ،

تلك المرأة ، تصعد الى شرفة البيت . وبعد ساعة من الزمن سيكون كل شيء قد تم . هل أحس جرادير بما يدبر له ؟ هل اتخذ لنفسه الحذر ؟ لقد أكدت له كاترين أنه لم يعد يظهر الافى مواعيدالطعام . ولكنه ليس بالرجل الذى يترك الحبل يطوق عنقه بلا مقاومة . اذا عرف أنه لا محالة ضائع سينقلب بلا شك الى وحش ضار لا يوقفه شيء .

راح الرجل العجوز يرتعد خوفا . اننا اذا ما دبرنا الأمر ، ظننا ان الظروف ستخضع لمشيئتنا ، ولكنها عند حلول الوقت الموعود تتبدى لنا فى صورة غريبة معاكسة ، فلا نتعرف عليها ولا نفهم لها كنها . افترض ديبا أن جرادير سيفاجأ بما أعده له ، وهو نائم يغط ... وكان ذلك منه انكارا لغريزة التوقع والحذر التى تخلقها الحاجة وتنميها لدى هذا الصنف الخطير من البشر .

ذهب ديبا الى النافذة وأزاح الستائر . ولكن النافذةالخارجية مغلقة ولا طاقة له على بذل الجهد اللازم لفتحها . ارتد الى باب الحجرة ففتحه قليلا وتقدم الى الدهليز الذى يأتيه الضوء ضعيفا من مصباح المدخل ثم نزل بعض درجات السلم وانحنى علىحافته . رأى اندريس جالسا على المائدة المحملة بالمجلات وقد عقد يديه فوق صحيفة مفتوحة وأخفى راسه .

عاد الرجل العجوز الى مقعده منقطع الأنفاس ، لا من الجهد الذى بذله ، ولكن من الخوف مما سيحدث بعد قليل . حينما سمع صوت أقدام على الشرفة خشى أن تقتله وساوسه . ها هو مرة أخرى ينتصب واقفا ويستند الى ظهر المقعد . دخلت عليه كاترين بمفردها . لا أحد معها وقالت وهى تخلع معطفها :

ـ لم يأت أحد .

ـ هل فتشت جيدا فى كل مكان ؟ ربما اختمرت هذهالسكيرة فتاهت عن وعيها ونامت فى القطار ...

أكدت له كاترين أنها فتشت عربات القطار مقعدا مقعدا . على أنه لم يكن هناك راكب واحد لا فى الدرجة الأولى ولا فى الدرجة الثانية .

تنفس ديبا الصعداء . لقد تأخرت الساعة المحتومة، ولن يحدث شيء فى تلك الليلة . قال يطمئن نفسه :

ـ لابد انها مازالت مريضة ... الأمر بسيط ... ولكن الذى يدهشنى هو انها لم ترسل برقية . وبما رأت فى ارسال البرقية مجازفة . وعلى كل حال فان هذا النوع من النســـاء لا يمـكن الاعتماد عليهن فى شيء . أليس هذا هو رأيك أيضا يا صفيرتى ؟»

نظر الى وجه كاترين وقد ارتسمت عليه علامات الكآبة والتفكير، فصرخ فيها فجأة :

ـ لديك شيء تعرفينه !...

هزت رأسها علامة النفى ولكن فى تردد ، فألح عليهـــا ان تتكلم . قالت :

ـ انت قلق !... أنت مضطرب !.. هل تعدنى بأن تتعقل ؟.. بألا تترك للغضب اليك سبيلا ؟..

ولم تكن هى نفسها بقادرة على اخفاء قلقها .

ـ اليك ما حدث . لقد تأخر القطار كثيرا فأخذت أتحـدث مع أناس كثيرين كانوا ينتظرون قدوم الصحف ... وخصـــوصا مع عاملة البريد مدموازيل بيبست ...

توقفت عن الكلام عندما سمعت الصفير الذى يتخلل أنفـــاس أبيها . كان يجب عليها أن تتذرع بالشجاعة وتخفى عنه ما تعلم ، أما وقد بدأت تتكلم فالخير كل الخير فى أن تنهى ما عندها بسرعة :

ـ تطرق بنا الحديث الى ذكر الاتصالات التليفونية مع باريس . فقالت لى انها فى ليوجا لا تتاح لها الفرص كثيرا ...

توقع سيمفوريون ما هنالك . وشعر بالضربة تصيبه عنـــدما سمع كاترين تقول :

ـ لم يطلبنى احد من باريس يوم الاثنين الماضى . لقد كنت على اتصال بمكتب تليفونات لوجدونوس .

ظل الشيخ بضع لحظات لا يقوى على الرد ثم تمتم قائلا : «ولكن الصوت ؟ الصوت الأجش ... » هزت كاترين كتفيها . أليست

يذكر أن أندريس قال فى يوم من الأيام عن أبيه أن له قدرة عجيبة على تقليدهم جميعا تقليدا متقنا .

ـ اذن ... اذن ... لعلها جاءت فعلا مساء يوم الاثنين . . . لا ، هل أنا غبى ! . . . لابد أنه أرسل لها برقية من لوجدونوس موقعا عليها باسمى . . ليمنعها من الحضور . . .

ردت عليه كاترين قائلة : « نعم ! . . . هذا ممكن . . . » ولكنه فهم أنها لا تصدق شيئا من ذلك . فتحت باب الغرفة فسمعت صوتا خفيفا قادما من الطابق الاسفل . قالت متمتمة :

ـ هذا أندريس يعبىء الخرطوش . انه هو الآخر تجب مراقبته . لقد حذرت أمى ليلة أمس . هل تدرى ماذا كان جوابها ؟ انه يفر منها ، ويكفى أن تدخل هى فى احدى الحجرات ليخرج هو منها فى الحال

قاطعها ديبا :

ـ أمك ؟ . . .

فعادت كاترين تقول فى حنق وغيظ :

ـ نعم ، بالتأكيد ، انها هى التى خانت السر وأفشته . . . هذا درس لك ! . . .

وبعد برهة طويلة من الصمت قالت بصوت خافت :

ـ فى الليلة ما بين الاثنين والثلاثاء كانت فى غرفة جرادير ، بحجة العناية به ، أكدت لى انه مريض . واعترف بأنه بدا لى شديد الاحمرار ويظهر أنه كان محموما فعلا . . . هذا على الأقل ما أمكننى استنتاجه من حيث كنت أقف فى الطرقة . لقد اضطررت لأن أحضر له كئوس الهواء . . .

ـ لو أنه خرج بعد العشاء لسمعته . . .

ـ ليس بالضرورة . ألست تذكر أننا فى تلك الليلة لم نكن حذرين متيقظين . لقد كنت جد مغتبطة لعدم اضطرارى الى الذهاب الى المحطة فى الطقس القاسى اللعين .

سألها الرجل العجوز عما يكون ظنها فى الأمر ؟ فلم تجبه الا بحركة من يديها .

ـ اذا كانت تلك المرأة قد جاءت في مساء يوم الاثنين وفقا لما اتفقنا عليه معها من قبل ...

قال سيمفوريون ديبا ذلك ثم سكت وراح يبحث عن نظرات ابنته . كان صمت تلك الليلة من ليالى الشتاء مخيم حولهما . وارادت كاترين أن تساعد أبيها على الذهاب الى سريره ، كما كانت تفعل كل مساء ، ولكنه رفض . انه لا يريد أن ينام وكأنه طفل أرقه الخوف والرعب . قال بصوت يكاد من القلق ان يشبه صوت الأطفال :

ـ أسمع انسانا يصعد السلم .

اسكتته كاترين وفي صوتها تأنيب :

ـ ما أرهف أعصابك يا أبى المسكين! ...

وذهبت الى باب ففتحته :

ـ هذه أمي ذاهبة الى فراشها ... بل انها قادمة الى هنا ...

قال سيمفوريون : « سأستقبلها » . صمت الاثنان مأخوذين أمام المرأة القادمة بوجهها المعهود ، الذى بدا مجهولا ، وبعينيها الزائفتين ، وقد انتشرت بقع صفراء شاحبة على وجنتيها وبرز دبوس طويل من شعرها المفكك .

ـ يا صغيرتي كاترين ، يجب ، لأية حجة تخترعينها ،أن تذهبى الى أندريس تجالسينه وتحملينه على الكلام . واذا لزم الأمر استثيريه واحمليه على الثورة والغضب . هذا الصمت الذىيغمره يخيفني ...

قاطعها ديبا قائلا :

ـ لا . لا . أبقى أنت معه ، واتركي كاترين وشأنها ... هل ظننت أنى فى غير حاجة الى انسان يقف الى جانبى أنا ... الست مهددا أنا الآخر ؟ أنت مسلطة على ، يا ماكرة ! ...

انتصب ليقف مستندا بكلتا يديه على ذراعى المقعد ثم انهار فى مكانه . يبدو أن ماتلد لم تسمع ما قاله فعادت تلح :

ـ اتوسل اليك يا ابنتى . اذهبى الى أندريس . وسأنوب عنك الى جانب أبيك .

عندئذ صاح العجوز معترضا :

ـ أما هذا ؟ فلا ... حتى لا تسلمينى الى ...

تقطعت على لسانه الكلمات من الحنق والخوف . أما كاترين فقد تقدمت من الباب مترددة لا تحزم أمرا . وأخيرا قالت لأمها :

ـ لن يستريح بالى بعد الذى فعلته ... كلما فكرت فيما أقدمت عليه من انحيازك الى جانب هذا الرجل ...

ـ ولكن يا كاترين !.. ما هذا ؟ انه أبو أندريس ...

ـ وبعد ؟ ماذا كان القصد ؟ زحزحته من هنا ... ما كنا لنسمع عنه بعد ذلك أبدا ... لقد كانت لأندريس فى ذلك مصلحة ... أى مصلحة !...

قاطعتها أمها فى اندفاع وقالت :

ـ لم تبلغك الحقيقة كلها يا صغيرتى . لو كان المقصود هو إبعاده عن هنا لهان الأمر ... ولكن المقصود كان القضاء عليه وهلاكه . كان فى نية هذه المرأة أن تسلمه الى البوليس غدرا . خشيت على أندريس الفضيحة . وظننت أن من واجبى أن أفعل ما فعلت ، ولم أدر أننى انما كنت أعرضه لما هو أسوأ . ظننت أن أباه اذا ما علم بما يدبر له ، سوف ينجو بنفسه ، وبذلك نتخلص نحن الجميع من وجوده ويتمكن هومن حماية نفسه واتخاذ الحيطة... كان ظنى أنى أسعى الى ما فيه الصالح والخير ... لم يكن فى استطاعتى أن أتنبأ ...

رأت فجأة هذين الوجهين مسلطين فى قلق عليها وانتظارهما معلقين بشفتيها فى انتظار ما ستبوح به ، فمسحت بيدها على عينيها وأسرعت تقول :

ـ لا ، لا ، لست أعرف شيئا ... لا أعرف أكثر مما تعرفان ... أقسم على ذلك . كل ما هنالك انك خائفة فقط ... بى شك ...

ألقت بنفسها على أحد المقاعد بينما الأب وابنته فى انتظار كلمة جديدة منها ... ولكنها بقيت جامدة ، تكاد لا تعى أن كاترين تتعارك بصوت منخفض مع أبيها .

ـ لقد أقسمت لى أن المقصود هو ابعاده فقط عن هنا ...

ـ لم يكن من شأنى أن أعرف ما الذى تنوى هذه المرأة أن تعمله به. ما كان فى ذلك شىء يعنينى أو يهمنى .

ـ كل ما يعنى أندريس يهمنا جميعا .

ـ تكلمى عن نفسك ، أيتها الغبية الصغيرة !..

رفعت كاترين صوتها واتجهت نحو أمها وقالت :

ـ حسنا يا أمى ، ابقى هنا الى أن أذهب لأرى ما الذى يجرى هناك ، فى الطابق الأسفل .

تظاهرت بعدم سماع صراخ أبيها وهو يأمرها « انى أمنعك من النزول بمفردك » ، ودرجت السلم مسرعة . أضاءت أنوار المدخل واخترقت حجرة الطعام ، التى ظل بابها مفتوحا، ودخلت الى حجرة صغيرة كان آل دو بوش يطلقون عليها دائما ، على سبيل السخرية ، اسم « الترسانة » لأنهم كانوا يضعون فيها بنادق الصيد وذخيرتها.

على الجدار رف علقت به جميع أصناف البنادق ، من البندقية العتيقة ذات المكبس التى تشحن من فوهتها والتى لم تفشل مرة واحدة بين يدى الأب جرادير فى اصطياد البط البرى، الى البندقية طراز لافوشر التى كانت لأحد أسلاف دوبوش ، وذلك الى جانب البنادق ذات الاحتراق المركزى ، والبنادق من طراز هامرلس ، وآخر أنواع البنادق الحديثة . جلس أندريس الى منضدة من الخشب الأبيض يصب كميات البارود والرصاص فى داخل الخراطيش . رفع عينيه لينظر من القادم ولم يبد أى انفعال . كان وجهه هزيلا وفمه مضموما ونظرته غائبة . كانت ملامحه ملامح الدابة اذا حرنت ورفضت تناول الطعام . قالت كاترين :

ـ لقد تحولت الريح منذ هذا الصباح . يمكننا أن نذهب غدا صيد البط . هل لك أن تعد لى بعض الخرطوشات ..

راح الى الخزانة ونظر داخلها ثم قال لها بصوت خافت :

ـ يوجد هنا أكثر مما يلزمك ...

ـ هل يضايقك أن أذهب معك ؟...

فزمجر قائلا وهو يهز كتفيه :

ـ امر لا يهمنى . . .

لم تخفض عنه نظرها ، بينما توقف هو عما كان فيه من عمل وراح يعبث بغلاف خرطوشة فارغة . وفجأة سألها بامتعاض :

ـ ماذا بك حتى تنظرى الى هكذا ؟ . . .

ارتعشت وهى تقول :

ـ انى أتحمل أشياء كثيرة يا أندريس . لم أكن لطيفة كما يجب . . . ولكن يجب على أن أتحمل أشياء كثيرة . . .

ـ نحن جميعا . . .

ـ ولكن الأمر الذى يتعدى حدود طاقتى هو أن أراك تتألم .

انفجرت تبكى . عرف أندريس فى وجهها تلك التكشيرة التى كانت لها وهى فتاة صغيرة نحيلة يجد لذة فى معاكستها . ولكن بعد السنوات العديدة التى قضتها تنظر اليه بوجه مكفهر ساخر نسى هذا التعبير الصبيانى الحبيب . راح يبحث عن كلمة يقولها بينما شعرت هى بالدهشة لأنه لم ينهرها ولم يحنق عليها . وأخيرا قال :

ـ لا تحزنى لأمرى . فكل شىء عندى سواء . . .

ظنت كاترين فى نفسها : هل هو يفكر فى تلك المرأة التى يهواها ؟ ولاشك أن أباه البائس يشغل باله هو الآخر . لابد انه قد تلقى فى هذه الأيام الأخيرة ضربة قاسية من هذه الناحية . ماالذى جرى بينهما حتى انه أصبح لا يطيق وجود عزيزته تاماتى الى جواره ؟ .

قال بعد برهة من الصمت :

ـ ولكن عندما يبلغ السيل الزبى . . . هل تخافين الموت يا كاترين ؟ .

ـ ليس بالنسبة لى ولكن بالنسبة للآخرين .

وفجأة جاءت فجلست الى جواره ملتصقة به ومدت ذراعها تحت ذراعه واخذت تكرر :

ـ لا ، يا أندريس . . . لا . . . عدنى . . . أقسم لى . . .

أدهشه منها هذا الاندفاع وشعر بشيء من الاضطراب في نفسه. لم يدفعها بعيداً عنه . انه يرى الآن انها امرأة على كل حال. سحبت هي ذراعها من ذراعه باندفاع غريزي وراحت تستند الى الحائط في الجانب الآخر من المنضدة التي عاد أندريس يسند عليها منكبيه رافعاً رأسه بيديه . من ورائه كانت مواسير البنادق المرصوصة تلمع لمعاناً خفيفاً ، بينما انتشرت في جو الحجرة رائحة المواد المستخدمة في التشحيم .

قالت الفتاة بعد برهة :

ـ أريد أن أطلب منك العفو ... لقد كنت قاسية كريهة ... نعم . نعم . كل ما أرجوه منك أن تفهمني . لقد كانت عنيفة جداً تلك الطريقة التي عاملتماني بها ، أمي وأنت ، كما لو كنت انساناً ميتاً ... لا تستطيع أن تعرف ... أما الآن فقد انتهى كل شيء وسترى !... كل ما أملك وكل ما سيئول الى هو لك ...

رفع نحوها عينين باهتتين ، واحتج بانه لا يهتم اطلاقاً ، لا بما تملكه ، ولا بما سيئول اليها ... انهم جميعاً يعتقدون ان تفكيره كله منحصر في ذلك ، وانه لا يحب الا تملك الأرض مثلهم . انه انما يغدق المال لأبيه ليثبت له وللجميع الى اى مدى هو منصرف عن ذلك !... قال لها :

ـ انا بطبيعة الحال متعلق بالملك ... فأنا الوحيد الذي يعرف عنه شيئاً . لقد ثبت جميع الحدود في الأراضي ولن يستطيع أي جار أن يزحزح شيئاً منها من مكانه ، ما دمت انا هنا . انا أعرف المزارعين والمزارعون يعرفونني . وأنا لست عدواً لهم ولا خصماً . انا أيضاً أعرف معنى أداء الخدمة للآخرين . في الواقع لايوجد فرق بيني وبينهم . ولكن ما يشعر به الانسان من لذة حينما يقول « هذا ملكي!.. » لو تعلمين يا فتاتي الصغيرة الى اى حد انا أكره هذا الشعور ولا أحفل بهذه اللذة ... ان لي في رأسي شيئاً آخر يشغلني ...

قاطعته كاترين بصوت غاضب :

ـ شيئاً آخر ؟ ... لعلك تريد أن تقول : انساناً آخر ..؟

ثم اضافت بسرعة :

ـ على انى لا أعتب عليك لهذا الأمر ... لا ... هذا أيضـا سوف افهمه جيدا ... اذا شئت انت ...

هز كتفيه متفجرا وقال :

ـ لست اعنى ما ذهب اليه تفكيرك . لو استطعت أن أحتفظ بذهنى حرا لأفكر فى ... تلك المرأة ... لما شكوت من شىء ... لأنى ما كنت لأفقد شيئا ... أنا ... اذا ...

كان مترددا يحاول التفتيش عن كلماته :

ـ كيف يمكننى ان اشرح لك هذا ؟ هناك بعض الأحزان تبدو لى فجأة ، اذا ما حلت بى كارثة من نوع آخر ، وكأنهـا أفراح ومسرات . لقد تألمت بسببها ... هذه حقيقة لا أخفيها عنك ... تألمت ألما مريرا ... اغفرى لى هذا الاعتراف لك ...

ردت عليه فى صوت خافت :

ـ لماذا أغفر لك ؟... ان الأمر جد بسيط . على أن ذلك لا يحمل الى علمى شيئا جديدا لم أكن أعرفه ...

عاد يقول :

ـ هناك شىء يفصل بينى وبين ما ينتابنى من ألم ... بينى وبين هذا الألم ... شىء ما ...

فجأة انتصب واقفا وأمسك بذراعها :

ـ أنت يا كاترين ... أنت لك دخل فى هذه المسائل كلهـا . قولى يا كاترين ؟ ما الذى يجرى فى هذا البيت ؟.

احرجها هذا القول منه فلم تحر جوابا :

ـ أرأيت ؟... انك لا تعترضين بشىء ...

ثم راح يوجـه الـكلمات الى كاترين ... الـكلمات التى استخدمها ديبا العجوز منذ ساعة مضت قال :

ـ أنت تعلمين شيئا ... قولى لى : ماذا تعرفين ؟.

على الرغم من عدم درايته باستجلاء تعبيرات الوجه ، فقد لاحظ على وجه كاترين ، التى كانت تحاول الهرب من هذا المـوقف ، علامات الشفقة به والألم له ، فهمدت ثورته وقال :

ـ اترفضين الرد ؟.

لم يعد يطلب منها شيئا واستسلم لليأس والحسرة . عاد الى المنضدة فجلس اليها وراح يعبث بأوعية الخرطوش الفارغة . ووقفت كاترين من بعيد تنظر الى حركة يديه القويتين . فجأة تكلم

ـ لقد فهمت ما الذى كان يعنيه بالنسبة لى ؟ انكم كنتم تكرهونه وتحتقرونه بينما انا أحبه مخالفا لكم جميعا . لطالما فكرت فى حياة الحب والسعادة التى عاشها على عكس حياتنا نحن . أن كل ما يكدسه أبوك من مال وثروة ، حوله هو الى مسرات ولهو . ان حبى له فيه ما يشبه الجنون . لطالما تصورته فى صورة اخ صغير لى . اقد سلبنى كل شىء ووددت لو أننى أعطيته أكثر مما آخذ ... ليس معنى هذا أنى طيب القلب ، فلقد صدقته حينما وعدنى بأن يرد الى كل ما أخذه منى أضعافا مضاعفة . كنت أعتمد عليه وعلى توجيهاته ودروسه لى ، لكى أجعل من نفسى انسانا محبوبا ، انا الحشرة النكرة البائس . لقد اعتقدت أنه انما يحبنى لنفسى ... لا لنفسه هو ولا بدافع الأنانية ... كما تفعل تاماتى ... لقد اراد أن يحقق لى السعادة ... انى أقول لك كل هذه الأشياء وربما كنت عاجزا عن افهامك ما فى صدرى ؟... انه رجل شرير ... هذا ما كنت أعرفه ... وكنت أرى فيه الجمال كله . رجل شرير !... نعم ، رجل يقضى حياته كلها فى الحب ، وفى الملذات التى لا تخطر لأحد على بال ... أو على الأقل لا تخطر لى انا ـ ذلك الدب المتوحش ـ على بال ...

أمسكت كاترين أنفاسها وخشيت أن تقاطعه فى اندفاعه وحولت عنه نظرها .

ـ كنت مع ذلك أفهم مغزى بعض الكلمات التى يلقيها ... شتائم واهانات يلوكها ضد الخال سيمفوريون ... بعض التلميحات ... كنت أسمع ذلك كله وأرفض أن أركز عليه انتباهى ، أو أحصر فيه تفكيرى . ولم أكن أجهل ايضا رأى الناس فيه فى ليوجا ... ثم فجأة ، فى احدى الليالى الأخيرة ، بينما كان يحدثنى عن شىء ليس فى استطاعتك حتى مجرد تصوره ... شىء من الغرابة ما حال بينى وبين فهم مدلوله ... نعم ، فجأة ، رأيت وسمعت

هذا الرجل الذى لم اكن اعرفه والذى لم اكن أتخيل له وجودا . فجأة ، برز أمام عينى فى الصورة التى ترينه عليها ، الصورة التى ترونه انتم جميعا عليها هنا .. يالها من رؤية ! ... منذ تلك اللحظة ، كل ما كنت أجهد نفسى فى تجاهله ، فى عدم رؤيته ، تكشف أمام نظرى وظهر فى النور واتخذ لنفسه معنى... انى الآن أشبه الكلب الذى يتشمم وهو خائف يرتعد مما يتشممه ...ونحن جميعا هنا لنا ضلع من تلك القصة المؤلمة . فقط أنا الوحيد من بينكم الذى يقوم بدور يؤديه فى الظلام .

تقدمت اليه ووضعت ذراعها حول عنقه ومسحت بيدها فى حنان على شعره كما لو كانت تهدهد حيوانا اليفا . لم يمتنع عليها فى شىء من ذلك ، حتى انها ، وهو فى تلك اللحظة القصوى من الالم والحزن ، شعرت فى قلبها بفرحتها الأولى كامرأة ، وانتشر فى كيانها احساس خفى بالهدوء والراحة . ذهبت الى أبعد من ذلك وضغطت على كتفه برأسها الضخم الأشقر . ثم قالت فى صوت هادىء :

ـ قد تصيبك بسببه أحزان كثيرة . وستحل بك تلك الأحزان وتنصرف ...

ثم أضافت فى قوة وفى حماس غريب :

ـ وسوف تحتمى بى ، وتضم جسدك الى جسدى ، وتختبىء فى أحضانى ...

تخلص منها بغير عنف وقال :

ـ انا لا احبك يا كاترين ، ولن أستطيع أن أحبك كما تشائين

ظلت فى وضعها نفسه مغلقة العينين وذراعها فى انثناءتها كما لو كانت لا تزال تحيط بعنق الشاب . وتمهلت الى ان تمكنت من الرد عليه فى صوت هادىء :

ـ أعرف ذلك ولا بأس فيه ... مادمت أبقى الى جوارك ساهرة عليك .

لم يكن يصغى الى كلماتها وانما راح يسدد نظراته فى الفراغ ثم فجأة سألها :

ـ هل فكرت أبدا فى أنه ربما كان مجنونا ؟ نعم ، أبى ... انه يأتى أحيانا من التصرفات ما يبدو مستهجنا ...

لم تستطع كاترين أن تسأله « ماذا ؟ ما الذى يفعله ؟... » انها تود لو تكلمت عن شىء آخر . ما أقدر أندريس على تخير كلماته سريعا ، هذا المساء !...

ـ أود أن أشرح لك الأمر لتفهمنى ، ولـــكن يجب على أولا أن أفضى اليك باعتراف ... انه اعتراف جد سخيف ... لقـــد تحققت من ذلك الآن ... لقد أردت أن أقضى على نفسى ... لا ، لا تحتجى الآن ... ستضحكين فيما بعد ! ولكن لا اثير الاشكالات ؟ خطرت فكرة المرض الى ذهنى . أنت تعرفين ما بى من استعداد لسرعة اجتذاب المرض فقد أصبت بالتهاب رئوى مثل أبى ، وفى السن نفسها التى أصيب فيها هو . وقد أراد كليراك أن يلحـــقنى بفرق الاحتياط فى الجيش ... الا تذكرين ذلك ؟.. بالاختصار ـ وارجو الا تهزئى من تفكيرى هذا ـ انتهزت فرصة هذا الطقس البارد القاسى وفكرت أن أبقى تحت المطر ، أطول وقت ممـــكن ؟ لا يكسونى الا قميصى ... فعلت ذلك ليلتين متتاليتين . ياله من عذاب أليم ! كنت بعد دخولى من الشرفة ارجع اليها ثانية . وماذا كانت النتيجة ؟... نزلة رشح وزكام ... لا حاجة بى الى ان أقول لك انى اقلعت سريعا عن هذه الفكرة السخيفة ... على أنى ، اليوم الذى أريد فيه أن ...

ـ لن تريد بعد اليوم شيئا من هذا أبدا !... أليس كذلك ؟ يا أندريس ؟...

لم يصغ الى هذا الرجاء وانما اخذ يعبث بالخرطوشات المبعثرة فوق المنضدة .

ـ اذن !.. هلا صدقت !.. رأيت أبى يخرج فى كل من هاتين الليلتين ... لقد خرج فى الليلتين اللتين قضيتهما فى الشرفة فى ظروف جوية قاسية . لا شك انك تتذكرين الطقس اللعين الذى ساد فى تلك الفترة . كان ذلك ليلة السبت ... لا ... ليلة الأحـــد وليلة الاثنين . لقد سمعته أثناء خروجه من الباب الصـــغير فى الحوش ...

ـ أنت لم تره ... لم تستطع أن تراه ... لا يمكنك أن تتحقق من أنه هو ...

كانت تلقى كلماتها بلا اهتمام . ولم يلحظ أندريس وجهها الشاحب وقد كساه الاصفرار ، ولا استنادها الى الحائط فى وضع متهالك .

ـ لا . أنا متأكد . لقد عرفت مشيته ... ومن الذى كان يستطيع الخروج من البيت فى مثل تلك الساعة ؟ عندئذ ، ذهبت وطرقت باب غرفته . لم يكن بها أحد . ثم بعد ذلك سمعته وهو يعود تحت ذلك المطر المدرار . وفى اليوم التالى اضطر الى الخروج فى الحال ... انه على كل حال عاد فى منتصف الليل . ما أشد الجلبة التى حدثت ! ... أنت نفسك مررت مرتين أمام باب حجرتى ...

ـ نعم ، لقد كان متعبا ... فى حالة لا تسمح له بالخروج أبدا ... أقسم لك على ذلك .

ـ لقد كان أسعد حظا منى ، ولم يبتل بالمطر لغير ما نتيجة .. ألا تعتقدين أن المجانين وحدهم هم الذين يجوبون وسط العراء فى مثل هذا الطقس ؟ ... هناك بالتأكيد أنثى فى الموضوع ... لاحاجة الى كثير ذكاء لمعرفة ذلك ... ولكن ألم يكن فى استطاعته أن يذهب لملاقاتها فى أوقات أخرى غير ذلك الوقت . لاشك أنه فى باريس يذرع الشوارع طوال الليل حتى الصباح وينام طوال النهار ... ولم يستطع مقاومة هذا الميل حتى فى ليوجا نفسها ... ما هذا ؟ .. كاترين ! ... ماذا بك ؟ ...

كانت قد القت بنفسها على أحد المقاعد وتصلب جسمها وراحت تتمتم :

ـ لم يكن هو يا أندريس . يجب أن تعتبر أنك لم تره ... وأنت على كل حال لم تره فعلا . أنت لم تسمع أحدا يخرج من الباب فى خلال هاتين الليلتين ... أتعدنى بذلك ؟ ...

وفجأة مال وجهها الأبيض الصغير على كتفها اليمنى .

ـ كاترين ! ... ماذا حدث لها ؟ ..

حملها بين ذراعيه وأرقدها على أريكة قديمة منهارة طالماتعاركا عليها فى طفولتهما .. لم تلبث أن فتحت عينيها وسلطتهما على اندريس وهو راكع على ركبتيه الى جوارها ، وقد أمسك بيدها.

ـ كل ما رأيت وكل ما سمعت سيبقى سرا بيننا نحن الاثنين. قل لى هذا !... أقسم لى عليه !...

فى هذه اللحظة انتصبت جالسة وأرهفت السمع . خليط من الأصوات الغاضبة الثائرة انفجر مدويا فى الطابق الأعلى ، حيث توجد غرف النوم .

قالت له فى ضراعة :

ـ لا يا أندريس ، لا ، لا تذهب الى هناك .

ولكنه دفعها وصعد السلم وهو ينهب درجاته . ديبا العجوز ، فى ثوبه المنزلى ، واقف مستند بظهره الى جدار الطرقة ، يلهث محاولا استرداد أنفاسه ، وجراديو ، واضعا يديه فى جيوبه ، يزمجر ويهز أكتافه ، بينما ماتلد فى أعنف حالات الغضب تصرخ فيه قائلة :

ـ لقد تسللت الى غرفة زوجى ، تحاول ارهابه والحاق الأذى به من شدة الخوف ، واذ أقول الأذى ، فانى أعنى ... يالك من وغد شقى !...

وكان جراديو يحاول التغلب على صراخها :

ـ هيا ، يا عزيزتى . ما معنى هذا الغضب وهذا الحنق ؟ ما هذه المهزلة التى تمثلينها ؟.

صرخت كاترين قائلة :

ـ تنبهوا ... أندريس هنا ...

ولكن ماتلد لفت حول جسمها رداءها البنى القديم ، وحولت وجهها المنتفخ ناحية الشاب ، الذى وقف الى الخلف قليلا ، متكئا الى حافة السلم وقد وضع احدى قدميه على درجة من درجاته ، وقالت فى صوت نائح حزين:

ـ ليكن ما يكون ... يجب أن يعرف ... أن ينتهى به الأمر الى فهم ...

قطعت عليها كاترين كلامها وقالت :

ـ لماذا تركت أبى وحيدا ... لقد تضرعت اليك الا تتركيه بمفرده ...

ـ هو الذى طردنى ، يا كاترين ، لم يردنى الى جواره . من حسن حظى أن جاءتنى فكرة الانصراف ...

عندئذ استطاع ديبا العجوز ان ينطق ببعض كلمات قال :

ـ لو كنت هنا لما تورعت عن فتح الباب له...ألم تخونينا من قبل ؟... أنت متواطئة فى كل ما حدث فى تلك الليلة ... أنت من صفه ... أنت من صف القاتل السفاح.

سمع صوت كاترين المدوى :

ـ ولكن ، ألست ترى أن أندريس موجود هنا ، معنا ؟.

توقف الشجار فجأة ، واتجهت الأنظار جميعها مسلطة على أندريس الذى ظل متكئا على حافة السلم ، لا حراك به ، كالثور الذى يترنح بعد أن غرس السيف فى ظهره ولم يقع . جرادير وحده هو الذى يوليه ظهره . اقترب أندريس من أبيه ومس كتفه بيده وقال له :

ـ هل أنت أصم ؟ ألم تفهم النعت الذى نعتك به ؟.

ـ مجاملة مؤدبة من المجاملات التى تعود عليها . يجب أن تعرفه جيدا يا بنى ؟ اذا كان يعتقد حقيقة انى ... ذلك الذى قاله الآن ... فليثبت ما يقول ... ليقم الدليل على أمامك ...

أحس الموجودون كلهم بالفارق العظيم بين معانى هذه الكلمات والنبرة التى قيلت بها ، تلك النبرة الغامضة اليائسة . ها هو أيضا صامت كما صمت الآخرون . انهم خمسة على هذه الطريقة ، فى وسط الليل ، وكلهم على قرب قل أو كثر من تلك الحقيقة التى لايعرفها كاملة الا جرادير وحده . وقف هذا البائس مسمر النظرة، متحجر الاحساس ، غائبا عما حوله ، حتى أنه لم يشعر بهم وهم ينصرفون الواحد بعد الآخر متسللين . لم يسمع أصوات المزاليج وهى تحكم غلق الأبواب . وفجأة انتفض ، فقد وجد نفسه وحيدا مع أندريس !

ـ اذهب الى فراشك يا أبى ، أنت محموم .

ـ نعم ، لقد مسنى برد . ظننت انه لا شيء . ولكن حرارتى الآن ترتفع كل ليلة .

تبعه أندريس حتى باب غرفته وفجأة سأله اذا كان فى استطاعته ان يدخل معه لحظة .

قال جرادير بصوت هزيل فيه استعطاف :

ـ انا مريض واكاد أسقط من النعاس . تعال غدا صباحا .

ـ لحظة واحدة يا أبى وسأتركك بعدها تنام كما تشاء .

دخل خلف جرادير واغلق باب الغرفة . نظر حوله وقال :

ـ غرفة امى ... ما رأيتها قط فى هذه الغرفة ... لست أذكرها الا فى بلباو وفى باريس ... أين كنت فى الوقت الذى كنا نقيم نحن فيه فى أسبانيا؟...

رد عليه قائلا ان أعماله كانت تستبقيه فى فرنسا . واستراح الى أن الحديث بينهما قد اتجه هذا الاتجاه .

ـ امك ، يا صغيرى ... منذ بضعة أيام كتب لى رجل ، انه قسيس ، يقول عنها أنها كانت « قديسة وشهيدة ... »

ـ لماذا ، شهيدة ؟ .

فاجأه هذا السؤال ، فرد بصوته الكريه يقول : ان القساوسة يغالون كثيرا فى هذه المسميات . ثم زمجر وهز كتفيه وقال فجأة :

ـ هيا ، انصرف الآن . أخرج واتركنى ، لأنى فى شدة التعب .

ـ ليس قبل أن أعرف ما الذى كان يعنيه الخال سيمفوريون .

رد عليه قائلا فى اعياء :

ـ الم تفهم بعد ؟ لقد دخلت عليه لاحدثه فى شأن سرنيس وباليزاو ... هذا من حقى ... اليس كذلك ؟ لقد اقنع تاماتى بأنى انما كنت اريد قتله من الخوف ... أن بهما جنونا ، أو لعلهما يكذبان ...

ـ نعم يا أبى .

ولكن العجوز صرخ يقول لتاماتى انها شريكة فيما حدث فى تلك الليلة الماضية .

كان جرادير قد ظلَّ واقفا الى جوار الباب ويده على المزلاج وأخيرا قال :

ــ لم أسمع هذا القول ، لعلك سمعته فى منامك ...

عاد وهو يسير بخطوات ضيقة نحو ابنه وقد دس يديه فى جيوبه :

ــ على كل حال يا صفيرى ؟ الست تعرفنى ؟... لا ازعم أن حياتى كانت كلها مثالية .. أنا رجل سيىء الخلق ... نعم ، ولكن لن أحاول قتل هذا ... هذا اللص العجوز ... لا ... هل يموت احد من الخوف ؟ ما أسخف هذا القول !... انها مزاعم صبيانية!.

تنفس أندريس الصعداء . ان الذى أمامه الآن رجل ككل الرجال . لابد أن كل من فى هذا البيت مصابون بمرض الوهم والتخيلات المضللة . ولابد أنه هو نفسه لم ينج من عدواهم .

ــ ولكنك أيضا يا أبى ، كثيرا ما تقول أشياء فظيعة مخيفة . فى احدى الأمسيات الأخيرة ، قلت عن تاماتى ...

ــ أوه !... اذا شاء القوم أن يحملوا على محمل الجد كل الآراء التى تصدر عنى ... افهمنى ... انهم فى ليوجا لا يفهمون معنى الدعابة ...

جلس على المقعد الطويل فى وضع متراخ وراح يوجه الحديث الى أندريس وقد شمخ برأسه :

ــ اننا فى باريس نقول كل ما نريد قوله ، ونتحدث فى شتى الموضوعات ، ونطرق من القول أفظعه ، فيمر كل شىء ببساطة ، لأن القوم هناك يعرفون تقدير الأمور . اما هنا ، فيجب على المتحدث أن يحسب حساب كل نكتة تقال وكل دعابة تفلت . انه لأمر يثير الاعصاب !.. نعم يمكن أن يقال انكم هنا لا تستعذبون الهزل والمداعبة ... وهذا ما يجعل الاقامة فى الريف تبدو غير محتملة بالنسبة لمن عاش بعض الوقت فى باريس ...

ــ كان يجب عليك أن تدافع عن نفسك أحسن مما فعلت . ها قد رأيت ما الذى أنتهى اليه تفكيرهم ...

ابتسم أندريس وقد زال عنه الهم وجرادير هو الآخر تنفس

الصعداء . لقد استعاد ثقة ابنه ، وسيعمل الآن على الا يتسلطوا عليه من جديد ، ويفسدوا افكاره مرة أخرى . أما العسير في الأمر فهو اعداد أندريس لسماع كل ما يقال له من غير أن يصدق شيئا منه . يجب عليه أن يلعب لعبته الى النهاية .

ـ ديبا العجوز هذا !... ياله من غبي !... ما أكثر ما يولده الغباء والكره والخوف اذا امتزجوا في داخل العقل المريض !... لعلك لا تصدقني اذا ما رويت لك قصة اللصوصية والنهب التي هم بصدد تأليفها حولي ... واغرب ما في الأمر أن نقطة البداية في هذه القصة هي قذارة من قاذورات هذا الرجل العجوز سأعرضها عليك لتكون أنت الحكم فيها .

تكلم في اسهاب معتمدا على ما يوحي اليه به خياله ، ومعتمدا على نبرة في صوته كلها استهزاء واشفاق ، كانت تؤثر تأثيرا كبيرا على اندريس :
ـ أنا لست ملاكا يا بني ، لقد توصل العجوز الى اكتشاف امرأة شريرة ، كنت قد تورطت كثيرا معها في شبابي . وتوجد بين يديها رسائل مني ... لن أقول أكثر من هذا ... انها كانت تساوي وزنها ذهبا !... هل تصدق أن هذا اللئيم لجأ الى تلك الساقطة ليرغمني على الرحيل من هنا ... وتصور أنه في سبيل غرضه هذا قرر ان يدفع لها أجرة سفرها لتحضر الى ليوجا ...

عندئذ قاطعه أندريس ليسأله ممن حصل على سر هذا التدبير ، فتردد لحظة قبل ان يلفظ اسم تاماتي ويقول :
ـ انها تحبني كثيرا . أتعلم هذا ؟...
نسي ان ماتلد قد نعتته منذ لحظة أمام اندريس بأنه وغدشقي . ولكن أندريس لم ينس الا انه التزم الصمت .
ـ اذن يا صديقي ، لما لم تحضر المرأة الساقطة ، في اليوم الذي انتظر قدومها فيه ، صور له خياله المريض ... نعم صور له خياله ، بكل بساطة ، أني قضيت عليها ... قتلتها ...

احس فجأة بالرهبة أمام الصمت الذي التزمه أندريس . غلبه الاضطراب وشعر في الوقت نفسه أن ابنه قد رأى منه هذا

الاضطراب . أراد أن يكسب الموقف بالمكابرة ، فراح يلقى الكلام، مع الحرص على ايراد البيانات التى لا أهمية لها ، ومن غير أن يتنبه الى تحرى الدقة :

– ولكن خانهم الحظ والتـــوفيق . هل رأيت ؟ ان الأمر فى تصورهم قد تم فى مساء يوم الاثنين . ولكنى فى تلك الليـــلة بالذات كنت راقدا فى سريرى .

كرر أندريس فى صوت خافت رزين « ... مساء الاثنين »

– تستطيع تاماتى أن تؤكد لك ذلك ... لقد مرضتنى جزءا من الليل ....

لقد ضل الطريق . لاشك فى هذا . عاد الجو بينهما فهـدا مرة أخرى . لم يعد ينظر اليه الشاب ، ولكن جرادير لا يجهل لون تلك النظرة لو أنها وجهت اليه . لم يعد الابن ولم يعد الاب يجد أن كلمة واحدة يتبادلانها فى هذا الصمت الذى يخيم على الليـل فى منتصفه . قوس أندريس ظهره واتجه نحو باب الغرفة . جبرييل هو الذى يود الآن لو استبقاه الى جواره ليحدثه عن أى شىء وفى أى حديث . دعاه مرارا ولكن بلا جدوى . لم يكلف الشاب نفسه حتى عناء الالتفات اليه .

لم يذهب أندريس الى غرفته ، ولكنه هبط السلم وأضـاء نور المدخل . وانفلتت منه صرخة صغيرة : كاترين مازالت هنـاك جالسة . قال لها :

– ألم تنامى ؟.

ولكنه لم يدفعها بعيدا عنه . ان ما يثقل كاهله شىء كثير . انه يود لو تعلق بأى انسان حى فى هذه اللحظة من مصيره . ولم يكن أمامه فى ذلك المكان الا كاترين فارتمى عليها وهو يئن وينوح . لم تتحرك الا قليلا . ها هى الفتاة النحيلة تسند جذع الشـجرة الشابة الذى انهار فوقها بعد ان حطمته الصاعقة وغطاها بأوراقه المحملة بالمطر . انها تأخذ نصيبها من هذا الألم الكبير .

لقد وجد أخيرا الشىء الذى يقتسمانه فيما بينهما . سيصبح كل شىء بعد اليوم مشاعا بينهما ، ألم يأكلا معا هذا الخبز المرير.

الاسود ؟. امتزجت دموعهما . وبينما تمنى ؟ وهو فى عنفوان قوته وشبابه ، ان يموت ، كانت هى تغمض عينيها كالطفل الرضيع الذى يدس وجهه فى الثدى الذى يمص منه وتكرع لاول مرة فى حياتها من ذلك النبع الملتهب . انها تشبع جوعها من هذا المهزوم .

- ١٨ -

فى اليوم التالى ، وكان الجمعة الاولى من شهر ديسمبر ،ذهب لاسوس الصغير مخترقا صحن الكنيسة ، بعد القداس ، الى ان وصل الى باب صومعة القسيس فواربه وعرف من النظرة الاولى ان تعبدات السيد الراعى سوف تستطيل اليوم ، وانه لن يستطيع التحدث معه الا عند حلول موعد المدرسة . انصرف اذن لحاله واستمعت ماتلد ، التى حضرت القداس هذا الصباح ، الى طقطقة الحذاء الخشبى الصغير وهو يبتعد . بقيت وحيدة فى الكنيسة تنتظر خروج الراعى فوركاس .

لم تكن تتلو صلاة،ولكنها ظلت تستشعر ما يحيط بها من فراغ وعزلة يضيع فيها النداء ويتبدد ، تحت هذه القباب المغبرة وامام هذا المعبد المحمل بالآنية الباهتة والزهور الصناعية ... هل يعنيها شيء من ذلك كله ؟... فهى انما جاءت الى هذا المكان ، فى هذا الصباح ، تبحث عن رجل ربما استمع اليها وحاول فهم ما بها وارشدها الى اى طريق تسير ... ولن يكون عليها بعد ذلك الا الطاعة والتسليم . هو شاب ، نعم ... ولكنه قسيس . ليس يهمها أن تبحث عما اذا كان من القوة والاحتمال بحيث يقدر على تلقى كل ما تنوى القاءه من اثقال على كتفيه . أليس من المفروض ان يطلب من هذا الفتى الصغير ما لا قبل للرجال به مادام قسيسا ؟ فما من رذيلة الا ولنا الحق فى تلويث ذهنه بها ، وفى اظلام قلبه منها .

ما الذى يفعله الآن ؟ الساعة تدق فى بطء شديد ، وعلى البعد ديك يصيح . حياتها كلها فى غير هذا المكان وما تلك الكنيسة الا كالقلب الميت فى داخل الجسم الحى . ان الحياة تذخر وتضطرب فى كل مكان الا فى هذا المكان . ماتلد تقتل الوقت بالتفكير فيما

هي قادمة من أجله وما ستقوله بعد لحظات . ستعرض الأشياء في أبهى صورها فيما يتعلق بها هي ، فما كان أعتراف النساء في يوم من الأيام اقرارا بالذنب او اتهاما للذات !... انقضى نصف ساعة أو يكاد وماتلد في الانتظار . هل انصرف الراعي من غير أن تتنبه اليه ؟ أدهشها ألا تسمع منه سعلة او صوت مقعد يحرك أو باب خزانة يئز . انتصبت بعد أن فرغ صبرها ، وسارت متجهة الى المذبح حيث انحنت في ركعة خاطفة ودفعت باب الصومعة ثم توقفت .

عينها لا ترى امامها شيئا غير عادي . ها هو القس الشاب ، بعد ان اقام قداسه ، قد ركع على بلاط الحجرة وراح يطيل في صلاته وعبادته . رأسه مائل قليلا على كتفه اليسرى ، وعيناه مغلقتان ، ويداه مستندتان الى واحد من تلك المقاعد الصغيرة التي يستند اليها اطفال التراتيل فتقيدهم في وقفة معتدلة . في كل ما يحيط بالقسيس ضربت الفوضى اطنابها ، فلم يتمكن لاسوس الصغير بعد من جمع شتات القماقم والاردية الكهنوتية المبعثرة ، لا ، ليس في ذلك كله شيء غير عادي ، ومع ذلك فقد شعرت ماتلد بان من الواجب عليها ان تنصرف ، لانها انما تهتك سرا مصانا . كل ما في هذه الحجرة من اشياء متواضعة خصصت لخدمة تلك الكنيسة الريفية الصغيرة ، القماقم والصينية المعدنية والأوعية العتيقة والمنشفة المعلقة على الحائط ، كلها تبرز وسط النور السماوي المنبعث من هذا الرجل المتحجر الجاثي . سمعت ماتلد ، كما لو كان قادما من عالم آخر ، صوت كلب ينبح وأزيز منشار المصنع يقترب مع الريح ثم يبتعد . ثم وصل الى سمعها ، من جانب الراعي ، أنين خافت . رجعت القهقرى من غير أن تجذب باب الحجرة وعادت الى مقعدها .

●

ما أن خرج لاسوس الصغير من مدرسته حتى انطلق يعدو في اتجاه الكنيسة . عرف ، من تلك الوشوشة المتبادلة الخفيفة ، ان السيد الراعي يتلقى سر الاعتراف . نظر الى اطراف الحذاء البارزة

من تحت الستار الحريرى العتيق ، فقال فى نفسه أنها لابد سيدة القصر التى حضرت القداس هذا الصباح . ها هى قد عادت الى السيد الراعى !.. وهو بالتأكيد مسرور لهذه العودة كثيرا . لقد طال مكوثها خلف الستار ... فليذهب لاسوس الصـــغير الى صومعة القسيس يعيد الى ارجائها بعض النظام والترتيب ... عاد الى الكنيسة . مازالت السيدة باقية فى مكانها . اى خطايا تلك التى يتطلب الاعتراف بها للسيد الراعى كل هذا الوقت الطويل!. لو انه اقترب بأذنه من المكان لسمع جانبا منها ... ولـكنه انزوى هناك فى أقصى الكنيسة أمام مصلى العذراء وأخرج من جيبـــه مسبحة تشابكت حباتها وتداخلت وقضى وقتا طويلا يحـاول فك ما فيها من عقد . ظل وهو على البعد يراقب الحذاء تحت الستار الحريرى العتيق . احدى الفردتين تتحرك من وقت لآخر وتضطرب ثم تعود فتهدأ وتستكن . دقت الساعة احدى عشرة دقة . سوف تنزعج عمته لتأخره هذا الذى لم تعهده فيه من قبل . ركع لاسوس الصغير علىَ ركبتيه ، وارسل ابتسامة الى السيدة العذراء ، والقى بنظرة أخيرة فى اتجاه الحذاء البارز من تحت الســـتار ، وغادر الكنيسة وسط قعقعة وضجيج من نعله الخشبى .

- ١٩ -

وجدت ماتلد ، عند عودتها ، المنزل غارقا فى صمت لم تعهده فيه من قبل . ان الذى حدث فى الليلة الماضـــية ، حيث أشرف المعذبون فى هذا البيت فجأة على حافة الحقيقة واجتمعـوا حول الخطر المتوقع ، ... هذا الذى حدث لم يسفر عن أية نتيجة ولم يفض الى اى أثر . لقد تراجع كل منهم أمام ضوء النهار وقبع منزويا فى انتظار ما قد تأتى به الأقدار . لم يحدث غير تبادل فى الوظائف بين كاترين وأمها اذ احتلت الشابة الى جوار أندريس المكان الذى كان من قبل من اختصاصات ماتلد ، وحلت هذه الأخيرة محـــل كاترين الى جوار ديبا العجوز الذى راح يضرب أخماسا فى أسداس كلما تذكر انه هو الذى استقدم آلين وانه قد يصيبه من ذلك أذى .

شعر جراديّر بانه منبوذ بين أفراد الأسرة ، وأن وجوده فى قصر ليوجا لم يعد يثير أى اهتمام ، فله ان يرحل أو ان يبقى ، اذ الأمر سيان ، وقد أسقط كل حساب له تماما . ها هو شبيه بشجرة الصنوبر التى يصيبها الداء فتحاط بحفرة عميقة ، لكى لا تنشر الموت فيما حولها ، وتترك هكذا تزوى وحيدة وتنهار . لم يعد يجرؤ على مواجهة نظرات اندريس الذى لا عهد له بالانزواء والابتعاد عنه . أقلع من تلقاء نفسه عن تناول وجبات الطعام مع أفراد الأسرة ، واحتج بما بينه وبين ديبا من نزاع فذهب ليأكل بالكراء عند لاكوت . وكان يعود الى القصر لينام فيه متسللا بعد أن يأوى كل سكانه الى الفراش .

الشتاء ضارب اطنابه واندريس يصيد الكثير من الطير والأرانب ثم أخذ فى الليالى المؤاتية يصيد البط من مستنقعات تيشوير . لم يكن يرفض مصاحبة كاترين له فى الصيد ، فما كان يطيق أن يبقى بمفرده وقتا طويلا !.. على الرغم من أن حديثا ما لم يدر بينهما حول الأمر الجلل الذى يؤرقهما ولا يكف يشغل تفكيرهما ، فان أندريس ما كان ليطيق وجود امرأة الى جانبه لا تدرى سبب شقائه . لقد كانت كاترين على علم بكل شىء وكانت مثله تنتظر فى توجس ، ولطالما جلسا متجاورين ، ونشرا امامهما الصحف ، وتماست رأساهما بحثا وسط السطور ... لم يشهد قصر ليوجا من قبل مثل هذا العدد الضخم من الصحف تقرأ بمثل هذه العناية وبمثل هذا الاصرار . كانا يتجهان الى صفحة الحوادث مباشرة ، يتفحصانها ثم يعيدان قراءتها وتفحصها مرات عديدة .

لم تعد الفتاة الشابة تبدى شيئا ينم عن الاندفاع العاطفى ، وانما كل الذى يعنيها هو الحرص على توفير أسباب الراحة المادية لأندريس ، واحاطته بالحماية الدائبة من غير أن تشعره بما تبغى وما تقصد اليه . أما فى أيام الآحاد حينما لا يسقط المطر ، فكان يتركها ويذهب للمران مع زملائه استعدادا لمباريات الربيع . وفى كل مرة كان يذهب فيها لشأن من الشئون ، كمحاسبة احد التجار أو التفتيش على احدى المزارع ، كانت تتركه يخرج بدونها . وفى المساء ، حينما يعود من عمله ، كان هو الذى ينادى بمجرد

دخوله : « كاترين !... انت هنا ؟... » فتظهر أمامه في الحال. ليس عجيبا ان تركع أمامه لتخلع له حذاء الصيد ، كما كانت تاماتي تفعل دائما . واذا حدث أن عجزت سترته عن حمايته من البلل أرغمته على تغيير ما ابتل من ملابسه الداخلية . لقد اصبحت الآن تدخل الى غرفته بلا استئذان ، وكانت ماتلد تلاحظ ذلك كله من غير أن تبدى كلاما .

كلما ازداد زحف الشتاء خففت كاترين من مراقبتها على اندريس . وفي عصر أحد الأيام خرج الفتى بمفرده ممتطيا صهوة جواده ، وسلك الطريق المؤدى الى مزرعة باليزاو ، وعند اجتيازه للمكان الذى يطلق عليه القوم اسم « الصخرة » ، رأى رجلا جالسا في الشمس على حافة مقطع الرمل المهجور . لوى أندريس عنان الجواد في اتجاه الرجل ، واذا به يرى أن الجالس في هذا المكان القصى هو ابوه ، وقد راح يكتب مستندا الى ركبتيه ... أسرع مبتعدا وعاد الى الطريق الذى كان يسير فيه .

كان الرجل يخط بيده : « هل مما يفيد أن أروى لك « الامر »؟ لاشك أن ماتلد قد عملت بما أذنتها به ، وهأنت تعرف الذى تعرفه هي . انه ، من بين الآثام التى ارتكبتها جميعا ، أقلها اثما ... فحياتي كانت مهددة وفي خطر . ومع ذلك فهو في نظري-ويالالأمر العجيب !... - الاثم الوحيد الذى لا يستحق غفرانا . أما الباقى كله فلا يزن خردلة الى جانب هذه الجريمة ... يصور لى خيالى الأسباب التى قد ينتحلها لى رجل على شاكلتك : سيقول ان نذالة القتيل تضاعف من شناعة الفعلة التى ألقت بها الى عالم الظلمات . لقد عرفت من قبل قسيسا في لوشون ، وذكرت لك يوما احدى كلماته ... هل تذكرنا ؟... لقد كان يعترض على عقوبة الاعدام لهذا السبب . فهل قضيت بعملى على فرصة أخيرة ربما اتيحت لاين لتنجو ؟ أم هل عدالة الهك هى التى استخدمتنى لأغراضها ؟ ما أشد جنونى ، يا سيدى الراعى ... ها أنا ، كما ترانى ، أنفذ الى قرارة تفكيرك ، والى صميم تصوراتك . ولكن من حسن الحظ أن ليس هناك شىء ابدا ... ليس هناك غير رمة جائفة على بعد خطوتين منى . فأنا اكتب اليك مستندا الى ركبتى وسط مقطع

الرمل الذى طالما لهونا فيه - الصغيرتان دوبوش والصغير جرادير - منذ أربعين سنة أو تكاد ..

ها قد انطفأت الشمس واشتد البرد ، وأنا أسعل منذ الليلتين اللتين قضيتهما فى هذه البقعة . انى اعترف لك ، لأنى لم أعد أستطيع الكشف عما فى نفسي لانسان . لم يعد يضمنى والآخرين جو يمكن التنفس فيه . أحاول البحث عن نظرات اندريس عبثا . لقد قضى على أندريس بحكمه القاسي . لقد ضاع أندريس منى ... أضعته بغبائى ، أنا الرجل الذى طالما حاور ثعالب البشر وقاوم ذئاب الرجال ... تملك زمامى هذا الفتى الطاهر البرىء . لم يعد شىء فى العالم يهمنى الآن ما دمت قد فقدته ... والى الأبد . لا سلطان للفتاة على هذا الصبى البسيط . لو أنه قرأ قليلا ، لو أنه احتك بآراء الناس ، لنظر الى القصة نظرة اخرى ، ولاحتفظ بما يجب عليه من احترام لى ... ربما ... ولكن هل لى ان أتوقع غير ذلك من هذا الوحش الحبيب ؟ انه كسائر الناس ينادى بالموت عند مروره بالقاتل .

لم يظهر شىء بعد ، فى الصحف على الأقل . متى هم فاعلون ؟ فلم يعد بى اصطبار . اذا ظلوا على صمتهم هذا ، فسأجمع مجلس العائلة ، وأضع نفسى موضع الاتهام أمامهم . كثيرا ما تصورت المنظر فى خيالى : داخل حجرة ديبا العجوز ، سأقول لهم انى انما رافعت عن رأسى ، وانى لم يكن لدى خيار الوسيلة ، وان غيرى هو الذى استقدم هذه المرأة الى ليوجا ، وأنه أيا كان الأمر ، كان لابد من قتيل يسقط فى هذا الصدام ، وانى تفاديت الطعنة الموجهة الى فأصابت غيرى . اعلم حق العلم انى كنت استطيع الفرار كما ارادت ماتلد . ولكن لا . لقد تظاهرت ماتلد بهذه الرغبة ، بينما هى فى الواقع ، كانت تعلق على آمالا ، وتنتظر منى أن أحقق لها الهناء، ولا شىء غير هذا . من الذى أمسك بى على حافة الجريمة ؟ ومن الذى حاول ان يمد لى يدا ؟ انت . لقد رايتك فى اليوم السابق ... جريت خلفك وسط المطر ... نظرت الى بغير حب ... يالها من نظرة !.. ما كان اقساك عندما قلت لى بلهجة كلها جد ، يفوح منها الاسلوب الكنسي الجاف : « انا مملوك للنفوس ! » ... لا تبتئس

يا عزيزى ، ان تلك اليد التى مددتها اليك ، شاءت لك عتمة المساء الا تراها . او لعلك تظاهرت بأنك لا تراها ... لا،يا ولدى المسكين، لست اتهمك بشيء . ولو انك شددت على تلك اليـد ، بفيض من روحك ، لما حال ذلك دون ان تصبح فى ليلة الاثنين الى الثلاثاء يدا آثمة قاتلة ... لا . لم يكن ذلك ليغير من الامر شيئا ... ولكن افهمنى يا ولدى ، فكم اود ان تكون انت ، على الاقل ، الوحيدالذى يفكر فى المخلوق الذى انا هو ، من غير اشمئزاز ومن غير حنق . لأنى انا الذى أزلت الأعشاب المنثورة أمام بابك . هل تذكر ؟...انا الذى أزلتها ليلة وصولى الى ليوجا ... بل لعلك تجهل الآن عما أتكلم ...

اشكرك على كتابتك لى . لقد مزقت رسالتك ... اضطررت لتمزيقها ... وكم أسفت على ذلك !... والا لكنت أعدت قراءتها الآن ، على الرغم من اسلوبها الرسمى الجاف ... ولحاولت أن أفهم منها شيئا كثيرا . كيف جاز لك ان تفترض فى الايمان بالشيطان ؟ هل ظننت انى طفل ؟ الشيطان لا يرضى لى ان أومن به . وما معنى حب الله ؟ هل هو انجذاب عاطفى نحو كائن حى ؟ هذا ما لا يمكن التفكير فيه ... الحب عمل جسدى !... انت تستبدل معنى بمعنى ، أيها الراعى المسكين ، انت ، كما يقولون الآن ، تحور المعانى . انت ... ما فائدة الاسترسال ؟ فانا اعرف سلفا نوع جوابك . ستقول لى انكم مسستم بأصابعكم مواضع الجراح من ربكم ، وأنكم مسحتم بأيديكم على الشق العميق فى جنبه وانكم أسندتم رءوسكم الى صدره ... ياله من أمر غريب! صبى طيب نبيل مثل أندريس يعيش خالى الذهن تماما عن هذا العالم الخفى ، عن هذا البحر الخضم الذى تفور حولنا موجاته من كل مكان وتقرضنا قرضا !... بينما أنا ، المخلوق الملطخ بالوحل والدم ، المكسو بالعار ، أدرك تمام الادراك معنى ما يعمله رجل مثلك كل صباح فى كنيسته المهجورة ، وأفهم كل الفهم ما يجرى فى داخلها !... الى الحد الذى أتصور فيه ما يرمى اليه صمتك وما يحققه فرحك ...»

انتشرت الظلمة تحت الأشجار . ولم يعد جرادير . منذ لحظة،

يميز الكتابة التى تخطها يده . استمع الى طقطقة المطر المنهمر تصل اليه من أعلى اشجار الصنوبر . ولكن هذا المطر على شدته ليس بالكثافة التى كان عليها يوم ارتكاب الجريمة . ظل يسمع هذه الطقطقة زمنا قبل أن تصل اليه القطرات الأولى . خطرت له ، من غير علم منه ، نفس الفكرة التى جالت فى ذهن اندريس من قبل . فك ازرار قميصه فتسلل هواء المساء المبتل الى ما تحت ملابسه . سال المطر على هذا الصدر النحيل الذى نظرت ماتلد اليه فى الزمن الماضى وقطرات الماء تلمع عليه ، فى فترة الاجازة الصيفية الكبرى ، على جسر النهر . لم تعد تلك الرمة الآخذة فى التحلل على بعد خطوات منه تخيفه أو ترهبه . وما كان النـدم هو الذى جاء به الى هذا المكان ، الى الصخرة ، وانما هو الفزع من الوحدة والعزلة .

انتابه السعال العنيف وانتشرت فى جسده الحمى ، وهو يسير فى عناء شديد . مر فى سيره امام بيت القسيس فدفع بالورقة التى فى يده تحت عقب الباب . قد يقرؤها اى انسان ... ولكن القسيس لا يخدمه احد . توقف عند لاكوت حيث شرب كأسا من البرنو وتناول عشاءه مفرغا فى خلاله زجاجة كبيرة من النبيذ . الى جواره . على المائدة الرئيسية ، ثلاثة من التجار فى مناقشة حامية حول مزايا أو مضار استخدام السيارة فى مزاولة مهنتهم . جل مناقشتهم يدور على اسس من الحساب الدقيق : « لا . لا . هلا حسبت حسابا للاستهلاك ؟ ... ثم هناك الوقود الذى ارتفع ثمنه كثيرا فى هذه الأيام ... ثم تآكل الاطارات ... انها مسألة حظ ... » كانوا يتكلمون جميعا فى وقت واحد يحركهم حماس عجيب . لم تفت جراديز ، وقد لعبت الخمر بعقله قليلا ، كلمة واحدة مما يقولون ، كأنما تعلقت حياته بما يقرره هؤلاء الرجال . مسح على شفتيه وقام فوضع قوطته فى مكانها من الخزانة .

من طرف الطريق رأى النور المنبعث من القصر ، ضوء المصباح وسط الظلمة الحالكة . لو أنه رجل مثل الرجال جميعا لأسرع الخطى نحو هذا الشعاع اللامع ، ولوجد هناك اناسا يهشون

لمقدمه ووجوها تبتسم لرؤيته ، ولرفع بيده شعر أندريس ليقبله على جبهته .

تعمد التباطؤ وهو يرقى سلم الشرفة ، محدثا أكثرمايستطيعه من جلبة ، لكى يجد من كان من القوم فى الردهة الوقت الكافى للفرار من وجهه عندما يخطو عتبة البيت . سمع بالفعل حركة الفرار فى الداخل . فرد واحد فقط ظل فى مكانه كأنما ينتظر قدومه . انها ماتلد وقدنجحت ، بقوة التجلد وعدم الاكتراث المفتعل ، فى اخفاء ما يعنيه الهم المرتسم على وجهها . تظاهر بأنه لم يرها واتجه الى السلم يصعد درجاته . ولكنها نادته قائلة :
ـ هل رأيت ؟ .

انها تمسك فى يدها احدى الصحف القادمة من باريس ؛ الصحيفة الوحيدة التى اهمل قراءتها منذ يومين أو ثلاثة . اشارت اليه ، على الصفحة الثالثة ، وارته خبرا مطبوعا بحروف مطمئنة : « لم تظهر حتى الآن اية أنباء عن آلين س ... المرأة ذات الماضى المشبوه التى غادرت منذ يوم ٢٥ نوفمبر الفندق العائلى الذى كانت تقطن فى احدى غرفه من شهور عديدة، فى شارع كونفنسيون لقد علم انها اخطرت صاحبة الفندق الذى تقيم فيه ان غيبتها لن تطول لاكثر من يومين فقط وانها لم تأخذ معها حقيبة ملابس ،ولم تترك عنوان الجهة التى ذهبت اليها . لم يعثر فى غرفتها على أوراق من شأنها أن تلقى شيئا من الضوء على اختفائهاالمريب. ولكن قيل ان هناك من الشواهد ما قد يساعد على توجيه التحريات التى تقوم بها العدالة الى وجهة معينة . ولاشك ان القارىء يقدر الظروف التى تضطرنا فى الوقت الحاضر الى التحفظ الشديدفى نشر ما وصل الينا من معلومات . ان البحث جار الآن بهمة للعثور على أثر لاحد أصدقاء آلين س ... كان قد غادر باريس قبل اختفاء هذه المرأة ببضعة أسابيع . والمفهوم ان العثور على هذا الصديق سوف يمد العدالة بالكثير من البيانات المفيدة » .

قال جرادير :

ـ أمر غريب !.. وانا الذى أقرا جميع الصحف منذ ... كما

تعلمين ... وخصوصا هذه الصحبقة بالذات ... كيف سـهى عنى ...

تظاهرت ماتلد بانها لم تسمع ما قال ، وهمت بالانصراف،ولكنه استوقفها وهو بادى الاضطراب وقال :

ـ ما الذى يجب على أن أفعله ؟.. أارحل ؟ ... اليس كذلك؟ أم ارسل برقيـــة الى قاضى التحقيق ؟... يجب الا أبدو كمن يحاول الهرب ... هلا نزلت ثانية يا ماتلد ؟...

اجابته من أعلى حافة السلم التى اتكأت عليها :

ـ هذا هو الذى يبدو لى أنا أيضا ... ولكن الأمر يعنيـك أنت وحدك ... هناك انسان يستطيع ان يســاعدك ' الراعى فوركاس ...

صعدت الى الطابق الأعلى حيث حجرات النــوم . وبقى هو وحيدا . صوت رتيب ينبعث من «الترسانة» حيث انهمك أندريس فى صنع الخراطيش . ذهب جرادير حتى باب الغرفة ، وتردد فى الدخول لحظة . ثم تشجع أخيرا ودخل . كاترين جالسة الى جانب أندريس تشتغل بالتريكو تحت ضوء المصباح وقد وضـعت على عينيها نظارة فبدت كعجوز من الأقزام . توقفت هى وأندريس عن عملهما وقال جرادير :

ـ سأرحل غدا صباحا بقطار الساعة السادسة . وأرجـو أن اتمكن من العودة فى نهاية الأسبوع .

وقف الشابان وقال أندريس متلعثما وهو يمد الى ابيـه يدا متخاذلة :

ـ اذن !... الى اللقاء .

نظر جرادير الى احدى البنادق المعلقة على الحـــائط ... البندقية ذات الزناد التى كانت من قبل ملكا لأبيه جرادير العجوز. تبع أندريس بعينيه اتجاه نظرته.هل ادرك ما يجول فى ذهن أبيه؟ وهو الذى لم يؤت من قبل القدرة على الكشف عمـا يضـمره الآخرون ؟ ... ولكن جبريل لم يغفل عما يفكر فيه ابنه ... عما يتمناه ، ربما ، هذا الابن . ألىس لاندريس تلك الطبيعة السـمحة

المستقيمة التي يتحلى بها رجل الجيش حينمايرى من أبسط الأمور أن يترك مسدسه على المنضدة أمام زميله الذى سرق أو غش أو خان ؟ وربما كان ذلك كله من قبيل الخيالات التى يعمر بها تفكير جرادير ؟ فانصرف من غير أن يلتفت برأسه . لو أنه عاد أدراجه فى تلك اللحظة لأدهشه أن يرى أندريس وقد انهار فجأة واسندرأسه الى ركبتى كاترين وراح يبكى وينتحب !...

اجتاز جرادير غرفة الطعام وهو يتحسس طريقه تم عبس الردهة . لقد اغلقوا الباب بالمزلاج . لم يكن الليل شديد البرودة ، وقد كف الثلج عن التساقط . غير أن جرادير لم يعن بأخذ معطفه معه . اهتدى على الضوء المنبعث من السماء، وسار يضرب فى الطريق، يحف به حائطان قاتمان من اشجار الصنوبر . اتجه نحو القرية التى لم يكن ينبعث الضوء الا من نافذة واحدة فيها ، هى نافذة القس فوركاس . حدث جرادير نفسه قائلا : «لقد عثر على رسالتى لابد انه الآن يفكر فى أمرى ... » هل يقرع هذا الباب ؟... لو أنه فعل لانفتحت احدى النوافذ ، ولجاء منها صوت يسأل :«من الطارق ؟... » ولكن كيف يكون رده ؟ وأى تعليل يقدمه للراعى عن تلك الزيارة الليلة ، التى أوحت اليه بها ماتلد؟هل يشك جرادير فى النصيحة التى سوف يسمعها على لسان انسان من هذا النوع؟ « اذهب وسلم نفسك الى العدالة !... اقبل القصاص ، واستسلم لامر الله !... قف بين يديه نادما ...»

جلس الرجل المرتجف على درجات السلم الذى عرفتها يداه من قبل . مسح بيده عليها كما لو كان يربت على جبين انتشرت فى صفحته التجعدات ... انتابه السعال ، ولكنه يعلم منذ السنوات التى قضاها فى مدرسة اللاهوت ان المرء لا يمرض ولا يشفى بارادته . فكم من مرة ارتكب كل الحماقات ليذهب الى المصحة حيث يتمتع برعاية الراهبات وتدليلهن ، ولكن شيئا ما لم يصبه ، بينما اسرع اليه الالتهاب الرئوى على أثر بضعة دقائق قضاها متنزها تحت المطر ... هذه الافكار التافهة هى التى تغمر ذهنه وهو جالس ملتصق بهذا الباب ، قبل أن يبدأ الدور الذى تتوقف عليه حياته كلها . انه فى الواقع لم يفكر أبدا من قبل فى احتمال

قيامه يوما بأداء هذا الدور دفاعا عن بقائه ، وهذا ما يفسر الهدوء الشامل الذى يملأ قلبه،وكأنه رجل مطارد في الظاهر ولكنه مطمئن الى ان وراءه المخابىء السرية الواسعة التى تكثر فيهـا السراديب المحصنة المنيعة . انه لا يفكر فى الاشارة الصامتة التى صدرت من أندريس ، أو التى خيل له أن أندريس قد أوحى بها . فما من شيء فى هذا العالم بقادر على اقناعه بصواب توجيه المسدس الى حلقه والضغط على الزناد . لا ، ما من شيء ... ومع ذلك فان عملاكهذا من شأنه أن يخرجه من هذه الحياة ، فيهرب من المصـير الذى ينتظره ، ويفلت من عالم المنطق الـسـكريه الذى يربط الدوافع بالأعمال ، والذى دفعه ، بعد نصف قرن من الزمان ، الى العودة مع آلين نحو الصخرة وسط هذه الرمال التى كانت مرتعالطفولته... السعال المنطلق من صدره يرن رنات كئيبة وسط تلك الليـلة الصامتة من ليالى الشتاء الهاجع . ولكن هل عرفت ليوجا ليـلة صامتة قط ؟... ان اقل نسمة عابرة تلتقطها آلاف الصنوبرات المنتصبة وترددها صفيرا لا نهاية له ، كما لو كان هناك الهرابض فى مكان ما وسط الغابة . وهناك الباليون فى خريرة الأزلى ، تتكسر مياهه الى الصخور التى ترك فيها المحيط منذ العصور الأولى اثارة من القواقع والاصداف .

انفتحت احدى النوافذ وجاء منها صوت يقـول : « من الذى يسعل ؟ ... » تلك هى اللحظة التى كان ينتظرها منذ سـاعة أو تزيد . اصابته رجفة ولكنه لم يرد بشيء . سمع خلف البـاب اقداما تدرج السلم مسرعة وتسير فوق بلاط الردهة . لم يغم على جرادير ولم يتظاهر بالاغماء ، وانما جعل من نفسه شيئا ماديا ، مجرد شيء لا صوت له ولا حركة فيه ولا نظر فى عينيه ، قطعة من الحجر الاصم ... على الرغم من ضوء المصباح المنسـاب على وجهه . قبضت عليه يدان من تحت ابطيه وقد تمكن فى عناءشديد من الانتصاب على قدميه الواهيتين .

فتح القس بابا على اليسار ، وادخل جرادير الى المطبخ حيث أجلسه على مقعد من القش والقى بحفنات من الحطب على النـار الخامدة . مس بيده جبهته وعنقه وقال :

ـ لن تستطيع الآن العودة الى القصر . . ساجد لك فراشا .

ظل جرادير بمفرده في هذه الحجرة الصامتة حيث أخذت النار تخبو . على المنضدة التى يضيئها المصباح صحفة بها بقيةمن البطاطس المسلوقة والى جوارها علبة سردين فارغة ولقمة خبز .

عاد القس وطلب منه الانتظار قليلا الى أن تجف الأغطية الباردة . ملأ احدى الجرار بالمساء الساخن وخرج ثانيـة ثم عاد بعد لحظة يقول :

ـ والآن ، هيا بنا . . .

اخذ القس يعاون جرادير على الوقوف . ولكنه استطاع الانتصاب والسير بمفرده فى خطوات سريعة . رائحة المكان حوله كريهة . قاده الى غرفة واسعة ، بها من وسائل الراحة ما لا بأس به . فعلى الأرض سجادة ، وعلى الحائط بين النافذتين مرآة ، وهناك منضدة من خشب الجوز ومقعد كبير وساعة يغطيها ناقوس من البللور ومصباحان معدنيان ... كل ما يملكه القس من حطام الدنيا اجتمع فى هذه الفرقة . راح جرادير يخلع ملابسه فى عجلة ، واذا به يشم آثار رائحة عطرية ... لاشك انها غرفة توتا ريفو . . . اخت الراعى . تمدد جرادير تحت الأغطية ، ومس بقدميه القربة الساخنة . يالها من راحة ! . . . هل يأتى أحد لاخراجه من هذا النعيم ؟ . . . هل تستطيع قوة آدمية أن تناجز فيه هذا القس الذى اصبح مجيره وحاميه ؟ ولكن ماذا ؟ اليس من الواجب عليه ان يرحل غدا صباحا بقطار الساعة السادسة ؟ وان يبعث ببرقية الى قاضى التحقيق ؟ التفت الى القس يبحث عن نظرته فى ضوء المصباح الخافت وقد غاب عنه ما فيها من تعبير . حاول التحدث اليه ، فلم يحسن الكلام ، وشعر ان محدثه يظنه يهذى من المرض ، فاصر على الكلام . قاطعه القس قائلا انه رأى مدام ديبا بعد ظهر ذلك اليوم ، وقرأ ما نشر فى الصحيفة ... طمأن جرادير ونصحه بأن يكتب رسالة من حيث هو موجود الآن ، وان الراعى سيضيف عند الاقتضاء كلمة بخطه الى هذه الرسالة ... لاشك ان قاضيا سيكلف باستجوابه نيابة عن قاضى التحقيق ... اما من وجوده فى بيت

القس فمن الممكن تعليله بسهولة بما بينه وبين ديبا من خصومة ونزاع . قال جرادير :

– الست أحملك بذلك على قول الكذب ، على الأقل ؟...

لقد احس المجرم بما تخيله فى ضمير هذا الانسان البرىء . هز القس كتفيه وقال :

– عندما يطلع النهار سأذهب بنفسى لاستدعاء كليراك . وسنقول له هو الآخر ان نزاعا عائليا هو الذى الجأك الى السكنى عندى ..

هكذا كان آلان يبت فى كل شىء كما لو كان قد توقع ذلك كله وفكر فى تدبيره منذ أيام مضت . القى على البعد نظرة الى هذا الرجل المريض بعد أن غلبه النعاس وقال فى نفسه : « ولكننى ما علمت أنى كنت أنتظره . » اقترب منه ، متغلبا على ما فى قلبه من كره له ، وراح يتطلع الى هذا الوجه الملتهب ... لم يمح الزمن شيئا من تلك الصورة الرائعة بجبهتها وانفها وفمها وكل ما فيها من بديع صنع الله . لا ، لم يعف الزمن ولم تأت الجرائم على شىء من هذا الوجه الذى لا يزول . قال القس : « يا الهى ، هذا هو الانسان كما اسلمته لى ، الانسان الذى ابعدته عنى من قبل ، والذى استقبله الليلة فى بيتى ، وما كان فى استطاعتى الا ان استقبله . » استسلم آلان سلفا الى كل ما قد يجلبه عليه وجود هذا الرجل فى بيته ، انه يقبل مواجهة هذه المخاطر التى توشك أن تحل به من غير أن يحاول تصورها او تقدير مداها . ليكن سلوكه وفقا لما تاتى به الظروف !... خفض ضوء المصباح ، وتناول مسبحته ، وانزوى فى جانب من الغرفة ، واستسلم للنوم .

استيقظ جرادير فى وسط الليل . تنبه الى انه منذ بضع دقائق – او لعلها بضع ساعات – كان يصل الى اذنه صوت زمجرة خفيفة . رأى القس النائم وقد تدحرج رأسه من على مسند المقعد الذى تكوم عليه . شعر بنار الحمى وقد بردت كثيرا وبحالته احسن مما كانت عليه . لا ، لم يحس أبدا بمثل هذه الراحة وبمثل هذا الهدوء من قبل . القى نظرة فى اتجاه النافذة واطمأن ، فما من ضياء يدل على قرب انبثاق الفجر . مازالت فى هذه الليلة الهنيئة

بقية !.. هدأت الريح وكفت قمم الاشجار المضـــطربة عادة عن الشكوى والانين ، وارسلت نجوم الشتاء لمعانها فى تلك الساعات التى تسبق الصبح والتى لا يعرفها معظم الناس .

تركزت عينا جرادير على آلان النائم واحس بشـــعور غريب وقوى معا . خيل له ان هذا القس الشاب القابع فى هذا المقعد ، ليس الا بديل نفسه وقد ارتد الى الشباب ، وعاش حياة أخرى ، وتسربل بالسواد فى قامته القصيرة ووجهه المنهوك .. تخيل نفسه فى تلك الحياة الأخرى ، او ربما فى تفكير كائن آخر !.. راح ينظر، فى ضوء المصباح الخافت ، وفى انتباه وحنان الى هذه الصــورة الأخرى له ، واذا به فجأة ينزعج لسماع تلك الزمجرة الحيوانيـة المنبعثة من هذا الشاب الغافى ... نظر الى الفك الأسـفل وقد تدلى ، والى الشفة وقد برزت غليظة ، يكاد ينبع الدم منها . لقد انسحبت الروح من هذا الوجه الذى اتهدلت فيه الأهـداب وزال منه النظر . لم يعد الشعاع يفور من هذا القلب الطاهر ليضىء من الداخل وجه هذا الوحش الشاب ... « هذا النائم ... ربمـا قدر له ان يكون انا ... » ألم يكن فى استطاعة آلان ان يخضـع لتأثير اخته عليه ؟... فيختار لنفسه الانطلاق ... ويرضى الاكتواء بالظمأ الغامض ؟... هذا الظمأ الذى عافه بمجرد ان ادرك كنهه.. والذى كان فى استطاعته ان يقبل عليه فى يسر كما فعل جرادير. انه لو فعل لما بدت له هذه الضوارى الخفية شـيئا مخيفا ، بل لانتهى به الامر مع الزمن الى الاعتياد عليها ، وترويضها،وهدهدتها، وأطعامها من قلبه ومن روحه الى ابعد من حدود الشبع والامتلاء.

استيقظ القس منتفضا ، فاغلق جرادير عينيه وشعر بيد تمر على جبهته وبصوت ارتطام مكتـــوم على الارض الى جواره . آلان راكع على الارض يتلو الصلوات من كتاب فى يده . بعد وقت طويل اغلق الكتاب ووضعه على المنضدة الى جوارالسرير وخرج من الغرفة متسللا . انتصب جرادير فى الفراش ، ومد يده الى المنضـــدة ، وامسك بالكتاب ذى الجلدة السوداء ، وفتحه عند اول صــفحة صادفته . وجد امامه صورة مما صوره رامبرانت تمثل المســيح وحوله حجاج ايماوس . خلف تلك الصورة قرأ تلك العبارة المكتوبة:

« ذكرى رفعى الى مرتبة الكهنوت فى ٣ يونية سنة ١٩٠٠ : القس آلان فوركاس . ستسير امام الرب لترشد شعبه الى النجاة والى غفران الذنوب والى حنان رحمته ، وتحمل الضوء الى الجالسين فى الظلمات والى القابعين فى ظل الموت، لتقود خطواتنا نحو السلام . »

اعاد جرادير الكتاب على المنضدة وتمدد فى استرخاء هادىء وتنبه مريح . انه يرى من اعماق جريمته ما قدر لهـذا الرجل من مصير يتعارض كل التعارض من مصيره هو وان كان منه جد قريب . فقد كان فى استطاعته ان يعفو الخطايا ويغفـر الذنوب ويضىء الطريق وينقذ النفوس ، ويبقى مع ذلك كله هو نفسه ، جبريل جرادير ! ... ان كل ما يستحقه الانسان من اجر ضعيف عند الله هو الرضا بما قسم له والتسليم بما اختير من اجله ، وخصوصا اذا كان من فصيلة اولئك الذين لا يرون فى هذا العالم الا ما يدعو الى المتعة واللذة . ان الانسان لا يحيا الا حياة واحدة ، فقد يتـاح لجرادير ان يحظى بالعفو والغفران ، ولكنه لن يعود ابدا ذلك الطفل الصغير الذى استيقظ صباح احد ايام الأجازات الكبرى ، وخلع نعليه ليحس فى قدميه لسعة الرمال الحامية ، وراح بسـاقيه السمراويين يعبث فى مياه الباليون ويمزق تيارها كل ممزق . لقد وصل بلا رجعة الى تلك المرحلة من الطريق حيث يجب على كل من وقع عليه الدور ان يتوقف عن السير ويتخلى عن كل شىء .

خاتمــة

قالت ماتلد وهى ترقى سلم الشرفة أمام الباب :

ـ حسنا ، لقد تم كل شىء على خير ما يرام ...

كاترين واندريس وديبا العجوز وقفوا ثلاثتهم على عتبة البيت ، يجمعهم قلق الانتظار ، وقد تعلقت عيونهم بشفتيها . ولكن ماتلد لم تتكلم فى الحال ، وانما ابتلعت قدرا من الهواء واغلقت ناظريها . لقد سقط المطر وانتشرت الحشرات تملأ الجو بأزيزها وهبت ريح الشرق على الازهار المنتشرة فى أرجاء القرية .

ـ لقد اخبرني الراعي الذي حضر التحقيق ان القاضي عامل جرادير على انه مريض،ولم يبد منه ما يدل على انه يظن به الظنون.

ثم توقفت ماتلد عن الكلام ، وجالت بنظرها فيما حولها قلقة، وقالت:

ـ من الخير الا نبقى هنا في الخارج ...

ذهبوا جميعا الى غرفة الترسانة واغلقوا عليهم بابها ، وعادت ماتلد تقول:

ـ ليست لدى المحققين اية فكرة عن المكان الذي ذهبت اليه تلك المراة . ولما كان جرادير موجودا هنا في وسط العائلة وقت ان رحلت المراة ، فلم يعلقوا اي اهتمام على البلاغ الغفل الذي يشير اليه ، وهو على كل حال بلاغ مبهم ...

ثم نظرت الى زوجها وقالت:

ـ فضلا عن ذلك فقد امكنهم اعادة تجميع رسالتين ، لا غلاف لهما ولا توقيع عليهما ، مكتوبتين على الآلة الكاتبة . وقد اضفت انت اليهما اضافة تقول : « وخصوصا لا تكتبي شيئا قد يثير شكوك ج ... فقد يجد وسيلة يحول بها بينك وبين السفر ...» . وقد فسرت هذه العبارة في صالح جرادير . لايشك القاضي في ان القاتل هو كاتب هاتين الرسالتين ...

قاطعها ديبا وفي صوته رنة خوف ورعب:

ـ اذن ... اذن ... من الممكن ان يدخلوني في الدعوى ...

لفت كاترين ذراعها حول عنقه وقالت:

ـ هل جننت ، يا ابي المسكين! ..

حاولت ماتلد ان تعيد الطمأنينة الى قلبه:

ـ لقد جاوب جرادير على خير وجه : وقال انه لم تعد له اية علاقة بالاوساط التي كانت تغشاها آلين ، وانه منذ سنوات عديدة لم يظهر في حياتها ، فيما عدا المعونة النقدية التي كان يبعث بها اليها . وقد اكتشفوا فعلا بعض كعوب الحوالات ودفترا صغيرا كانت تقيد فيه نفقاتها ، مما يشهد بفضله واحسانه على تلك المراة ...

انطلق ديبا يكرر في رعب وقد انتابته ازمة الربو :

ـ سيقولون انى أنا ... سيتهموننى ...

اختنقت انفاسه ، واسرعت كاترين تحضر ما يلزم لاعطائه حقنة مهدئة . تعذر عليه الكلام ولكنه لم يرفع نظره عن شفتى زوجته التي استمرت تقول :

ـ ما دمت أقول لك ان التحقيق سيحفظ . لقد عاد القاضي الى بازاس ولن يجرى اى تحقيق آخر ... على ان جرادير الآن فى حالة سيئة جدا ، ويؤكد كليراك ان الرئة الثانية قد اصيبت هى الأخرى ، وان المرض سيسرى فى جسده بسرعة الآن . لقد فات الوقت الذى كان يمكن فيه علاجه بحقن الهواء فى الصدر . ربما كان من الممكن الابقاء عليه اذا ما ارسل الى سويسرا ، ولكنه يرفض مغادرة منزل القسيس . والراعى ، لحسن الحظ ، يقبل اقامته عنده . ياله من رجل عظيم ، قسيسنا الشاب المسكين ، فهو صابر على هذه الحال منذ أربعة اشهر كاملة ... والمهمة ليست هينة أبدا ... هذا فضلا عن انه ، وهو فى هذه السن ، معرض لتلقى العدوى ...

استرد ديبا انفاسه ليقول ان القس يعرف جيدا اننا لن ننسى له هذا الجميل وانه سيتلقى فى مقابل ذلك مبلغا لا بأس به من المال . حقيقة انه يؤدى للاسرة خدمة جليلة . ابتسمت ماتلد ، وهزت كتفيها والتفتت الى اندريس وقالت له :

ـ منذ أن اشتدت الحالة سوءا لم يكف الراعى عن السهر على المريض ليلة بعد أخرى ، بينما تتقاسم معه عمة الصغير لاسوس العناية فى الليالى الأخرى . وهو الآن فى شدة الاجهاد ولم يعد يقوى على مداومة السهر . وقد قلت له انك ستذهب الليلة لتحل محله فى هذه المهمة . وهو ينتظرك حوالى الحادية عشرة .

زمجر اندريس قائلا انه كثيرا ما عرض عليه المعاونة ولكن المريض يرفض دائما أن يراه . فقالت ماتلد :

ـ نعم ، من تأثير الخجل ... ولكن أباك راغب من هذا الصباح فى رؤيتك ومقابلتك . هل تدرى أنه تغير تغيرا كبيرا ، وأصبح رجلا

آخر ... تحول لا يصـــدقه العقل ... حتى أنه رغب فى تسليم نفسه الى العدالة ، وقد لاقى القس الأمرين فى أثنائه عن عزمه هذا ومنعه من الخروج ، ولولا انه حدثه عنك ، يا أندريس ، لما نجح فى محاولاته ...

التفت نحوها ديبا الذى تحامل مستندا الى ذراع كاترين ، وقال لها صارخا فى حنق وغيظ :

ـ أرجو ألا تفترى كثيرا !... انه واسع الحيلة كثير الألاعيب لن أطمئن الا بعد أن ...

أشارت ماتلد الى اندريس بألا يرد عليه بشىء . وبعد أن خلا بهما المكان قالت له بصوت عادى لا نبرة فيه :

ـ سأصعد عند سيمفوريون لأنقذ الصـــغيرة منه . اذهب وانتظرها أمام باب المنزل .

***

أخذ أندريس معطفا وجلس على احدى درجات الشرفة يستمع الى نقيق الضفادع والى حفيف الأجنحة وسط النباتات المبتلة . هناك فى مرج آل فرونتناك بلبلان يتناجيان ويتجاوبان فى حنـــان حزين . ولكن اندريس لم يكن يهتم بهذه الأشياء الا ليتبين منها نوع الطقس أو ساعة الزمن أو الجو الذى سيسود فى اليوم التالى . انه لا يفتش فى السماء الا عن الاتجاه الذى تسير فيه السحب .

شعر بالهدوء يغمره . أبوه القاتل سيقضى نحبه ، وهو سيتزوج من كاترين ، وتعود الحياة بسيطة عادية كما كانت . هذا القلق الذى لازمه منذ أربعة أشهر وسد عليه أنفاسه ، ها هو قد تخلص منـه آخر الأمر ... ليس من حقه أن يطمع فى أكثر من ذلك . ان كل ما طمع فيه من حياته قبل الجريمة ، كل ما يختلط عن قرب أو عن بعد بذكرى أبيه ، قد انفصل عنه ومحى من ذهنه . لقد ترك ذلك كله خلف ظهره وانفصل عنه . فلا يحدثه أحد عن الحب وعن هذه الخزعبلات جميعها . سيعيش ، ويرزق البنين والبنات ، ويثرى .. ثم ماذا بعد ذلك ؟ يذهب الى بوردو من وقت لآخر ... ليقضى فيها لهوا ... على الا يترتب على ذلك أية نتائج مقلقة ، والا تكتشف وسائل بخطه ، والا يظهر شاهد يشهد عليــه . ولكن أين توجد

الجثة ؟ لقد سأل تاماتى عنها فى احدى الأمسيات ، فتملثمت وقالت « لست أدرى ... كل ما أعرفه ان أحدا لا يعرف لها مكانا ... ولن يعرف لها مكان أبدا ... » . على كل حال فان اباه سوف يفلت بموته من يد العدالة ...

سمع صوت كاترين وهى تهبط السلم مسرعة وقد اضطربت أنفاسها :

ـ هل لك فى نزهة ، يا عزيزى ؟

جذبته معها . انه يفكر فيها ، كلما غابت عنه ، تفكيرا كله امتنان وعرفان ومودة . ولكن وجودها الى جواره يثير حنقه وغيظه ، وخصوصا عندما يحس منها رغبتها النهمة فيه ، تلك الرغبة التى لا تحسن لها اخفاء . هى الأخرى تبدو ، فى هذا المساء ، خفيفة كأنما تخلصت من حمل ثقيل . يبتعد عنها هذا الاعصار المنيف !.. فقد دفعت الثمن سلفا ، وجاء اليوم دورها لتمتع نفسها بالهناء !.. التصقت فى اندريس وسارت معه الى جوار مرج آل فرونتناك . ما زال البلبلان على البعد فى مناجاتهما ، وقد اكتسب هديلهما صفاء جعل منه أنغاما سماوية . صاحت الفتاة :

ـ أنظر الى السماء ما أصفاها !...

رفع اندريس نظره ، غير حافل ، ونظر من خلال فجوات الأغصان الى اللون الأزرق الصافى ، ثم سألها :

ـ حسنا ... ثم ماذا ؟..

ـ تعال الى المقعد الخشبى .

التصقت فيه بقوة ولم تتحرك . وكان هو يجتهد فى الا ينظر اليها .

ـ سأذهب الليلة لأقضيها ساهرا الى جوار أبى . أرجو الا يقول لى شيئا ...

توسلت اليه الا يفكر بعد اليوم فى هذا الرجل . فلقد مضت وانتهت هذه القصة كلها ... قالت :

ـ أنا سعيدة ...

شعر بشفتين باردتين تنطبعان على عنقه . عندئذ عادت الى جسده ذكرى توتا وحن هذا الجسد الى المرأة التى ضاعت منه . وما أن زال عن كاهله الخطر المتمثل فى أبيه حتى ظهرت آلامه الأخرى آلامه الحقيقية ، ذلك السم الذى يعمل فى فؤاده ، والحب الذى بدونه لم يكن له فى الحياة مأرب . ما الذى يفعله الآن ، على هذا المقعد الخشبى ، بين ذراعى هذه الانثى النحيلة وكأنها جرادة علقت به ؟ ولكنه لم يقو على تحريك ساكن لكى لا يفسد عليها نشوتها ، فتظاهر بالموت .

كانت كاترين تعلم تمام العلم انه لا يحس نحوها بشيء ... وانه الى جوارها جثة هامدة ... ولكنها قانعة منه بتلك الجثة . اليست تضم بين ذراعيها صورة هذا الحبيب الغائب ؟ وأن تحظى منه بالجسد وحده خير على كل حال من الا تنال منه شيئا . راحت تلمس بأطراف أناملها ذلك الوبر الخفيف الذى يكسو يده الغليظة وتمسح عليه فى حركة تبدو غير مقصورة وان كانت فى حقيقتها اكلها رغبة وشهوة .

أما هو فكان يشعر بما كانت تشعر به توتا فى مثل تلك اللحظة. وكان صفير البلابل يصل الى سمعه ، من مرج آل فرونتناك ، كما لو انه وصل الى سمع توتا ، بعيدا ، خافتا ، كأنه قادم من عالم آخر مجهول . نظر بعيني توتا فرأى من وراء شبكة الغصون السوداء زرقة السماء ، التى لم تخفها العتمة بعد ، وقد تباعدت فيها نجوم قليلة ، كأنما عالم الفلك لم يكتمل خلقه بعد ، وكأنما الكون ما زال يخطو خطواته الأولى فى طراوة الفردوس بعد انقشاع حالة الفوضى والعدم . انه انما يستوحى من توتا كل ما يستشعر فى نفسه المجز عن ادراكه بقدرته الذاتية . فهى لا تفتأ تؤكد وجودها فى داخل كيانه، وهو فى الوقت نفسه اندريس ، ذلك الفتى ذو الاثنين والعشرين ربيعا ، الذى لم يتجرد بعد تماما من طبيعته الريفية الجافة العنيفة القاسية . ما الذى يمنعه من تحطيم كل شيء فى سبيله والذهاب توا لملاقاة توتا ، من غير أن يستأذن فى ذلك القس الصغير ؟... فلم تعد به الآن حاجة الى اى انسان . ولكن ، ألا تستحق كاترين

منه شيئا من الرعاية والمراعاة ؟.. فليكن .. ليتزوجها بسرعة !.. ولكن ، ماذا بعد الزواج ؟..

أسندت الفتاة رأسها الى صدر أندريس ، فسمعت من داخل هذا الصدد دقات لم تكد تميزها عن غيرها ، ولكنها لم تجد فيهـا ما يدعو الى التطير وتوقع الشر . فجأة انبعثت منه انة ، ودفعها عنه بلطف ، ثم بدا عليه التنبه لأمر خفى . سألته قلقة بنظرها عما به فرد عليها بصوت خافت حذر :

ـ البلابل !...

خيل لها انه انما يسمع غناء البلابل للمرة الأولى فى حياته .

فى هذه اللحظة استمعت ماتلد هى الأخرى الى صفير البلابل على الرغم من النوافذ المغلقة فى غرفة سيمفوريون المريض . وسط دخان السجائر الطبية كان العجوز مستلقيا وقد أسند جذعه الى أكوام من الوســائد ، لم يلبث أن راح فى نوم مضطرب لاحقه فى خـلاله شعور الخوف والرعب . فقــد انبعثت منه ، من غير أن يدرى ، التنهدات والعبارات المتقطعة التى يعلن بها عن براءته .

أزاحت ماتلد ستائر النافذة وألصقت جبهتها الى زجاجها . أصغت الى خرير الباليون الذى تتكسر مياهه سريعة فوق الحصى والى الصفير القادم من مرج فرونتناك . لقد أوصاها سيمفوريون بألا تفتح نافذة غرفته لأى سبب ... « لمنع دخول لقاحات الأزهار وغيرها من القاذورات النباتية التى تزيد حدة الأزمات فى صدره.. » ولكنها تختنق فى تلك الغرفة العفنة وتتأذى من رائحــة الدخان والبول التى تملؤها . لوح من الزجاج هو الذى يفصل بينها وبين الهواء الطلق ، وبين هذا النهر الجارى الأبيض ، وبين هــذا الليل المنسدل على آخر أزهار الربيع المولى وأولى أزهار الصيف القادم . مست أصابعها رتاج النافذة ثم توقفت مترددة ...

تذكرت قول الراعى لها : « لا تسألى نفسك أى نصيب لك فى هذه الجريمة . انك بريئة منها وأنا على ذلك شهيد . ولكن يجب عليك من أجل ذلك أن تقبلى منذ الآن بصدر رحب كل ما تتطلبه خدمة زوجك ، ان الله يريد منك التوبة والاستسلام بلا قيـد ولا

وجمة » . لم تجد فى الاستجابة لهذا النصح ، فى أول الأمر ، الا حلاوة الخضوع وراحة الضمير . ولكنها الليلة ، للمرة الأولى منذ أن اعترفت بذنوبها بين يدى القس ، تشعر بقواها تخور وبعزيمتها تنفذ فجأة .

هل سبب ذلك أن عدالة الانســـان قد تخلت عن جراذير وان ظلال الموت ، التى بدأت تلتف حول المجرم ، سوف تبتلع تلك القصة المروعة ؟ شعرت ماتلد فى نفسها بفورة غريبة من الحياة والحرية .. ما الذى يربطها ، وهى فى كامل العافية وعنفوان القوة ، بهذا الرجل الذى أوشك أن يتحول الى جثة هامدة ، والذى لا تفارقه الحشرجة والأزمات حتى وهو مستسلم لسلطان النوم ؟ هل أضاع الآخرون هكذا وقتهم ؟ أو تقاعسوا عن السعى الى السعادة والهناء ؟ نعم .. كاترين واندريس ... اندريس وكاترين ؟.. انهما فى هذه اللحظة يتنزهان ... انهما معا ... متعانقان ... أرخت ماتلد الستائر وتسللت الى حجرة الحمام التى لا ينفذ اليها الضوء الا من خـلال طاقة عالية . لتصل الى استنشاق هواء الليل العليل صعدت فوق مقعد خشبى صغير بعد أن كدست عليه مجلدات المجلات المصـورة التى يتسلى سيمفوريون بتصفحها عنـدما يؤرقه المرض . دست رأسها من خلال الطاقة الى الظلام اللامع الذى تتخلله الأغصـان وكواكب السماء ، واستقبلت بوجهها النسيم المبلل . مروج فرونتناك بضفادعها الناعقة تثير فى الجو رائحة النباتات التى تنمو فى الماء . راحت هذه المرأة الغليظة ، من فوق أكوام المجلات المرصوصة ، وقد أسندت منكبيها على حجارة الجدار ، تتلقى كل ما يصل اليها من تلك الظلمة المعطرة المبتلة . أليست هى أيضا امرأة ككل النساء ؟..

ـ ماتلد !...

انهارت أكوام المجلات ، وارتفع الصوت اللاهث يصرخ :

ـ الطاقة !... أحس انك فتحت الطاقة .

دخلت اليه ماتلد فى الغرفة وهى تقول محتجة :

ـ لا . لا . لقد قلبت المقعد بغير انتباه منى . عد الى النوم ، سأرقد أنا أيضا .

وضعت يدها على تلك الجبهة الصلعاء وقد بللها العرق . جو الغرفة فاسد كريه لا يساعد على التنفس . جمعت شتات ارادتها وحاولت أن تصلى . انها تعلم سلفا ان لا أمل لها ولا رحمة تنتظرها من هذه الكلمات التى حفظتها عن ظهر قلب والتى لا يشارك فيها فؤادها بأى نصيب . أخذت تصلى على الرغم من انتمائها الى ذلك الفريق من الأنفس الصماء التى يئست من رحمة الله وعجزت عن ادراك استجاباته ... انها تصلى ولا تسمع شيئا غير الحشرجة الصاعدة من صدر الرجل المريض ، وغير أصوات البلابل المترددة كخرير النبع الدافق ، تلك الأصوات التى كانت تصل الى سمعها من بعيد ، من وراء المروج ، على الرغم من النافذة المغلقة ، والتى تختلط مع خرير المياه المنسابة جارية تحت أقدام الأشجار .

انفتح الباب من غير أن يحدث صوتا كما تفتحه دائما كاترين ، ورأت ماتلد ظل الفتاة يقترب منها :

ـ هل لك أن تذهبى لتتنفسى الهواء بعض الوقت يا أمى ، لقد ذهب اندريس الى بيت القس ليسهر هناك حتى الصباح ... اقضى فى الخارج كل ما يحلو لك من الوقت ... ان الطقس بديع فى هذه الليلة .

قامت ماتلد ، لم تر وجه ابنتها ولكن كفاها أن تسمع صوتها لتعرف انها سعيدة . هذه الرقة ... لم تكن تتوقعها من الفتاة التى تعرف انها أسعد منها حظا ... شكرتها بصوت تجرد من كل نبرة وقالت انها حقيقة فى حاجة الى استنشاق الهواء .

ضوء القمر البازغ يفرش على الكون غلالته . لم تسلك ماتلد الطريق الممهد وانما سارت فى الدرب الصغير الذى بدت لها رماله أكثر بياضا منها فى وضح النهار . توقفت غير متردده امام احدى أشجار الصنوبر . انها الشجرة التى كان يستند اليها « المخبأ » منذ ثلاثين سنة مضت . انها كما كانت لم يتغير فيها شىء سوى الندبات الصغيرة التى حفرت على الجذع ، وقد نمت شقوقا كآثار الجراح القديمة . أسندت فتاة الماضى وجنتها الذابلة على هذا الجذع الخشن . ها هى تلامس بجبهتها اللحاء وقد أغلقت عينيها وانتشرت فى كيانها نشوة مشوبة بالضيق والملل . نظرت من خلال

ذكريات طفولتها البعيدة الى جرادير الصغير بعينيه الزرقاوين ، ثم تزاحمت حولها الاشباح تحيط بها : أديلا ، خادمة المساكين والعجزة التى استسلمت فى جنون ، واندريس ، هذا الوحش الحبيب ، وتلك المرأة التى تدعى توتا ، وتلك الأخرى التى كانت تسمى آلين ، وأخيرا هذا القسيس ... تذرعت بالجراة وراحت تستعرض فى خيالها المآسى والفظائع التى حدثت على مدى نصف القرن ، فى هذا الركن السحيق من العالم ، بين تلك المخلوقات الزائلة ، وتحت نظر الكائن الصمد ... ستتابع تلك المآسى ، وتتلاحق تلك الفظائع فى اندريس ... وفى كاترين ... وفى الذرارى التى سوف تنبع منهما ... وفيها هى أيضا ... ماتلد التى يجب عليها أن تحيا شيخوختها ، أن تنهى تلك الشيخوخة التى ربما كانت بلا نهاية ، من غير أن تنتهى لها رغبة ومن غير أن تخمد لها شهوة . كم قدر لها أن تعيش من السنوات فى هذا التمزق ووسط هذه الالام . لا ، ليس الموت بقاطع شيئا مما بدأه الأموات . ليمت جبرييل ، ليفن ويزل ، ما دام السم باقيا حيا فى الأفعى ينتشر ويتجدد مع الزمن ... ولكن ، جرادير الصغير هذا ، صاحب العين الزرقاء ، ممن تلقى هذا التراث اللعين ؟ ممن انتقل اليه هذا الداء الرهيب ؟ الى أى مدى فى البحث يجب أن نرقى للعثور على سر هذا اللغز الدفين ؟ كم من الرمال المتراكمة يجب أن نزيحها للوصول الى هذا النبع المسموم ؟.

ولكن ماتلد تعلم أن هناك قوة أخرى قادرة مسيرة : لقد نجت أديلا ، فالغلام الجانى الذى أفسدها ولوثها من قبل قد دخل أو كاد الى عالم السماوات . لقد رفع الأمل لواءه بين البشر حتى فى ليوجا نفسها ، وانتصر الحب على كل ما عداه . ذلك الحب الذى يخفى وجهه الحقيقى عن أعين الناس فى هذا الوجود ... وعلى الرغم من أنها لم تتلق من تلك القوة القادرة العون المرتجى ، ولم تحصل منها على الرد الشافى ، فهى ستسير نحوها وتسعى الى ملاقاتها ، عمياء تؤمن بالنور ، مادة نحوها يديها فى توسل وتمنع معا ... نعم ، انها ستسير نحوها وتسعى الى ملاقاتها ، بسبب تلك النعمة التى أضفيت عليها يوما عندما شاهدت بعينيها ، فى ذلك الصباح المعهود ،

الرجل الذي يتحدث الى الله ، في تلك الغرفة الحقيرة الجرداء ؟ داخل كنيسة ليوجا الصغيرة . لم تكن ماتلد تسعى الى النجاة من أجل نفسها . لا ، ليس من أجل آخرتها تسلك هذا السبيل ، فكل ما تعدى نطاق الجسد لا يعنى شيئا فى تفكيرها . فهى ليست سوى مخلوقة أنثى يردها كل ما يدور فى ذهنها الى أندريس وحده . ومن هذا الايمان الذى انبثق بصورة أو بأخرى فى ضميرها ، لم يعلق قلبها الا بالرغبة فى تذوق العذاب من أجل انسان آخر . ولو قدر فى أقل القليل لهذا الصبى المحبوب أن يفيد شيئا من هذا العذاب ... اذن فلن يكون لها مطمع آخر ، وهى تقبل راضية أن تقضى اختناقا بين جدران هذه الغرفة الفاسدة .

***

قال اندريس :

ـ لقد حان الوقت الذى يجب على فيه أن أذهب للسهر على أبى ...

لم يكن يجهل أن الأب فوركاس لا ينتظره قبل الحادية عشرة . ولكنه لم يعد يطيق حمل رأس كاترين على كتفه . طلبت اليه أن ترافقه حتى مشارف القرية ولم يجد سببا يتعلل به لابعادها عنه . وما أن وصلا الى أول بيت فى القرية حتى تمنى لها ليلة هادئة وسار بمفرده فى طريقه .

نور البدر يغمر بيت القسيس وينتشر على واجهته الكالحة . ما زالت أمام اندريس فرجة من الوقت قدرها ثلاثة أرباع الساعة . انه يود لو استغل حريته هذه أطول وقت ممكن . ولكنه يخشى ... ليست خشيته من أبيه ، فقد أصبح الرجل المريض عاجزا يكاد لا يتكلم ، وانما من الراعى ... عليه أن يواجه نظرات هذا الرجل . هل أوتى هذا القس القدرة على ثبر أغوار النفس وعلى قراءة ما فى الضمير ؟.. انه سيكشف ما يجول فى أعماق قلب اندريس وربما عاد يلح عليه فى توسل قائلا : « لقد فتحت ذراعى لأبيك وهو على حافة القبر ، فلا تقابل احسانى بالاساءة ... اترك أختى وشأنها ... » ماذا يكون الرد على مثل هذا الرجاء ؟ وبماذا يواجه هذا الكلام ؟ لا يعرف اندريس الكذب ، ولم يعتد اخفاء ما فى ضميره . فالخير له أن يكون جوابه مبهما لا يعنى شيئا . ما أشد

ما يكره هؤلاء الناس الذين لا هم لهم الا تسميم حياة الآخرين ، والعمل على جعلهم أشقياء كما هم أشقياء !... هذه الأفكار كانت تجول فى خاطر الشاب وهو يقترب من بيت الراعى . رفع نظره الى ما يعلو حائط الحديقة ، الى الواجهة المطلة على هذه الناحية .

المصباح الضئيل الذى يضىء حجرة ابيه يلمع من خلال احدى النوافذ . رأى اندريس أول ما رأى شبحا أسود أمام النافذة المفتوحة . لا شك انه القس وقد جلس على حافة النافذة وأسند كاهله الى الحائط فظهرت صورته القاتمة بارزة على الجدار المضاء خلفه . فك القس أزرار مسوحه والقى براسه قليلا الى الوراء ، فظن اندريس انه لا بد يستنشق الهواء . ولكن الرجل الجالس لم يكن يبدى ما ينم عن الألم الذى يفترسه . لقد قضى القس ساعة يحاول ادخال الهدوء الى قلب المريض ، فلقد تقرر أن يتناول جرادير سر المناولة فى صبيحة اليوم التالى ، وأمام ما يشعر به من خوف ورهبة فقد راح يبدى من وقت لآخر رغبته فى اعادة الاعتراف بما كان يعود الى ذاكرته من ذنوب وآثام تاه عنه حصرها . نجح القس الشاب مرة أخرى فى اعادة الهدوء الى روعه . ها هو القاتل الفاجر يبتسم الآن لرهط الملائكة المحيط به .

بعد ان أخذ الاعياء من آلان كل مأخذ اقترب من النافذة . لقد أسبغ كل ايمانه وكل آماله وكل حبه على هذا الرجل المريض ،وهو الآن يشعر بالفراغ وكأنه قد تجرد من كنز ثمين كان يحمله . الباليون على مرمى الحجر منه يزخر بمياهه فوق الحفرة العميقة التى ألقى فيها جرادير حديدة الجاروف ليلة الجريمة ، والرياح من وقت لآخر تهز أشجار الحور القائمة على حافة الغدير . كلما هدأ اضطراب الأغصان وما تحمله من أوراق ، وصل الى سمع الراعى ، على البعد، صفير بلبلين تاها وسط الأدغال . الليل كأنه انسان يتنفس وكانت أنفاسه الحالمة تصل الى رأس آلان وتموت وسط شعره حاملة اليه عبيق النعناع البرى النامى على حافة الماء والرياحين المنتشرة فى أنحاء القرية وما بقى من أزهار الآس . ومن يمينه ، فى أقصى الغرفة ، وسط أزمات السعال ، وصوت المبصقة وهى ترتطم بالمنضدة الى جوار الفراش ، كانت تصل الى سمعه همهمة مبهمة

لم يميز منها غير هذه الكلمات : « ارحمنا واغفر لنا ، نحن المذنبين الخاطئين ... »

انه ذاهب الى الجنة فى سلام ، هـذا الرجل الذى كان قاتلا عدوا للنفوس . انه ذاهب يطفح بشرا وسـعادة . بينما الشـاب العف ، الذى آواه تحت سقفـه والذى أنقـذه من اليأس ، والذى أزال عنه ذنوبه وأوصابه ، هذا الشاب يشعر فى تلك اللحظة نفسها بالاضطراب يملأ ضميره والهم يغمر كيانه . ان الذى يؤرقه ليس هو فى الواقع من قبيل ذلك الاغراء الذى يوسوس له به الشيطان والذى يستطيع كبح جماحه بمجـرد وروده فى خاطره ... انه ليعجز عن تحديد ذلك الأسى الذى يملأ قلبه ، وتلك الرغبة الجامحة التى تدفعه الى الاشفاق والى الدموع . ليس فى ذلك الشـعور شىء يدعو الى العار ولا حتى الى الخجل ... وهو مع ذلك يشيع فى نفسه اضطرابا عظيما ، اذ يولد فيه الاحساس بأنه لم يعد فى حضرة الله ... بأنه فقـد الاتصال بالله ... لا ، انه لم يفقد هـذا الاتصال تماما ، وما زال الحب يعيش فى أبعد أغوار فؤاده ... ان الحب الحى لم ينقل من قلب هذا الرجل مقامه ... كل ما فى الأمر أن هذا القلب الـكسير قد التفت قليلا نحو شىء ، لم هو الآخـر وجود ، نحو ذلك الوجه المظلم من الحياة . لقد تفتح لتلك الروائح الزكية المنبعثة من ماء الحياة . يوجد فى تلك الغرفة رجل يحتضر ، أخلص طوال عمره للجسد ، وأطاع كل ما أمر به الشيطان وتفانى فى خضوعه هذا الى أبعد حدود الجريمة ، وهو مع ذلك يرقد الآن بين يدى الله ، وينهى أيامه فى سلام وأمن ... « وأنا ، يا ربى ، أنا عبدك الذى أخلصت لك منذ اللحظة الأولى الاخلاص كله ، ولم أشرك بك أحدا ، سأختنق فى قلبى غير نادم كل ما ثار فى نفسى عنـدما واجهت تلك الليلة ، سأقتله تقتيلا اذا كانت هذه مشيئتك لأنى لا أحب الا اياك » .

* *

سمع طرق الباب والتفت برأسه فرأى اندريس . ترك الراعى مكانه على حافة النافذة وأمسك بيد الشاب الذى راح ينظـر الى

تلك الحجرة ـ لا الى السرير الذى يرقد فيه أبوه ـ ولكن الى تلك الحجرة التى كانت من قبل حجرة توتا . فهم القس للوهلة الأولى إن أفكار اندريس انما اتجهت اليها هى ، فثار فى نفسه شعور بالغيظ وأدرك ما ملأ قلبه فى تلك اللحظة من حنق وكره . ولكنه اكتسب الخبرة التى تمكنه من اتخاذ الحذر فأسرع يوجه قوته كلها لكبح جماح هذا الانفعال الوحشى . حاول ان يبتسم وأخذ يرد فى صوت خافت على ما يوجهه اليه الشاب من اسئلة .

لم يمنعه ذلك من الاصغاء الى صوت دفين أخذ يهتف به : «أنظر اليه كيف هو سعيد لوجوده بين هذه الجدران الأربعة ... هل يعنى بأمر أبيه شيئا ؟.. انه لا يفكر الا فيها هى ... فى توتا ... ما أيسر تخيله لها فى هذا المكان !.. ولا حاجة به لافتراض الفروض لذلك ... فما من أحد يعرفها أكثر منه ... لا ، ما من أحد ...»

قال له أندريس :

ـ كم انت شاحب اللون ، يا سيدى ، هل بك ألم ؟...

هز الراعى رأسه ولم يجب فقد كان يضم أسنانه غيظا . تلعثم وهو يقول انه بحاجة الى استنشاق الهواء ، وعاد الى جوار النافذة ، بينما ذهب اندريس ليجلس الى جوار أبيه . كانت البلابل قد همدت وكفت الأشجار عن الاضطراب . سأل القس نفسه فى اقلق : « هل وهنت منى العزيمة أمام هذه الكراهية ؟ هل ما زلت متمتعا برضاء الله ؟ » . قال لنفسه : هل فى استطاعته أن يؤدى القداس بعد بضع ساعات ؟ واذا بالصوت الهاجس يجيبه : « أيا كان الأمر ... ليس ما يحول بينك وبين الامتناع عن الصعود الى المذبح صباح غد ... ففى حالة الشك ... » نعم ، ولكن ، أى الاسباب ينتحلها أمام لاسوس الصغير ؟.. قرر الان ، وقد زاغ تفكيره ، أن يتعلق بأهداب المبدأ الذى استنه لنفسه : وهو الاستسلام المجنون الى الثقة العمياء ... الثقة الى حد الجنون . نعم ، ولكن ، الا يعتبر ذلك انتهاكا للحرمات ؟ ما من ثقة يمكن الاعتداد بها فى مواجهة الحرمات المنتهكة . أصغى الان الى ذاكرته القاسية وهى تعيد اليه كلمة كلمة نصا من الانجيل يقول : « يا صديقى ، لماذا لم

ترتد ثوب الزفاف ؟ أمسك به الخدم وألقوا به الى الظلمات الخارجية ... »

❊❊❊

في تلك الأثناء استيقظ المريض وراح يحادث اندريس في صوت خافت . لم يكن القس ، وهو في أعمق أغوار الفتنة والغواية، بغافل عن التسمع لما يقول : « اني أموت مطمئنا ، يا صفيري اندريس، يا له من سلام يعجز الذهن عن تصوره !... » عادت الشكوى تئن قوية عنيفة في قلب آلان : هل غرر به الى هذا الحد ؟ هل خدع الى هذا المدى ؟ يا لسخرية القدر !.. يا لدراية المصير !.. كيف ينجو هذا المجرم الاثيم ... وكيف يهلك هو كل هذا الهلاك ؟... على الرغم من العاصفة الهوجاء التي تضطرب على صفحة روحه ، ارتفع صوت خفي ، خنقه البعد ، وارتد من أعماق الهاوية ، فجاء يطرق شغاف قلبه ليقول له : « أنا هنا ، فلا تخف شيئا ، أنا في هذا القلب ، أنا فيه الى الأبد » .

أسند الراعي الشاب رأسه الذي يسيل منه العرق الى عارضة النافذة . كم من مرة رأى في أثناء ليالي سهده ذلك الصليب الذي ترسمه عارضتا النافذة على ظلمة الليلة !.. وكم من مرة خر متعبدا أمامه !... انه يحس في جبهته اثر المسمار الضخم البارز في قدم المصلوب كما يحس بالدم المتدفق ساخنا من تلك القدم القدسية يبلل شعره . نعم ، انه لم يولد الا لهذه المهمة . ان الحب يملأ قلبه ويكاد يخنقه . أغلق عينيه .

ناداه جرادير فانتفض ، واقترب من فراش الرجل المريض . اندريس واقف الى جوار السرير وقد أحنى رأسه . تنحى الى الخلف عند اقتراب الراعي .

ـ ما الذي استطيع أن أقدمه لك في هذا العالم ، لقاء ما قدمته الي ؟... ولكني واثق من الوعد الذي قطعه ابني على نفسه ... أنت تفهمني ... لا تخشى بعد اليوم منه شيئا ... أليس كذلك ، يا أندريس ! أعد عليه بنفسك ما وعدتني به ...

أشار الفتى اشارة القبول والموافقة من غير أن يلتفت برأسه.

وساد السكون العميق فى أرجاء تلك الحجرة ، فقطعه الراعى بقوله :

ـ سأنهى أنا السهر حتى الصباح . اذهب أنت لتنام . أما أنا فقد تعودت ذلك .

قام أندريس وقبل أباه فى جبهته . نزل معه آلان وجذب مزلاج الباب . على الدرجات البالية ، التى يكسو القمر بضوئه كل ما فيها من تجاعيد ، وقف الشابان كل منهما فى مواجهة الآخر . وفى هذه اللحظة اكتشفا من النظرة البسيطة التى تبادلاها ومن مسة اليد بينهما مقدار ما يجمعهما من حب عميق .

« تمت »

الدار القومية للطباعة والنشر

٢٠٦

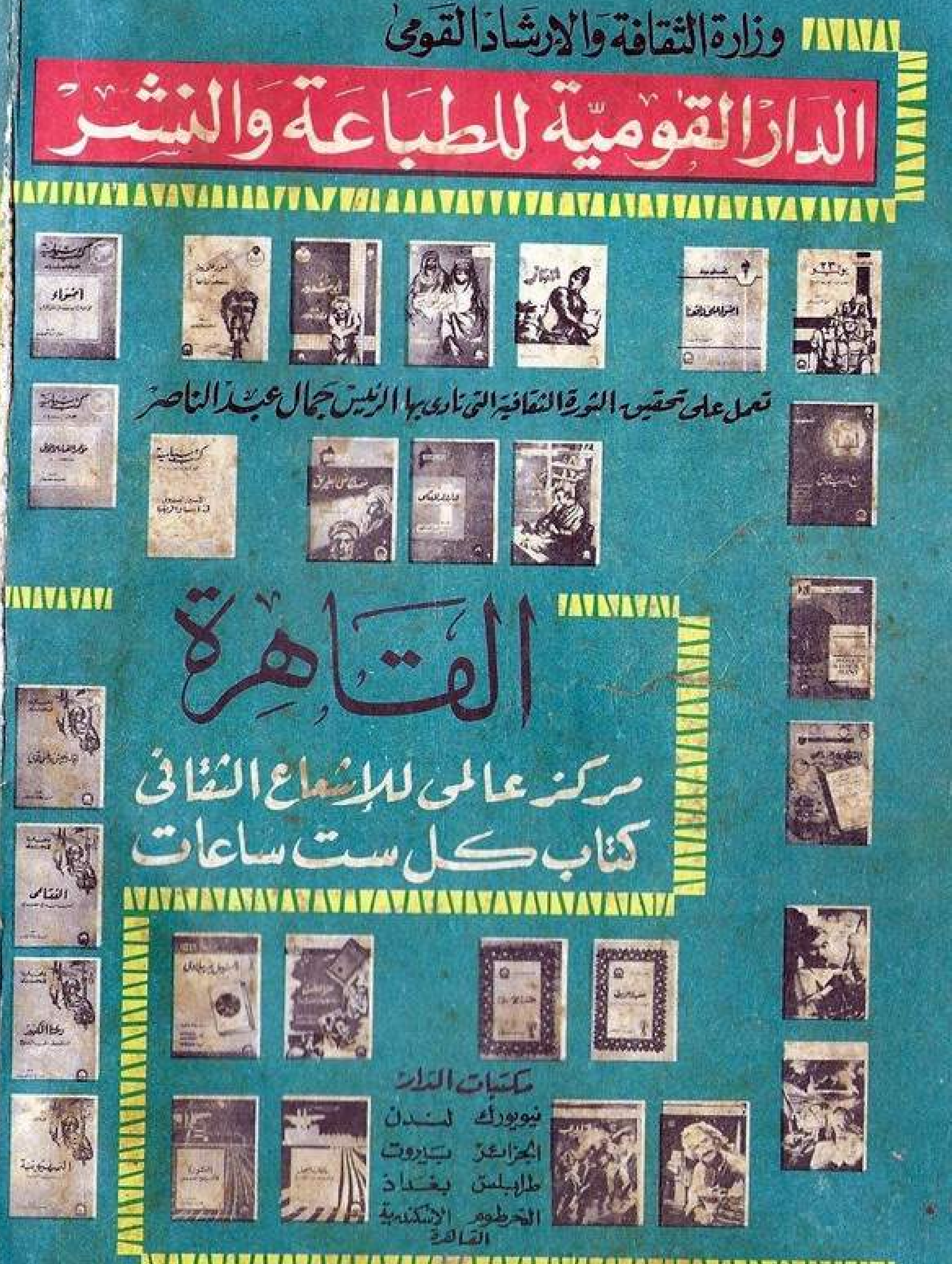

وزارة الثقافة والارشاد القومى
الدار القومية للطباعة والنشر
تعمل على تحقيق الثورة الثقافية التى نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر
القاهرة
مركز عالمى للإشعاع الثقافى
كتاب كل ست ساعات
مكتبات الدار
نيويورك لندن
الجزائر بيروت
طرابلس بغداد
الخرطوم الاسكندرية
القاهرة